تذكير الأحباب بدروس من

سورة الأحزاب

جمع وترتيب

م/محمد سرحان

فهرس المحتويات

تمهيد ٤
نظرة علي العالم اليوم ٦
المجتمع المسلم ٧
واجب المسلمين ١٠
لماذا هذا الكتاب الآن؟!!!! ١١
ذكريات مع سورة الأحزاب ١٥
مقدمة بين يدي سورة الأحزاب ١٨
الباب الأول غزوة الأحزاب ٢٣
الفصل الأول قصة غزوة الأحزاب ٢٤
الفصل الثاني نعمة التأييد الإلهي ٣١
التأييد الإلهي في قصة نعيم بن مسعود ٤١
الفصل الثالث أصحاب الهزيمة النفسية ٤٦
الباب الثاني خصائص النبي ﷺ في سورة الأحزاب ٥٧
الفصل الأول (نداء : يأيها النبي) ٥٨
الفصل الثاني النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ٦٥
الفصل الثالث نصر النبي ﷺ بالريح وبالرعب ٦٩
الفصل الرابع زوجات النبي ﷺ ٧٤
الفصل الخامس محمد ﷺ خاتم النبيين ٩٣
الفصل السادس القسم بين الزوجات ٩٧
الفصل السابع الصلاة والسلام عليه عبادة ١٠٤
الباب الثالث أهم الأحكام الشرعية في سورة الأحزاب ١١٠
الفصل الأول تحريم التبني ١١١
الفصل الثاني المطلقة قبل الدخول ١١٩
الفصل الثالث حكم الحجاب ١٢٦
قاسم أمين الصدمة الكبري ١٣١
دور سعد زغلول ١٣٦

ردود الأفعال..... ١٣٨
عود علي بدء..... ١٣٨
منشأ الخلاف في الحجاب..... ١٤٠
مناقشة أدلة الحجاب في سورة الأحزاب..... ١٤٤
الباب الرابع دروس التربية الإيمانية للمسلمين..... ١٥٤
الفصل الأول دروس الترغيب..... ١٥٥
الدرس الأول : من قول الله تعالي (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)..... ١٥٦
الدرس الثاني : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة..... ١٦١
الأسوة في الشوري..... ١٦٢
الأسوة في علي بن أبي طالب..... ١٦٥
الأسوة في سعد بن معاذ..... ١٦٨
الأسوة في حذية بن اليمان..... ١٦٩
الدرس الثالث : المساواة بين الرجل والمرأة في الصفات الإيمانية..... ١٧١
الدرس الرابع : لا إختيار بعد إختيار الله ورسوله..... ١٧٥
الدرس الخامس : ذكر الله والصلاة والسلام علي رسول الله..... ١٧٦
الدرس السادس :القول السديد..... ١٨٢
الفصل الثاني دروس الترهيب..... ١٨٤
الدرس الأول : إثم من يأذي الله ورسوله..... ١٨٥
الدرس الثاني : إثم من يأذي المؤمنين والمؤمنات..... ١٨٨
الدرس الثالث : سنة الله في المنافقين..... ١٩٠
الدرس الرابع : وعيد الله للكافرين..... ١٩٣
الخاتمة..... ١٩٦
المراجع..... ٢٠٧

تمـهيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

{الْحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾}

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُبْتَدِئُ بِحَمْدِ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ حَامِدٌ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الرَّبُّ الصَّمَدُ الْوَاحِدُ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا يَمُوتُ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْمَوَاهِبِ الْعِظَامِ، وَالْمُتَكَلِّمُ بِالْقُرْآنِ، وَالْخَالِقُ لِلْإِنْسَانِ، وَالْمُنْعِمُ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ، وَالْمُرْسِلُ رَسُولَهُ بِالْبَيَانِ، مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَرْسَلَهُ بِكِتَابِهِ الْمُبِينِ، الْفَارِقِ بَيْنَ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ، الَّذِي أَعْجَزَتِ الْفُصَحَاءَ مُعَارَضَتُهُ، وَأَعْيَتِ الْأَلِبَّاءَ مُنَاقَضَتُهُ، وَأَخْرَسَتِ الْبُلَغَاءَ مُشَاكَلَتُهُ، فَلَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. جَعَلَ أَمْثَالَهُ عِبَرًا لِمَنْ تَدَبَّرَهَا، أوامره هُدًى لِمَنِ اسْتَبْصَرَهَا، وَشَرَحَ فِيهِ وَاجِبَاتِ الْأَحْكَامِ، وَفَرَّقَ فِيهِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَرَّرَ فِيهِ الْمَوَاعِظَ وَالْقِصَصَ لِلْأَفْهَامِ، وَضَرَبَ فِيهِ الْأَمْثَالَ، وَقَصَّ فِيهِ غَيْبَ الْأَخْبَارِ، فَقَالَ تَعَالَى "مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ." وخاطب بِهِ أَوْلِيَاءَهُ فَفَهِمُوا، وَبَيَّنَ لَهُمْ فِيهِ مُرَادَهُ فَعَلِمُوا. فَقَرَأَةُ الْقُرْآنِ حَمَلَةُ سِرِّ اللَّهِ الْمَكْنُونِ، وَحَفَظَةُ عِلْمِهِ الْمَخْزُونِ، وَخُلَفَاءُ أَنْبِيَائِهِ وَأُمَنَاؤُهُ، وَهُمْ أَهْلُهُ وَخَاصَّتُهُ وَخِيرَتُهُ وَأَصْفِيَاؤُهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ } وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها } جَعَلَنَا اللَّهُ مِمَّنْ يَرْعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَيَتَدَبَّرُهُ حق تدبره، ويقوم بقسطه، ويفي بِشَرْطِهِ، وَلَا يَلْتَمِسُ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ، وَهَدَانَا لِأَعْلَامِهِ الظَّاهِرَةِ، وَأَحْكَامِهِ الْقَاطِعَةِ الْبَاهِرَةِ، وَجَمَعَ لَنَا بِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ. ثُمَّ جَعَلَ إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَانَ مَا كَانَ مِنْهُ مُجْمَلًا، وَتَفْسِيرَ مَا كَانَ مِنْهُ مُشْكِلًا، وَتَحْقِيقَ مَا كَانَ مِنْهُ مُحْتَمَلًا، لِيَكُونَ لَهُ مَعَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ظُهُورُ الِاخْتِصَاصِ بِهِ، وَمَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ إليه، قال اله تَعَالَى: { وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } ثُمَّ جَعَلَ إِلَى الْعُلَمَاءِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِنْبَاطَ مَا نَبَّهَ على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا باجتهاد فِيهِ إِلَى عِلْمِ الْمُرَادِ، فَيَمْتَازُوا بِذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَيَخْتَصُّوا بِثَوَابِ اجْتِهَادِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ":يَرْفَعِ

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ."فَصَارَ الْكِتَابُ أَصْلًا وَالسَّنَةُ لَهُ بَيَانًا، وَاسْتِنْبَاطُ الْعُلَمَاءِ لَهُ إِيضَاحًا وَتِبْيَانًا. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ صُدُورَنَا أَوْعِيَةَ كِتَابِهِ، وَآذَانَنَا مَوَارِدَ سُنَنِ نَبِيِّهِ، وَهِمَمَنَا مَصْرُوفَةً إِلَى تَعَلُّمِهِمَا وَالْبَحْثِ عَنْ مَعَانِيهِمَا وَغَرَائِبِهِمَا، طَالِبِينَ بِذَلِكَ رِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمُتَدَرِّجِينَ بِهِ إِلَى عِلْمِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

والصلاة والسلام علي صاحب الدين القويم، والمنهج المستقيم، والخلق العظيم، والخلق السليم، وارسله ربه رحمة للعالمين، ونجاة لمن آمن به من الموحدين، وإماماً للمتقين، وحجة له على الخلائق أجمعين، وشفيعاً في المحشر ومفخراً للمعشر، ومزيلاً للغمة، عن جميع الأمة.

فهذا كتاب أسميته (تذكير الأحباب بدروس من سورة الأحزاب) جمعت فيه أقوال المفسرين في هذه السورة الكريمة ، ورتبتها علي حسب الموضوعات الرئيسية للسورة ، أسأل الله عز وجل يجعل له القبول عند قارئيه ، ويجعله نافعا للناس في الدنيا ، ولي عند الوقوف بين يديه ، يوم العرض عليه .

نظرة علي العالم اليوم

العالم يحكمه اليوم حفنة من الأثرياء الذين لا خلاق لهم ويسعون في الأرض فسادا بالسعي لإستبدال التعاليم الدينية بحزمة من القوانين الوضعية لتنظيم المجتمعات بمنأي عن حكم الدين ومحاولة حصر الدين في دور العبادة . هؤلاء الحفنة منهم من أصبح يحكم بشكل مباشر كرئيس الولايات المتحده الأمريكية وذيوله من أمراء وسلاطين الخليج العربي ، ومنهم من يحكم في الخفاء مستخدما كتائب إعلاميه لتشكيل وجدان الشعوب من خلال المنصات الإعلاميه المتنوعة وأصحاب النفوذ من ذوي الرتب العسكريه الذين تربوا علي مبادئ عسكرية تقوم علي فصل الدين عن الحكم.

ومع تطور الصراع بين أهل الصلاح وأهل الفساد أصبح مجرد إستبدال التعاليم الدينيه بقوانين وضعية وحصر الدين في دور العبادة غير كاف أمام تطور النظام العالمي الجديد بقيادة أمريكا . وبدأ مع نهايات القرن الماضي التبشير بديانة جديدة أسمها العولمه لاتكتفي بحصر الدين في دور العبادة والإحتكام للقوانين الوضعيه ولكن تقوم علي محاربة الثقافات المحليه

والنصوص الدينية وطمس هوية الشعوب وكل مايقف عثرة في طريق تحقيق أهدافها .

أصبح المطلوب هو محو ذاكرة الشعوب ونسف إنتماءات الفرد إلي دينه أو وطنه أو مجتمعه حتي تتمكن من تشكيل وجدان الناس في مختلف بقاع الأرض وتحويلهم إلي طاقات هدامة وليست خلاقة مجرد عملاء مستهلكين لبضاعتهم الكاسدة بعد تحويل هذا العالم وكأنه قرية واحدة ، ولكي يتم ذلك لابد من تدمير أي هيكل مترابط وقطع سبل التواصل المعتدل وخلق حالة من التشظي والتشرزم والتحزب بتفكيك أي رابطة دينية بين الشعوب.

الفرد أصبح هو المستهدف من برامج العولمة ، ومن أجل ترغيب الفرد وجذبه ليدور في فلك هذه الديانة الجديدة (العولمة) يتم التركيز علي حق الفرد في المتعة بلا حدود وإشباع شهواته بلا قيود والتحرر من أي ضوابط وفي حال تعارض هذا الحق مع قوانين المجتمع يكون التدخل لتعديل قوانين المجتمع لصالح الفرد .

المجتمع المسلم

نجحت العولمة إلي حد كبير في تحقيق أهدافها في المجتمعات المسلمة وإستطاعت إستبدال الأحكام الشرعية بأحكام وضعية وغيبت الحدود وأصبحت المجتمعات المسلمة مهيأة لتقبل وتشرب كل مايصدره لها الغرب وبقيت الأسرة المسلمة هو حجر العثرة الأخير للقضاء تماما علي كل مظاهر الهوية المسلمة.

وبما ان نظام الزواج الإسلامي هو حجر الزاوية في تأسيس الأسرة المسلمة فقد توالت وتنوعت الهجمات لهدم هذا النظام والقضاء عليه حيث بات يترنح امام مسميات مختلفة لعلاقة الرجل بالمرأة وكذلك وضع الأسرة تحت ضغوط هائله نتيجة توحش رأس المال وإختراق مؤسسات التكافل الإجتماعي والتأمين الصحي عن طريق أذناب الحكام الجدد للعالم من الأثرياء وأصبح الحفاظ علي الأسرة كوحدة أساسية في المجتمع ضد أهداف العولمه وتنوعت وسائلها في هدمها بدءا بإستباحة الإختلاط بين الرجل والمرأة في العمل وفي التعليم وخلافه ، ثم تعويق الزواج الشرعي وتسهيل الزواج العرفي ورفع الحرج عن دواعي الزنا واتخاذ الخليلات عن طريق الفن ومحاربة الحجاب

وكل مايساعد المرأة علي العفاف كمنع الختان ومحاربة التكاثر في الأولاد الذي هو الغاية الكبري من الزواج وتكوين الأسرة المسلمه .
لتحقيق هذه الغاية بهذه الوسائل المتنوعه أنشأت المنظمات والمؤسسات ورصدت الميزانيات والإستثمارات الضخمه التي تعود في النهاية إلي خزائن هذه الحفنه من الأثرياء التي تحكم العالم الآن والتي لا تعمل إلا من أجل زيادة ثرواتهم بقوانين وضعية يروج لها من خلال آلة الإعلام الضخمه والمتوحشة ومواقع التواصل الإجتماعي لترسيخ مايسمي بالحرية والديمقراطية والأحزاب الحاكمة التي تمولها شركات عملاقه عابرة للقارات لا تملك المال فقط ولكنها تملك المعلومات والمعارف القادرة علي توجيه سلوك الناس وإصابتهم بالدهشة والإنبهار وتحفيزهم علي القيام بأفعال محددة.
ومما ساهم في هذا الإنتشار السريع للعولمة ظهور التقنيات الحديثة وثورة الإتصالات وتطبيقات الهواتف الذكية ووسائل التواصل الإجتماعي ويبدو ذلك كله في إطار مجاني او بأسعار زهيدة رغم ان متلقي هذه الخدمة هو نفسه أتاحت العولمة بشكلها الجديد لحكام العالم الجدد إمكانية السيطرة والتحكم في أدق تفاصيل حياة المسلم حتي تحولت إلي مصطلح جديد إسمه القولبه حيث يمكن تشكيل المجتمعات في قوالب محددة.لسلعة التي تسعي هذه الشركات والمؤسسات العملاقة للإستحواذ عليها .
الحضارة الغربية التي أصبحنا نعيش في كنفها بسبب (القولبة) حتي إشعار آخر ، نجحت في فصل الدين عن الدوله في بلادنا ونقلت الفرد من عبادة الخالق إلي عبادة المخلوقين ومن تبعية الأحكام الشرعية إلي تبعية الأحكام الوضعيه ومن تقديم الشرع والعلم الشرعي إلي تقديس العقل والعلم الدنيوي ، ولكنها فشلت في تقديم منظومة أخلاقية بديلة لمنظومة الدين .
قدمت هذه الحضارة منظومة قوانين تنظم سلوك الأفراد في المجتمع وتلزمه بعدم التعدي علي حقوق الآخرين ولكنها فشلت في إيجاد القيم الإيمانيه كالرحمة والإحسان والرفق والعفو والضمير والمراقبة في السر والعلن ، يمكن لهذه الحضارة ان تقدم أحسن الدواء ولكنها لا يمكن أن تضمن الشفاء لأن الشافي هو الله ،يمكن ان تقدم أفخم وأوثر الفرش والأثاث ولكنها أبدا لايمكن ان تمنح النوم وراحة البال ، يمكن ان تقدم أطيب المطعومات

والمشروبات ولكنها لا تضمن الصحه والعافيه التي تهضمها ، لقد فشلت هذه الحضارة في إيجاد مجتمعات خالية من الجرائم الكبري كالقتل والإغتصاب والرشوة كما كان المجتمع الإسلامي في بداياته عدد من المفكرين الغربيين مثل نعوم تشومسكي (١) وباومان (٢) تنبهوا إلي هذه الهوة السحيقه بين منظومة القوانين الوضعية ومنظومة الأخلاق فنبهوا مجتمعاتهم إلي مغبة التمادي في هذه الحداثه ، ولكن مع الأسف مجتمعاتنا الإسلامية لم تجد من ينبهها ولا من يناقش هذا الأمر بحرية بل وجد من بيننا من يسعي إلي جر مجتمعاتنا بالكلية للخوض في غمار هذا المستنقع دون هوادة او تروي ومما يؤسف له أيضا ان هؤلاء المستغربين كانوا هم الأعلي صوتا والأشد سطوه في كل وسائل نشر الفكر

---

١. [1]نعوم تشومسكي،(ولد في ١٩٢٨/٧/١) عالم لغويّات أمريكي ومنظّر سياسي وناشط. يُشار إليه في كثيرٍ من الأحيان باسم "أب اللّغويات الحديثة." في أواخر الستينيات، بدأ نعوم تشومسكي في الانخراط أكثر في النشاط السياسي. وكان دائمًا يتحدث عن ميوله اليسارية، وفي عام ١٩٦٧ بدأ التحدث علنيًا ضد السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

٢. ٢زيغمونت باومان، فيلسوف بولندي. ولد في بوزنان سنة ١٩٢٥، لأبوين يهوديين اضطرا لمغادرة بولندا بعد الغزو النازي سنة ١٩٣٩ في اتجاه الاتحاد السوفياتي. واختارا سنة ١٩٥٣ التوجه إلى إسرائيل. غير أن ذلك لم يَرُق له لمعاداته للصهيونية. نشر بومان ما يقارب السبعة والخمسين كتابا ، وهي أعمال تشمل مجالات مختلفة مثل: العولمة، والحداثة، وما بعد الحداثة، والاستهلاك، والنظام الأخلاقي، والبيروقراطية، والعقلانية، والإقصاء الاجتماعي

واجب المسلمين

هذه الصورة القاتمة والوضع المتردي لأوضاع المسلمين أصبح يتطلب إنتفاضة دعوية من أهل العلم بشتي الطرق وفي كل البقاع سواءا بدروس العلم والخطابة في المساجد او بكتابة الكتب والمقالات وإدارة حلقات للحوار والمناقشة لتوعية وتنبيه المسلمين بما يحاك لهم .

أصبح الخطب أكبر من الإعتماد علي أساليب الدعوة التقليديه التي يقوم بها فئة معينه متخصصه من الأزهر او من الأوقاف لأن الهجمات شرسه ومتنوعه وتنوعت وسائلها وأساليبها بتنوع التقنية الحديثه من أجهزة إتصال وأجهزة عرض وفضائيات وهواتف ذكية وحواسب ، كلها أنظمة حديثه أصبح من العبث الإبقاء معها علي الصورة النمطية للدعوة من مجرد شيخ معمم او ينفرد بمجموعة من المصلين او مرتادي المساجد في المناسبات ليلقي عليهم كلاما تقليديا في الفقه او في العقيده يحثهم فيه علي الإحسان للجار أو بر الوالدين ، أصبح الأمر اكبر من ذلك حتي في موضوعات الدعوة ، يجب الا يكون الحديث نمطيا مباشرا كما اعتاده الناس وانما يجب فتح حوار واسع عن هوية المسلم واسترجاع الصورة الذهنية للمسلم المنتصر المعتز بإسلامه والمستعد ان يستغني عن متعه وشهواته في سبيل الحفاظ علي هويته الأسلاميه والإستعداد للتضحية بنفسه وماله.

إذا كان من حسنات الصحوة الإسلامية التي ظهرت في ثمانينيات القرن الماضي انها حررت الدعوة الاسلامية من روافدها التقليديه واتاحت للطبيب والمهندس والمحامي والمحاسب ان يشارك الأزهري في الدعوه علي المنابر وفي مجالس العلم ، الآن تدعو الحاجة لمشاركة كل صاحب فكر ومنهج سليم علي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم الصحيحه في التنبيه والتوعية بالكلمة المسموعة والمكتوبة سواءا في محاضرة او في كتاب او في مقال وليكن هدفنا واضح هو إستعادة وتثبيت هوية المسلم وصبغه بصبغة الله وليكن يقيننا في نصر الله متمثلين قول الله تعالي في سورة البقرة ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّـهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العليم ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّـهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّـهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُون ﴿١٣٨﴾

لماذا هذا الكتاب الآن؟!!!!

مهما أستحدثت من وسائل لنقل المعارف والعلوم ، يبقي الكتاب هو سيد هذه الوسائل ، فمازلنا حتي اليوم نتلقي أصول ديننا من كتب التراث كصحيح البخاري ، وصحيح مسلم وغيرهما ، ومازالت أفضل التلاوات للقرآن الكريم هي التي تتلي من المصحف الورقي وليس الإلكتروني .

وبفضل الله تعالي أمكن الإستفادة من محدثات العصر في تجويد الطباعة ، وتحميل الكتب إلكترونيا مما يسهل البحث والدراسة وحفظ التراث ، وقد ثبت عن رسول الله صلي الله عليه وسلم قوله (إذا مات إبن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) [٣] وقال أيضا (بلغوا عني ولو آيه) [٤] ،

ففي هذين الحديثين بيان لفضل العلم ، والحث علي الإستكثار منه والترغيب في توريثه وتبليغه بالتعليم والتصنيف والإيضاح ، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع [٥]

منذ أكثر من ثلاثين عاما وعندما بلغت الثلاثين من عمري قدر الله لي من أهل الصلاح من أرشدني إلي طريق الإلتزام بالسنة بعد أن تخرجت من كلية الهندسة وسلكت مسالك الحياة العملية بعد أن تسربت مني سنين العمر بين كتب الدراسة النظامية وقراءات لاتسمن ولا تغني من جوع لروايات ومقالات بعيدة كل البعد عن الكتب الشرعيه ومع ذلك كنت أظن أني من المثقفين ، كنت ككثيرين غيري من أقراني محاصرين بالفقر الذي لايمنح صاحبه رفاهية الإنشغال او التفكير فيما يمكن ان يؤدي إلي تخلفا دراسيا أو تحميل الأهل بأعباء إضافية بالبحث عن مايمكن ان يسبب لهم أي مشاكل ، فآثرت السلامة وانكببت علي كتب الدراسة وبعض القراءات المختلسة من القصص والروايات والمقالات لكبار الكتاب المشهورين في ذلك الوقت مثل نجيب محفوظ ويوسف السباعي وغيرهم من الكتاب العالميين.

---

٣ صحيح مسلم ، كتاب الوصة رقم(١٦٣١)

٤ صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء رقم (٣٤٦١)

٥ من شرح صحيح مسلم للإمام النووي (شرح حديث إذا مات إبن آدم ....الحديث)

حتي ذلك الوقت كانت قراءاتي في العلوم الشرعية ومعرفتي بعلماء الشرع لاتزيد عن ماتضمنته كتب المدارس ، ورغم أني لم أكن هاجرا للمساجد إلا أن ما سمعته من خطب الجمعه أو دروس المناسبات كدروس رمضان وغيرها من الدروس لم يترك عندي أثر يذكر ، ولم يعلق بذهني وقتها أي إسم من أسماء علماء السنة كإبن تيمية أو إبن القيم أو إبن كثير ، وغيرهم من منارات وعلماء العلوم الشرعيه وليس ذلك إلا بسبب نمطية الدعوة وضعف الدعاة.

ثم قدر الله لي وأنا في الثلاثين من العمر من أخذ بيدي إلي طريق الإلتزام بالسنة فأنفتح لي عالما آخر من العلوم أدركت بعد إكتشافه أن كل ماقرأت قبله كان لهوا وعبثا وعمرا ضائعا مازلت أتحسر عليه وتخيلت أن لو أن لي كرة في العمر لما أضعت ساعة في غير هذه العلوم، وكثيرا ماتعجبت كيف لمسلم أن يبلغ هذا المبلغ من العمر وهو لايعرف مصادر دينه ، وتعجبت أكثر عندما صادفت في هذا العمر من لايصلي بل ومن لايعرف كيف يصلي ، منذ أن عرفت طريق السنة بذلت كل مافي وسعي لضبط كل شئون حياتي علي هذا الطريق بدءا من زواجي وعملي وأولادي وحاولت أن أعوض كل مافاتني من دروس العلم الشرعي وملاحقة العلماء والدعاة مثل فضيلة الشيخ مصطفي العدوي وفضيلة الشيخ ابي إسحاق الحويني وغيرهم من معاصريهم من أهل العلم في مساجد السنة ماأستطعت إلي ذلك سبيلا.

ولكن بقي في نفسي شعور بالنقص في هذا الباب وإحساس بالعجز والتخلف عن اللحاق بهذا الركب المبارك ركب الدعاة إلي الله ، وظل هذا الشعور يلاحقني حتي بلوغي سن التقاعد عن العمل الرسمي .

عندما بلغت سن التقاعد تنازعتني أفكار عديدة عما يمكنني عمله بعد أن إستهلكني السعي علي العيش والعمل وتربية الأولاد ، وماذا بقي من حياتي الدنيا لأقدمه لحياتي الآخرة بعد أن مضي العمر بشعور العجز عن تقديم ماينفعني من دنياي في آخرتي ، وتزداد قسوة هذا الشعور مع تدني أحوال المسلمين وقناعتي بوجوب النفرة من كل مسلم للتفقه في الدين والإنذار مما نحن مقبلين عليه وسبق بيانه في المقدمة عملا بقول الله عز وجل في سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } ﴿١٢٢﴾

وعند قراءة وردي اليومي من القرآن الكريم في أحد الأيام تعجبت كيف يكون بين أيدينا هذا الكتاب العزيز الذي لاتنقضي عجائبه ثم نبحث الهدي في غيره ، كيف يكون هذا مع قول الله تعالي: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } الأنعام: ٣٨ وقوله:{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم} الإسراء: ٩ يعني الطريقة المستقيمة ولو لم يكن فيه جميع معانيها لما صح إطلاق هذا المعنى عليه حقيقة وأشباه ذلك من الآيات الدالة على أنه هدى وشفاء لما في الصدور ولا يكون شفاء لجميع ما في الصدور إلا وفيه تبيان كل شيء ومنها ما جاء من الأحاديث والآثار المؤذنة بذلك. كقوله عليه الصلاة والسلام: «إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد» (٦) الحديث

عندئذ شرح الله صدري أن أقضي مابقي من عمري في البلاغ عن الله ورسوله ماتيسر لي من فهم لآيات من كتاب الله وبفهم سلفنا الصالح عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وبطريقة بسيطة في متناول طلبة العلم الذين لم يعتادوا البحث في كتب التراث مستفيدا مما يسره الله لنا من تقنيات حديثه.

والعادة تمنع من أن يقرأ قوم كتابا في فن من الفنون كالطب والحساب ولا يعرفون معناه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم، وعن سعيد بن جبيرن قال: من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى أو الأعرابي، رواه ابن جرير، وحاجة المسلم ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم.

وقال القرطبي: ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه وهو لا يفهم معنى ما يتلوه[٧].

وهنا ظهرت لي مشكلة أخري كادت أن تصرفني عن هذا العمل وهي إختيار السورة التي أبدأ بها ، فما أصعب أن تختار سورة بعينها من سور القرآن الكريم لتفردها بالتدبر والتأمل ، كيف والقرآن لايمكن تجزأته ، سور الفرآن الكريم تبدو وكأنها حلقات في سلسلة ذهبية تكون في غاية البريق والتألق

---

٦ رواه الحاكم وصححه الترغيب والترهيب (٣/ ١٤).

٧ تسهيل علوم التنزيل

عندما تكون مترابطه وإذا أردت فصل إحداها تخشي ان يفوتك شيئا من البريق وصدق امير الشعراء إذ يقول:

جاءَ النبيُّون بالآياتِ فانصرمتْ وجئتَنَا بكتابٍ غيرِ مُنصرم
آياتُهُ كلمَا طَالَ المدَى جُدُدٌ يَزِينُهُنَّ جمالُ العِتْقِ والقِدَمِ
كالدُّرِ يزدادُ حُسنًا وَهْوَ منتظمٌ وليسَ ينقُصُ حسنًا غيرَ مُنتظمِ

فكلَّما أمعنْتَ النظرَ وأطلتَ التدبُّر وأجلْتَ الفِكرَ ، وجدتَ نفسَك أمام معنى جديدٍ ، غير الذي سبق إلى فهمك أولَ مرَّةٍ ، وكذلك حتى ترى للجملةِ الواحدةِ أو للكلمةِ الواحدةِ وُجوهًا عدة ، كُلُّهَا يحتملُها النصُّ وتستوعبُهَا العبارةُ القرآنيةُ ، كأنما هي دُرَّةٌ يتيمةٌ تُبهِر الأبصارَ كلَّما نظرتَ إليها من أيِّ ناحيةٍ وجدتَ حسنًا وجمالاً ، وروعةً وبهاءً ، ولمعةً وضياءً ، أو كروضةٍ غَنَّاء في واحةٍ فيحاء قدْ هبَّتْ نسائمُها ، فتمايلَتْ أغصانُها ، وتضَوَّعَتْ رياحينُها ، وغرَّدتْ أطيارُها ، وتبسمتْ أزهارُها ، وتضاحكتْ جداولُها ، وتفتَّقتْ ثمارُها ، وَأينعَتْ قِطافُها : إنها رياضُ القرآن الكريمِ ، وواحةُ الذِّكر الحكيم ، وحديقةُ الفرقانِ التي أبدع أميرُ الشعراء حين صاغَها في بيتين ما أروعَهُما :

وحديقةُ الفرقانِ ضاحكةُ الرُّبَا بالتُّرجُـمانِ شَذِيَّةٌ غَنَّاء
والوحيُ يقْطُرُ سَلْسَلا من سَلْسَلٍ واللَّوْحُ والقلمُ البديعُ رَوَاءُ

والقرآن الكريمُ بوجهٍ عامٍ إنَّما يُعْنَى في عرضهِ للأحداثِ باستخلاصِ العبرِ والعِظَاتِ ، وتربيةِ الأفراد والجماعاتِ ، وتقويمِ السلوك المعوَجِّ ، وتشخيصِ الداء ، ووصفِ الدواءِ ، وهدايةِ الحائرينَ ، وإرشادِ السالكينَ ، وبيانِ عواملِ النصرِ ومُقوّماتِ التمكينِ أمَّا تفاصيلُ الأحداثِ وتعيينِ الأماكن والأشخاصِ فلقد عُنيتْ بها كتبُ السيرةِ وغيرها ، وإنَّما الذي يعنينا في هذا البحث هو تحليلُ الآياتِ ، وتنزيلها على الواقع واستخلاص الدروس والعبر [٨]

وإجتزاء سورة من سور القرآن الكريم لتخصيصها بالدراسة والتحليل أمر ي غاية الصعوبة لأن كل سورة تحمل مايستحق الدراسة والتحليل ، لذا كان لابد من وضع ضوابط للدروس المطلوب توضيحها وعرضها ، وبما أن هوية

٨ التوثيق القرآني لغزوة الأحزاب للدكتور محمد أحمد الشرقاوي

المسلم تكاد تندرس وتنطمس بغيوم الحضارة الحديثة ، بدا لي أن سورة الأحزاب هي من أكثر سور القرآن الكريم تعبيرا عن هوية المسلم سواءا في موضوعها الرئيسي وهو قصة غزوة الأحزاب أو بما إنفردت به من أحكام كحكم التبني أو الأحكام الخاصة بالنبي محمد ﷺ، ومن هنا كان إختياري لهذه السورة بعد إستخارة الله عز وجل لتكون هي محل الدراسه والتحليل لإبراز هوية المسلم.

ذكريات مع سورة الأحزاب

منذ بداية إلتزامي بالسنة نقشت في مخيلتي صورة لاأستطيع نسيانها منذ مايقرب من ثلاثين عاما وهي صورة خطيب الجمعه فضيلة الشيخ محمد سراج عليه رحمة الله في مسجد التوحيد بمدينة المنصورة بمصر عندما كان يشرح قصة غزوة الأحزاب ، ورغم أن سياق القصة ليس لترقيق القلوب أو للترغيب والترهيب إلا أن الشيخ عليه رحمة الله أخذ بألباب الناس وقلوبهم وتعلقت به علي المنبرأسماعهم وأبصارهم لمتابعة أحداث القصة بتفاصيلها الخلابة كمنازله علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو بن ود أو قصة حذيفة وتكليف الرسول صلي الله عليه وسلم له بتقصي خبر القوم أو قصة إسلام نعيم بن مسعود ، كلها كانت قصص فرعية في سياق القصة الرئيسية أخذت بألباب الناس أثناء الخطبة حتي بلغت ذروة التأثير في النفوس فارتفع صوت البكاء والنحيب في الصدور في أنحاء المسجد أثناء صلاة ركعتي الجمعة عند سماع قول الله عز وجل في سورة الأحزاب : {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّـهِ الظُّنُونَا﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾} هذا الموقف هزني بعنف وجعلني كلما قرأت هذه السورة وجدت فيها تشخيص لحال من أحوال المسلمين، أرجو الله تعالي أن يوفقني في أن أستخرج من آياتها ماينفع المسلمين بجمع وترتيب هذا الكتاب وأجعله في ميزان أعمالي الصالحة .

وقد رتبت الكتاب علي مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة
اما المقدمه فقد جعلتها في فصل واحد وهو التعريف بسورة الأحزاب ويتضمن مكان نزول السورة وعدد آياتها وسبب تسميتها بهذا الإسم وفضلها وماورد فيها من أحاديث صحيحة
وأما الباب الأول فالكلام فيه عن غزوة الأحزاب فقد جعلته في ثلاثة فصول
الفصل الأول: قصة غزوة الأحزاب
الفصل الثاني: نعمة التأييد الإلهي
الفصل الثالث : أصحاب الهزيمة النفسيه
أما الباب الثاني فالكلام فيه عن خصائص النبي صلي الله عليه وسلم في سورة الأحزاب، وجعلته في سبعة فصول وهي
الفصل الأول : ياأيها النبي
الفصل الثاني:النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم
الفصل الثالث: نصر النبي ﷺ بالريح وبالرعب
الفصل الرابع: زوجات النبي ﷺ
الفصل الخامس: محمد ﷺ خاتم النبيين
الفصل السادس: القسم بين الزوجات
الفصل السابع: الصلاة والسلام عليه عبادة
وأما الباب الثالث فقد جعلته للكلام عن الأحكام الرئيسيه التي شرعت في الأحزاب وقد رتبت هذا الباب علي ثلاث فصول
الفصل الأول: حكم تحريم التبني
الفصل الثاني: حكم المطلقة قبل الدخول
الفصل الثالث: حكم الحجاب
وأما الباب الرابع فقد جعلته للكلام عن أهم الدروس الإيمانية في سورة الأحزاب، وقد رتبت هذا الباب علي فصلين :
الفصل الأول:دروس الترغيب
الفصل الثاني: دروس الترهيب
أما الخاتمة فقد جعلتها للكلام عن ختام السورة من خلال الآية {إنا عرضنا الأمانة علي السماوات والأرض..} الآيه ، ثم الآيه الأخيرة من السورة
لا أزعم أني قد اتيت في هذا الكتاب بمالم يأت به الأولون ، لأنهم لم يتركوا لمثلي مايمكن أن يضيفه ، ولكني رأيت أن سورة الأحزاب ثرية بالموضوعات المتنوعة ، مابين قصة الغزوة ، والدروس المستفادة منها ، وخصائص النبي

ﷺ ، والأحكام الشرعية كحكم التبني وحكم الحجاب ، فرأيت جمع أقوال العلماء والمفسرون ، وترتيبها بشكل موضوعي ، لكي يمكن للقارئي الحصول علي الفائدة المرجوة بأيسر مما هو موجود في كتب الفسير التقليدية.

وقد جمعت مادة هذا الكتاب من أكثر من ثلاثين مرجعا علي رأسها كتاب الله تعالي ، ثم كتب التفسير وقد عدم التوسع في النقل من كتب التفسير وأكتفيت بخمس مراجع رئيسية للتفسير وهي ثلاث من التفاسير القديمة وهي تفسير الطبري ، وتفسير القرطبي ، وتفسير إبن كثير، وإثنان من التفاسير الحديثة ، وهي تفسير التحرير والتنوير للطاهر إبن عاشور ، وتفسير الشيخ الشعراوي عليهم جميعا رحمة الله تعالي .

ومن كتب السنة ، إستعنت بالكتب التسعة الأشهر من دواوين السنة وعلي رأسها صحيحي البخاري ومسلم ، وقد حرصت علي ألا يتضمن الكتاب إلا الأحاديث الصحيحة ، وقمت بإستبعاد كل حديث غير صحيح فيما أنقله من كتب التفسير .

وفي الأحداث التاريخية كان كتاب البداية والنهاية لإبن كثير ، وكتاب السيرة النبوية لإبن هشام ، هما المرجعان الرئيسيان بعد التأكد من ثبوت الحدث من مصادر أخري من كتب السنة.

وقد حرصت علي أن لغة الكتاب بسيطة وعصرية ، وتوضيح مايحتاج إلي توضيح من المادة المنقولة ، كالمعلومات التي نقلتها عن حفر الخندق ، وذلك لبيان حجم الحدث ، وقد كان لشبكة المعلومات الدولية بعد توفيق الله تعالي ، الفضل الأكبر في تسهيل الحصول علي المعلومات المطلوبة.

ولا يفوتني في هذا المجال أن أثني خيرا علي المواقع الإسلامية علي شبكة المعلومات الدولية بصفة عامة ، وأخص بالثناء موقع المكتبة الشاملة ، وموقع صيد الفوائد ، وموقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني .

وفي ختام هذا التمهيد ،أقول أنه ما من عمل بشري إلا ويعتريه النقص والخذلان ، والكمال لله وحده ثم لرسوله صلي الله عليه وسلم ، وعملي في هذا الكتاب جهد المقل ، فما كان فيه كمال وتوفيق فمن الله وحده ، وما كان فيه نقص فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء .

مقدمة بين يدي سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية بإتفاق المفسرين ، وهي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وهي من أوائل السور المدنية ، وكان نزولها بعد سورة آل عمران إذ لم يسبقها في النزول بعد الهجرة سوي سورة البقرة والأنفال وآل عمران .

ويبدو أن نزولها كان في الفتره التي أعقبت غزوة بدر إلي ماقبل فتح الحديبية [٩]

عدد آياتها ثلاث وسبعون آيه ، قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدها ؟ قال: قلت ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم، ورواه النسائي من وجه آخر عن عاصم وهو ابن أبي النجود، وهو ابن بهدلة به، وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.[١٠]

الإسم التوقيفي للسورة هو الأحزاب بثبوت هذا الإسم في كل الأحاديث المتعلقه بها للإشارة إليها ؛ وكذلك لورود ذكر الإسم بالسورة مرتين أثناء عرض قصة الغزوه .

لم يرد حديث صحيح لإثبات فضل لتلاوة سورة الأحزاب يميزها عن بقية سور القرآن الكريم .

وقد وردت كلمة الأحزاب في القرآن الكريم بصيغة الجمع في عشرة مواضع كانت كلها مواضع ذم وإستنكار لما يكونون عليه من الباطل ومخالفة أهل الحق ؛ وفي سورة الأحزاب وردت مرتين ، الأولي في قوله تعالي {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) والثانية في قوله تعالي (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ ۚ وما زادهم إلا إيمَانًا وَتَسْلِيمًا}(٢١) ووردت كلمة

---

[٩] التفسير الوسيط للطنطاوي

[١٠] تفسير إبن كثير

حزب في القرآن الكريم بصيغة المفرد سبع مرات نسبت إلي الشيطان في موضعين الموضع الأول في سورة فاطر في قوله تعالي (نَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾) والموضع الثاني في سورة المجادلة في قوله تعالي {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّـهِ ۚ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}﴿١٩﴾

بقية مواضع ذكر كلمة (حزب)هي للمدح مثل قوله تعالي في سورة المائدة {فإن حزب الله هم الغالبون } وقوله {أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون }(٢٢) المجادلة

وهكذا تكون أولي الوقفات مع سورة الأحزاب تبدأ من إسمها لترسل رسالة للمسلمين بنبذ الأحزاب والتحزب ، وأن الحزب الوحيد الذي يدعو إليه الإسلام هو حزب الله وغير ذلك فالأحزاب مرفوضه بكل أشكالها إلا أن تكون من حزب الله الذين لايوادون من حاد الله ورسوله كما بينهم الله عز وجل في ختام سورة المجادلة

{لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّـهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّـهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}﴿٢٢﴾

يقول صاحب التحرير والتنوير في بداية تفسيره لهذه السورة [هَكَذَا سُمِّيَتْ سُورَةُ الْأَحْزَابِ فِي الْمَصَاحِفِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَلِكَ رُوِيَتْ تَسْمِيَتُهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِأَسَانِيدَ مَقْبُولَةٍ. وَلَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ غَيْرُهُ. وَوَجْهُ التَّسْمِيَةِ أَنَّ فِيهَا ذِكْرَ أَحْزَابِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ تَحَزَّبَ مَعَهُمْ، أَرَادُوا غَزْوَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ فَرَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ. وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ

وَكَانَ نُزُولُهَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَوَاخِرَ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ وَهُوَ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ ابْنُ رُشْدٍ فِي "الْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ" . وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ :أَنَّهَا كَانَتْ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَهِيَ سَنَةُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ وَتُسَمَّى غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ حِينَ أَحَاطَ جَمَاعَاتٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَحَابِيشِهِمْ وَكِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَكَانُوا

عَشَرَةَ آلَافٍ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَقِبَتْهَا غَزْوَةُ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ. وَعَدَدُ آيِهَا ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ بِاتِّفَاقِ أَصْحَابِ الْعَدَدِ.] (١١) ، وَمِمَّا يَجِبُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ السُّورَةِ مَا رَوَاهُ الإمام أحمد بإسناد ضعيف، وعند النسائي وَغَيْرُهُ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ :قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: كَأَيِّنْ تَقرأ سُورَةَ الْأَحْزَابِ؟أو كأين تعدها قَالَ: قلت له ثلاثا وسبعين آية ، فقال : قط ، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها {والشيخ والشيخة إذا زنيا فأرجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم } (حديث ضعيف)

وَبَعْدُ فَخَبَرُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ خَبَرٌ غَرِيبٌ لَمْ يُؤْثَرْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَنُوقِنُ بِأَنَّهُ دَخَلَهُ وَهْمٌ مِنْ بَعْضِ رُوَاتِهِ. وَهُوَ أَيْضًا خَبَرُ آحَادٍ لَا يَنْتَقِضُ بِهِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى الْمِقْدَارِ الْمَوْجُودِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ أَغْرَاضُ هَذِهِ السُّورَةِ

أكثر آيات السورة له أسباب نزول معينه وأكثرها كان للرد علي أقوال المنافقين التي قصدوا بها أذي النبي ﷺ كأقوالهم فيما يخص زواجه ﷺ من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، وأن الله جعل ولاية النبي للمؤمنين أقوي وأشد من ولايتهم لأنفسهم ، ولأزواجه حرمة الأمهات لهم .

يقول إبن عاشور في التحرير والتنوير [وَأَهَمُّ أَغْرَاضِهَا :الرَّدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِي ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ بَعْدَ أَنْ طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَقَالُوا: تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأَةَ ابْنِهِ وَهُوَ يَنْهَى النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْطَالَ التَّبَنِّي. وَأَنَّ الْحَقَّ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ لِأَنَّهُ الْخَبِيرُ بِالْأَعْمَالِ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ الْحَقَّ.

وَأَنَّ وِلَايَةَ النَّبِي ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ أَقْوَى وِلَايَةً، وَلِأَزْوَاجِهِ حُرْمَةَ الْأُمَّهَاتِ لَهُمْ، وَتِلْكَ وِلَايَةٌ مَنْ جَعْلِ اللَّهِ فَهِيَ أَقْوَى وَأَشَدُّ مِنْ وِلَايَةِ الْأَرْحَامِ. وَتَحْرِيضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ لِأَنَّهُ أَخَذَ الْعَهْدَ بِذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ النَّبِيئِينَ. وَالِاعْتِبَارُ بِمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ مِنْ عِنَايَتِهِ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَحْزَابِ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي وَقْعَةِ الْأَحْزَابِ وَدَفْعِ كَيْدِ الْمُنَافِقِينَ. وَالثَّنَاءُ عَلَى صِدْقِ الْمُؤْمِنِينَ وَثَبَاتِهِمْ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ. وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَعْطَاهُمْ بِلَادَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ ظَاهَرُوا الْأَحْزَابَ.

وَانْتَقَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَحْكَامٍ فِي مُعَاشَرَةِ أَزْوَاجِ النَّبِي ﷺ وَذَكَرَ فَضْلَهُنَّ وَفَضْلَ آلِ النَّبِي ﷺ وَفَضَائِلَ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَتَشْرِيعٌ فِي عِدَّةِ الْمُطَلَّقَةِ قَبْلَ الْبِنَاءِ. وَمَا يَسُوغُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَحُكْمُ حِجَابِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَلُبْسَةِ الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا خَرَجْنَ. وَتَهْدِيدُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْإِرْجَافِ بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ .

---

١١ التحرير والتنوير

وَخُتِمَتِ السُّورَةُ بِالتَّنْوِيهِ بِالشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ فَكَانَ خِتَامُهَا مِنْ رَدِّ الْعَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ لِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِهَا: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } الْأَحْزَاب: ٢، وَتَخَلَّلَ ذَلِكَ مُسْتَطْرَدَاتٌ مِنَ الْأَمْرِ بِالِائْتِسَاءِ بِالنَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَتَحْرِيضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ شُكْرًا لَهُ عَلَى هَدْيِهِ. وَتَعْظِيمُ قَدْرِ النَّبِي ﷺ عِنْدَ اللَّهِ وَفِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَالْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالسَّلَامِ. وَوَعِيدُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِمَا يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهَ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَالتَّحْذِيرُ مِنَ التَّوَرُّطِ فِي ذَلِكَ كَيْلَا يَقَعُوا فِيمَا وَقَعَ فِيهِ الَّذِينَ آذَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.....إنتهي [١٢]

فسورة الأحزاب سورة جامعة كالسور الطوال البقرة وآل عمران والنساء وفي ذلك يقول فضيلة الشيخ محمد المدني في كتاب "المجتمع المثالي كما تصوره سورة النساء " يقول [وإذا طبقنا هذه النظرة علي سورة الأحزاب أيضا وهي السورة السابقة علي سورة الممتحنة مباشرة في النزول ، وجدنا آياتها الثلاث والسبعون كلها تدور في دائرة أكثر الموضوعات التي عرضت لها سورة النساء ، فهي تتحدث عن بعض نواحي الأسرة وأولي الأرحام وتبطل حكم التبني الذي كان معروفا في الجاهلية وتتحدث عن زوجات الرسول ﷺ وما ينبغي أن يكن عليه من الأدب الرفيع ليكن أسوة حسنة للمؤمنات ، وعن تساوي المسلمين والمسلمات في ما أعده الله من مغفرة وأجر عظيم ، إيحاء بأن الجميع علي حد سواء في نظر الإسلام ، وتتحدث في ذلك أيضا عن تساوي المؤمن والمؤمنة في وجوب الخضوع لما يقضي به الله ورسوله ، ثم تتحدث عن حادثة من الحوادث الخاصة برسول الله ﷺ وهي زواجه من مطلقة متبناه ، تشريعا للحكم الإسلامي في ذلك ، وعما لابس هذا الأمر من تصرف للنبي ﷺ ، أوخذ فيه بما يعد من اللوم والتثريب كما أوخذ بمثل ذلك في حادثة اليهودي و طعمه التي سنذكرها في سورة النساء ، وتتحدث عن غير ذلك من الشئون الخاصة والعامة ، وفيها كثير من أحكام النساء والأسر والبيوت . وتتحدث عن القتال وماكان يوم الأحزاب وعن اوهذا كله ينبئ عن البيئة المعنوية التي كان عليها المجتمع الإسلامي **في** المدينة قبيل نزول سورة النساء ويجعلنا نلمح الشبه الكبير بين ماتناولته سورة النساء وسورة الأحزاب من موضوعات [١٣] ..إنتهي

وقد نزلت هذه السورة تفضح المنافقين، وتبين إيذاءهم لرسول الله ﷺ وطعنهم فيه، وفي نكاحه لأزواجه. وكيف كان موقف المنافقين والكفار في غزوة الأحزاب وغيرها، مع بيان الآداب النبوية لبيت النبي ﷺ.

---

١٢ نفس المرجع السابق

١٣ المجتمع المثالي كما تصوره سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني

الباب الأول: غزوة الأحزاب

الفصل الأول : قصة الغزوة

الفصل الثاني : نعمة التأييد الإلهي

الفصل الثالث : أصحاب الهزيمة النفسية

الفصل الأول

قصة غزوة الأحزاب

غزوة الأحزاب هي إحدي الغزوات الكبري في الإسلام بعد غزوة بدر ثم غزوة أحد ، وكل غزوة من هذه الغزوات تمثل نقلة تاريخية في تاريخ الإسلام رغم تقارب الزمان بينها ، والجدول التالي يعكس مقارنة بسيطة بين الغزوات الثلاث بما هو راجح من أقوال العلماء

م	الغزوة / وجه المقارنة	بدر	أحد	الأحزاب
١	تاريخ الغزوة الراجح	الثانية من الهجرة	الثالثة من الهجرة	الخامسة من الهجرة
٢	خصوم المسلمين	قريش بقيادة أبوسفيان	قريش بقيادة أبوسفيان	الأحزاب(قريش ،غطفان ، يهود بنو قريظه)
3	عدد المقاتلين المسلمين	٣١٣ مقاتل	٧٠٠ مقاتل	٣٠٠٠ مقاتل
٤	عدد المقاتلين المشركين	١٠٠٠ مقاتل	٣٠٠٠ مقاتل	١٠٠٠٠ مقاتل
٥	نتائج الغزوة	هزيمة المشركين	هزيمة المسلمين	هزيمة المشركين
٦	عدد شهداء المسلمين	١٤	٧٠	٦
٧	أشهر الشهداء	عبيدة بن الحارث عمير بن أبي وقاص	حمزة (عم الرسول) مصعب بن عمير	سعد بن معاذ
٨	قتلي المشركين	٧٠ قتيل ٧٠ اسير	٢٢ قتيل واسير واحد	٦
٩	تأثير الغزوة	ظهور الإسلام	إبتلاء للمسلمين	آخر غزو للمدينة

وقد وردت قصة غزوة الأحزاب في تسع عشرة آيه من سورة الأحزاب بدء من الآيه التاسعه بقوله تعالي: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّـهِ الظُّنُونَا﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا

اللَّـهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّـهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّـهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّـهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّـهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّـهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّـهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّـهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّـهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّـهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّـهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾}

وقصة الغزوة تناولتها كتب السير والمغازي بالتفصيل ،وقد أوجزها صاحب التحرير والتنوير فيما يلي :

[وَهَذِهِ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا تُشِيرُ إِلَى مَا جَرَى مِنْ عَظِيمِ صُنْعِ اللَّهِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ فَلْنَأْتِ عَلَى خُلَاصَةِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ السِّيَرِ وَالتَّفْسِيرِ لِيَكُونَ مِنْهُ بَيَانٌ لِمَطَاوِي هَذِهِ الْآيَاتِ.

وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنَّ قُرَيْشًا بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ تَهَادَنُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِمُدَّةِ عَامٍ عَلَى أَنْ يَلْتَقُوا بِبَدْرٍ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ فَلَمْ يَقَعْ قِتَالٌ بِبَدْرٍ لِتَخَلُّفِ أَبِي سُفْيَانَ عَنِ الْمِيعَادِ، فَلَمْ يُنَاوِشْ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ الْفَرِيقَ الْآخَرَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ حَادِثَةِ غَدْرِ

الْمُشْرِكِينَ بِالْمُسْلِمِينَ وَهِيَ حَادِثَةُ بِئْرِ مَعُونَةَ حِينَ غَدَرَتْ قَبَائِلُ عُصَيَّةَ، وَرِعْلٍ، وَذَكْوَانَ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بِأَرْبَعِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذْ سَأَلَ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُوَجِّهَهُمْ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَكَانَ ذَلِكَ كَيْدًا كَادَهُ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ وَذَلِكَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنِ انْقِضَاءِ غَزْوَةِ أُحُدٍ.

فَلَمَّا أَجْلَى النَّبِي ﷺ بَنِي النَّضِيرِ لِمَا ظَهَرَ مِنْ غَدْرِهِمْ بِهِ وَخَيْسِهِمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي لَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، هُنَالِكَ اغْتَاظَ كُبَرَاءُ يَهُودِ قُرَيْظَةَ بَعْدَ الْجَلَاءِ وَبَعْدَ أَنْ نَزَلُوا بِدِيَارِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبِخَيْبَرَ فَخَرَجَ سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ- بِتَشْدِيدِ لَامِ سَلَّامٍ وَضَمِّ حَاءِ الْحُقَيْقِ وَفَتْحِ قَافِهِ- وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ- بِضَمِّ حَاءِ حُيَيٍّ وَفَتْحِ هَمْزَةِ وَطَاءِ أَخْطَبَ- وَغَيْرُهُمْ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ فَقَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ لِذَلِكَ

وَتَآمَرُوا مَعَ غَطَفَانَ عَلَى أَنْ يَغْزُوا الْمَدِينَةَ فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَأَحَابِيشُهَا وَبَنُو كِنَانَةَ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ وَقَائِدُهُمْ أَبُو سُفْيَانَ، وَخَرَجَتْ غَطَفَانُ فِي أَلْفٍ قَائِدُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وَخَرَجَتْ مَعَهُمْ هَوَازِنُ وَقَائِدُهُمْ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ. وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَزْمُهُمْ عَلَى مُنَازَلَةِ الْمَدِينَةِ أَبْلَغَتْهُ إِيَّاهُ خُزَاعَةُ وَخَافَ الْمُسْلِمُونَ كَثْرَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَشَارَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ أَنْ يُحْفَرَ خَنْدَقٌ يُحِيطُ بِالْمَدِينَةِ تَحْصِينًا لَهَا مِنْ دُخُولِ الْعَدُوِّ فَاحْتَفَرَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ يَحْفُرُ وَيَنْقُلُ التُّرَابَ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ سَنَةَ أَرْبَعٍ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ وَابْنِ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ .وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ :سَنَةَ خَمْسٍ. وَهُوَ الَّذِي اشْتَهَرَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَى عَلَيْهِ ابْنُ رُشْدٍ فِي جَامِعِ الْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ اتِّبَاعًا لِمَا اشْتُهِرَ، وَقَوْلُ مَالك أصحّ.

وَعندمَا تَمَّ حَفْرُ الْخَنْدَقِ أَقْبَلَتْ جُنُودُ الْمُشْرِكِينَ وَتَسَمَّوْا بِالْأَحْزَابِ لِأَنَّهُمْ عِدَّةُ قَبَائِلَ تَحَزَّبُوا،أَيْ : صَارُوا حِزْبًا وَاحِدًا، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ فَكَانَ وُرُودُ قُرَيْشٍ مِنْ أَسْفَلَ الْوَادِي مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ، وَوُرُودُ غَطَفَانَ وَهَوَازِنَ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، فَنَزَلَ جَيْشُ قُرَيْشٍ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ بَيْنَ الْجُرْفِ وَزُغَابَةَ- بِزَايٍ مُعْجَمَةٍ مَضْمُومَةٍ وَغَيْنٍ مُعْجَمَةٍ وَبَعْضُهُمْ يَرْوِيهِ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ -وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ :وَالْغَابَةُ، وَالتَّحْقِيقُ هُوَ الْأَوَّلُ كَمَا فِي "الرَّوْضِ الْأُنُفِ" ، وَنَزَلَ جَيْشُ غَطَفَانَ وَهَوَازِنَ بِذَنَبِ نَقْمَى إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، وَكَانَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَعَسْكَرُوا تَحْتَ جَبَلِ سَلْعٍ وَجَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى الْجَبَلِ وَالْخَنْدَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، وَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيهِمْ فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ. وَأَمَّرَ النَّبِي ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَدَامَ الْحَالُ كَذَلِكَ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ فِيهَا حَرْبٌ إِلَّا مُصَارَعَةُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ فُرْسَانٍ اقْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ مِنْ جِهَةٍ ضَيِّقَةٍ عَلَى أَفْرَاسِهِمْ فَتَقَاتَلُوا فِي السَّبْخَةِ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلْعٍ وَقُتِلَ أَحَدُهُمْ قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

وَفَرَّ صَاحِبَاهُ، وَأَصَابَ سَهْمٌ غَرْبٌ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فِي أَكْحُلِهِ فَكَانَ مِنْهُ مَوْتُهُ فِي الْمَدِينَةِ. وَلَحِقَتِ الْمُسْلِمِينَ شِدَّةٌ مِنَ الْحِصَارِ وَخَوْفٌ مِنْ كَثْرَةِ جَيْشِ عَدُوِّهِمْ حَتَّى هَمَّ النَّبِيءﷺ بِأَنْ يُصَالِحَ الْأَحْزَابَ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ نِصْفَ ثَمَرِ الْمَدِينَةِ فِي عَامِهِمْ ذَلِكَ يَأْخُذُونَهُ عِنْدَ طِيبِهِ وَكَادَ أَنْ يَكْتُبَ مَعَهُمْ كِتَابًا فِي ذَلِكَ، فَاسْتَشَارَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى الشِّرْكِ وَلَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ثَمَرَةً إِلَّا قِرًى أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَأَعَزَّنَا بِكَ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا! وَاللَّهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَأَبْطَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ عَزَمَ عَلَيْهِ.

وأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ رِيحًا شَدِيدَةً فَأَزَالَتْ خِيَامَهُمْ وَأَكْفَأَتْ قُدُورَهُمْ وَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ، وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ، وَهَلَكَ كُرَاعُهُمْ وَخُفُّهُمْ، وَحَدَثَ تَخَاذُلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْظَةَ وَظَنَّتْ قُرَيْشٌ أَنَّ قُرَيْظَةَ صَالَحَتِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى قِتَالِ الْأَحْزَابِ، فَرَأَى أَهْلُ الْأَحْزَابِ الرَّأْيَ فِي أَنْ يَرْتَحِلُوا فَارْتَحَلُوا عَنِ الْمَدِينَةِ وَانْصَرَفَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ} ذكر تَوْطِئَة لِقَوْلِهِ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً إِلَخْ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَحَلُّ الْمِنَّةِ. وَالرِّيحُ الْمَذْكُورَةُ هُنَا هِيَ رِيحُ الصَّبَا وَكَانَتْ بَارِدَةً وَقَلَعَتِ الْأَوْتَادَ وَالْأَطْنَابَ وَسَفَّتِ التُّرَابَ فِي عُيُونِهِمْ وَمَاجَتِ الْخَيْلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِنْ خَيْلِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَشَائِهِمْ. وَفِيهَا قَالَ النَّبِيءﷺ (نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ).

وَالْجُنُودُ الَّتِي لَمْ يَرَوْهَا هِيَ جُنُودُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَرْسَلُوا الرِّيحَ وَأَلْقَوُا التَّخَاذُلَ بَيْنَ الْأَحْزَابِ وَكَانُوا وَسِيلَةَ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي نُفُوسِهِمْ] [١٤].انتهى

فالجنود تُؤذِن بالحرب، وجاءت نكرة مُبْهمة، ثم جاءت نهاية هذه المعركة في هاتين الجملتين القصيرتين (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا .) الأحزاب: ٩ ولم يذكر ما هية هؤلاء الجنود، إلا أنهم من عند الله، جاءوا لردِّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم.

هذا وَصف لما جرى في غزوة الأحزاب التي جمعتْ فُلول أعداء رسول الله، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرِّقين، والآن يجتمعون لحربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبني فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بني النضير وبني قريظة، وعجيب أنْ يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف. وقد رد الله الكافرين إلى غير رَجْعة، ولن يفكروا بعدها في الهجوم على الإسلام؛ لذلك قال رسول الله ﷺ

[١٤] التحرير والتنوير لإبن عاشور

بعد انصرافهم خائبين :"لا يغزونا أبداً، بل نغزوهم نحن" وفعلاً كان بعدها فتح مكة.
وقوله تعالى :{وَكَفَى الله المؤمنين القتال} الأحزاب: ٢٥ أي: أن ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوتكم وقتالكم، إنما تولَّى الله ردَّهم وكفاكم القتال، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم المعركة، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت في غير صالح المؤمنين؛ لأنهم كانوا ثلاثة آلاف، في حين كان المشركون عشرة آلاف.
وينبغي علينا الآن أنْ نستعرض القصة بفلسفة أحداثها، وأن نتحدث عَمَّا في هذه القصة من بطولات، ففيها بطولات متعددة، لكل بطل فيها دور.
كانت أولى بطولات هذه المعركة، لرجل ليس من العرب، بل من فارس عبدة النار والعياذ بالله، وكأن الحق سبحانه يُعد لنصرة الحق حتى من جهة الباطل، إنه الصحابي الجليل سلمان الفارسي، الذي قضي حياته جَوَّالاً يبحث عن الحقيقة، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة، وصادف بعثة رسول الله وآمن به.
وكان سلمان أول بطل في هذه المعركة، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق، وقال :يا رسول الله كنا - يعني في فارس - إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا يعني :جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان في صَفِّه، فلما تنازعا عليه، قال رسول الله لهم "بل سلمان منا آل البيت" وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْه. هذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُجنِّد حتى الباطل لخدمة الحق، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً ولا أهل الفارسي الذين جاءوا بهذه الفكرة، لكن ساقها الله لنا، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصحابي الجليل.
البطل الثاني في هذه المعركة رجل يُدْعَى نعيم بن مسعود الأشجعي، جاء لرسول الله ليعلن إسلامه، ولا أحد يعلم ذلك من قومه، فقال له رسول الله :"وما تغني أنت؟ ولكن خذِّل عنا" أي: ادفع عنا القوم بأيِّ طريقة، أبعدهم عنّا، أو ضلِّلهم عن طريقنا.
هذا رجل كان بالأمس كافراً، فماذا فعل الإيمان في قلبه، وهو حديث عهد به؟ نظر نُعَيْم، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل، وبني قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى، فأراد أنْ يدخل بالدسيسة بينهما، فذهب لأبي سفيان، وقال :يا أبا سفيان، أنا صديقكم، وأنتم تعلمون مفارقتي لدين محمد، ولكني سمعت هَمْساً أن بني قريظة تداركوا أمرهم مع محمد، وقالوا :إن قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين في المدينة مثلنا، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون، وإنْ صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم، ثم يتركون بني قريظة لمواجهة محمد؛ لذلك

قرروا ألاَّ يقاتلوا معكم إلاَّ أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم.
ثم ذهب إلي بني قريظة فقال : تعلمون حرصي علي مصلحتكم ، فأنتم المقيمون هنا، وليس هذا بموطن لقريش، وسوف يتركونكم لمواجهة محمد وحدكم، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم في محاربة محمد، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم.
بعدها ذهب أبو سفيان ليطلب من بني قريظة المبادرة للقتال، فقال :هلك الخفُّ والحافر - يعني :الإبل والخيل - ولسنا بدار مقام لنا، فهيا بنا نناجز محمداً - هذا بعد أنْ مكثوا نيِّفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون - فقالوا له :هذا يوم السبت، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشترك معكم في قتال، إلا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا، ساعتها أدرك أبو سفيان أن كلام نعيم بن مسعود صِدْق، فجمع قومه وقال لهم الأرض ليست أرض مقام لنا، وقد هلك الخف والحافر، فهيا بنا ننجو. ورحلوا بلا قتال ، وهكذا نجحت خطة نعيم بن مسعود ، رغم أنه قام بها بمفرده.
بطولة أخرى في هذه الغزوة لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار في الخندق نقطة ضعيفة، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها، وأن تعبر منها خيولهم، فوقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامري وهو يؤمئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدَّوْه في المعارك بألف فارس.
وقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مُشْهِر سيفه: مَنْ يبارز؟ فقال علي لرسول الله :أبارزه يا رسول الله؟ قال ﷺ : " يا علي، إنه عمرو "فأعاد عمرو: أين جَنّتكم التي وعدتم به مَنْ قُتِل في هذا السبيل؟ أجيبوني. فقال علي :أبارزه يا رسول الله؟ قال "اجلس يا علي، إنه عمرو» وفي الثالثة قال عمرو: ُ أليس فيكم مِنْ مُبَارِزْ، عندها انتفض علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وقال :أنا له يا رسول الله، فأَذِن له رسول الله، فأشار علي لعمرو، وخرج علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه لمبارزة عمرو بن ود، فضرب عمرو الدرقة فشقَّها، فعاجله على بضربة سيف علي عاتقه أردتْهُ قتيلاً، فقال عليٌّ ساعة وقع :الله أكبر سمعه رسول الله فقال :"قُتِل عدو الله" .
وفي المعركة بطولات أخري لسعد بن معاذ رضي الله عنه ، حين حكم علي بني قريظة بحكم الله وهو مصاب ، ولحذيفة إبن اليمان رضي الله عنه حين كلفه رسول الله صلي الله عليه وسلم بإستطلاع أخبار الأحزاب حين هموا بالرحيل ، وسنأتي علي هذه البطولات بمزيد من التفصيل فيما سيأتي.

الفصل الثاني

نعمة التأييد الإلهي

لا شك أن نعم الله تعالي لا تعد ولا تحصي ، وعند التذكير بنعمه تعالي لا يتبادر إلي أذهان الناس ، إلا النعم المألوفة لهم في حياتهم اليومية كنعمة الصحة والمال والولد ونعمة الجاه والنفوذ والسلطان .

ولكن هناك نعم أخري ظاهرة يغفل عنها الناس لرتابتها ولضمان وجودها بقدرة الله سبحانه وتعالي بلا تدخل من الناس لإستمرار الحياة كنعمة تسخير المخلوقات للإنسان مثل الكلأ والماء والهواء والشمس والنجوم والرياح وغيرها من النعم الكونية التي اوجدها الله عز وجل بنظام كوني معين لا يذكرها الناس إلا إذا إختل نظامها بأمر الله .

ومن النعم التي يغفل عنها كثير من الناس أيضا ، نعمة التأييد الإلهي ، هي نعمة يمنحها الله عز وجل لمن يشاء من مخلوقاته في أي وقت يشاء لتحقيق إرادة كونية لله سبحانه وتعالي في كونه ، هذه النعمة يمكن أن يمنحها الله للناس كافة مؤمنهم وكافرهم ليعود نفعها علي الناس كافة في الدنيا وعلي المؤمنين فقط في الآخرة ، الإكتشافات العلمية بأيدي غير المسلمين مثل إكتشاف الجاذبية الأرضية وقوانين الطاقة بواسطة إسحق نيوتن(١٥) الإنجليزي أو إكتشاف الكهرباء بواسطة ويليام جلبرت(١٦) وتوماس أديسون(١٧) هي نماذج من التأييد الإلهي لغير المسلمين لمصلحة البشرية .

ومن نماذج نعمة التأييد الإلهي للمسلمين تلك التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم ثلاث مرات ، مرتان في سورة التوبة وهذه المرة الخاصة بغزوة الأحزاب .

في الآية ٢٦ من سورة التوبة يقول الله عز وجل {ثُمَّ أَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} ﴿٢٦﴾) كان ذلك في غزوة حنين بعد أن إغتر المسلمون بكثرتهم وقال بعضهم لن نهزم اليوم من قلة ثم إنهزموا عن رسول الله، ثم عادوا فأنزل الله السكينة عليهم وهي الهدوء والطمأنينه وأيدهم بالملائكة حتي تم النصر بإذن الله .

---

١٥ إسحق نيوتن :عالم إنجليزي في الفيزياء والرياضيات (١٦٤٣م:١٧٢٧م)يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات عبر العصور وأحد رموز الثوره العلميه.

١٦ ويليام جيلبرت:فيزيائي وطبيب انجليزي (١٦٠٣:١٥٤٤ م) إشتهر بفضل كتابه (دي ماجنتا) عن المغناطيسية وأحد منشئي مصطلح الكهربائيه ، ويعتبره البعض أب الهندسة الكهربائية

١٧ توماس ألفا أديسون:مخترع،رائد أعمال، مهندس أمريكي (١٨٤٧م : ١٩٣١م) إخترع العديد من الأجهزه أهمها المصباح الكهربائي ويعد رابع أكثر المخترعين إنتاجا في التاريخ ويمتلك ١٠٩٣ براءة إختراع أمريكيه

وفي الآية من سورة التوبة يقول تعالي {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّـهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّـهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّـهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٤٠) في هذه الآية تنبيه واضح وصريح للمسلمين من الله عز وجل بانه قادر علي نصر رسوله بدون نصير منهم كما نصره عندما كان ثاني إثنين هو وصاحبه فقط في الغار مطاردين من المشركين أثناء الهجرة فأيده الله بالسكينة وهي الهدوء والثبات والطمأنينة ثم أرسل أيضا جنودا غير مرئية ليجعل كلمة الذي كفروا هي السفلي .

ثم آية سورة الأحزاب التي نحن بصددها والتي سنورد حولها بعض التفاصيل التي تساعد علي فهم ماهو المطلوب عمله من المؤمنين للحصول علي التأييد الإلهي في كل قضاياهم .

في هذه الآية يذكر الله عز وجل المؤمنين بنعمة تأييده لهم بقوله {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} فجاء هذا التذكير بالنداء الذي يسترعي الأسماع والقلوب ({يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} رغم ان الآية نزلت علي أقوام عاشوا الأحداث بكل تفاصيلها . لذلك فإن هذا النداء كغيره من النداءات التي تجاوزت التسعون نداءا في القرآن الكريم من باب أولي موجه لنا نحن الذين لم نعيش هذه الإبتلاءات ، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله لرجل أتاه يسأله العهد فقال إذا سمعت الله يقول يأيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهي عنه.(١٨)

ولكي يمكن أن نستشعر قيمة هذه النعمة في وقت أصبحت أحوالنا فيه أحوج مايكون إليها نحتاج ان تقترب أكثر من أحوال هذا المجتمع المسلم التي تكرر حصوله عليها في وقت قصير.

١٨ أخرجه ابن أبي حاتم في كتاب التفسير ١٩٦/١

غزوة الأحزاب كانت هي ثالث الغزوات الكبري في ثلاث سنوات متتالية ، سبقتها غزوة أحد التي كانت نتائجها كفيلة بالإنكسار والهزيمة النفسية لأي مجتمع آخر غير المجتمع المسلم ، وقع الهزيمة بشكل عام اعظم وأعمق أثرا في المجتمعات الخاويه من الإيمان من زهوة النصر لاسيما عند زيادة عدد القتلي والمصابين بالقياس لعدد المقاتلين ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبُخَارِيِّ، عَنِ الْبَرَاءِ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعِينَ رَجُلًا . وتعظم المصيبة عندما يكون من بين الشهداء حمزة أسد الله عم الرسول ﷺ ، ومصعب بن عمير أول سفير في الإسلام هذا العدد من الشهداء من سبعمائة مقاتل علي الصحيح من روايات أهل السير بعد أن إنخزل عنه عبد الله إبن أبي إبن سلول بثلث الجيش ورجع في ثلاثمائة في منتصف الطريق بين المدينه وأحد ، أي خسارة ١٠% من المقاتلين بالحسابات العصرية ، وتشتد مصيبة المسلمين عندما يشاع مقتل رسول الله ﷺ ثم ينقشع غبار المعركة بإصابته في وجهه وكسر رباعيته (أسنانه) صلي الله عليه وسلم . وقيل أن المسلمون قد إنهزموا عنه ولم يبق إلا طلحة بن عبيد الله مدافعا عنه ﷺ ونزل في ذلك قول الله تعالي في سورة آل عمران (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (١٤٤) قال إبن هشام (وَذَكَرَ عُمَرُ مَوْلَى غُفْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ يَوْمَ أُحُدٍ قَاعِدًا مِنَ الْجِرَاحِ الَّتِي أَصَابَتْهُ، وَصَلَّى الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ قُعُودًا.

بعد أن إنقشع غبار المعركة شرع المسلون في دفن شهدائهم بلا غسل ولاتكفين وبلغ بهم الجهد أنهم كانوا يعجزون عن حفر القبور فإذن لهم الرسول في دفن الإثنين والثلاثة في حفرة واحدة.

وَفِي مسند الإمام أحمد : "حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ أُحُدٍ، فَجَعَلَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ يَبْكِينَ عَلَى مَنْ قُتِلَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ، قَالَ :فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَلَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ"(١٩).

قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ :وَأَخَذَ الْمُنَافِقُونَ، عِنْدَ بُكَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فِي الْمَكْرِ وَالتَّفْرِيقِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَحْزِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَظَهَرَ غِشُّ الْيَهُودِ وَفَارَتِ الْمَدِينَةُ بِالنِّفَاقِ فَوْرَ الْمِرْجَلِ، وَقَالَتِ :الْيَهُودُ لَوْ كَانَ نَبِيًّا مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ، وَلَا أُصِيبَ مِنْهُ مَا أُصِيبَ، وَلَكِنَّهُ طَالِبُ مُلْكٍ ؛ تَكُونُ لَهُ الدَّوْلَةُ وَعَلَيْهِ. وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ :لَوْ كُنْتُمْ أَطَعْتُمُونَا مَا أَصَابَكُمُ الَّذِينَ

---

[١٩] مسند الإمام أحمد رقم(٥٥٦٣)

أَصَابُوا مِنْكُمْ. فَأَنْزِلُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فِي طَاعَةِ مَنْ أَطَاعَ وَنِفَاقِ مَنْ نَافَقَ، وَتَعْزِيَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ يَعْنِي فِيمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، فَقَالَ} :وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم] آل عمران: ١٢١ [٢٠]

هذا المصاب الأليم والإبتلاء الشديد لهذة الأمة الوليدة كان كافيا للقضاء عليها أو علي الأقل تأخرها في النهوض مرة أخري لعدة سنوات ، وبالمقاييس العصرية ، لابد من توقف أي مواجهات أي مشاريع جديدة لمدة خمس سنوات علي الأقل ، ولكن هيهات هيهات ان يخلد صاحب رسالة إلي راحة أو نوم ، فما أن بلغت مسامع رسول الله صلي الله مقولة عن قريش عن عزمهم العودة للقتال ، وعدم إكتفائهم بما أصابوه منهم من جراح وكسر شوكة إلا ونادي الرسول ﷺ بالخروج لملاحقة المشركين لإرهابهم وإظهار قوة المسلمين وثباتهم .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ :فِي " مَغَازِيهِ :" وَكَانَ يَوْمُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ النِّصْفَ مِنْ شَوَّالٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ لِستَّ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ شَوَّالٍ، أَذَّنَ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ بِطَلَبِ الْعَدُوّ، وَأَذَّنَ مُؤَذِّنُهُ أَلَّا يَخْرُجَنَّ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ حَضَرَ يَوْمَنَا بِالْأَمْسِ. فَكَلَّمَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَأَذِنَ لَهُ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُرْهِبًا لِلْعَدُوّ، وَلِيَبْلُغَهُمْ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِهِمْ ؛ لِيَظُنُّوا بِهِ قُوَّةً، وَأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ لَمْ يُوهِنْهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ. وفي هذا نزل قول الله تعالي {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ }آل عمران: ١٧٢ إنتهي [٢١]

وعندما وصل رسول الله ﷺ ، ومعه من حضر أحد رغم مابهم من جهد ، وصل في مطارتهم للمشركين بقيادة ابو سفيان إلي حمراء الأسد "علي بعد ثمانية أميال من المدينة" [٢٢] ثم رجع إلي المدينة بغير قتال بعد أن علم برحيل المشركين إلي مكة.

يمكن لعقولنا ان تستوعب قوة وعزيمة وثبات رسول الله في البأساء والضراء وحين البأس فهو النبي الخاتم خير خلق الله ، المؤيد من ربه ، والذي أعده الله كنوذج للبشرية الكاملة ليكون أسوة ، ولكن مايفوق التصور والإستيعاب هو ماأظهرته الفئة المؤمنة المصاحبة له من إيمان راسخ رسوخ الجبال وحب لنبيهم وقائدهم تلتئم به كل الجراح وتتبدد به كل اراجيف المنافقين فلم يعرف الخوف أوالتردد لقلوبهم طريقا .

---

٢٠ البداية والنهاية –لإبن كثير

٢١ نفس المرجع السابق

٢٢ أطلس السيرة النبيوية –د.شوقي أبو خليل – طبعة دار الفكر - دمشق ٢٠٠٣

مرعام تقريبا مابين نهاية غزوة أحد في شوال من السنة الرابعه وبداية غزوة الأحزاب في شوال من السنة الخامسة ، بحساباتنا العصرية كان يفترض أن يكون هذا العام للتعبئة للموعد الذي ضربوه مع ابو سفيان عندما انصرف من أحد ، إذ نادي إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل نعم هو بيننا وبينك موعدا .

كان يمكن ان يكون هذا العام لتضميد الجراح بالإنكفاء في المدينه والتوقف عن الإنطلاق خارجها ،أو إعتباره عام لمراجعة الحسابات ومحاسبة المقصر ومكافأة المجتهد ، ولكن هيهات ، فهذه الفئة من المسلمين لاينظرون إلا إلي الجنة ، ولذلك ماحدث منهم خلال هذا العام كان خارج كل هذه الحسابات ، ففرسان الحق لاتتوقف عن الركض .

في هذا العام أخرج النبي أصحابه للغزو علي ماأصابهم من القرح والجراح لسبع غزوات قبل غزوة الأحزاب كما نقلت لنا كتب السير والمغازي هي غزوة حمراء الأسد وغزوة الرجيع وغزوة بني النضير وغزوة بني لحيان وغزوة ذات الرقاع وغزوة بدر الآخرة وهي بدر الموعد وأخيرا غزوة دومة الجندل علي حدود الشام وذلك كإنذار لقيصر ملك الروم عندما بلغه ان لهم جمعا كبيرا يظلمون من مر بهم في سوق لهم يريدون ان يتوسعوا به نحو المدينه وتفرقوا بعد علموا بقدوم المسلمين.

وأرسل أيضا في هذا العام ثلاث سرايا اولهما بقيادة أبي سلمة الأسدي وسرية عمرو بن أمية الضمري والتي كانت نتائجها مؤدية لغزوة بني النضير وسرية بئر معونة التي قتل فيها سبعين رجلا يقال لهم القراء ،قتلوا غدرا من حيان من بني سليم لتزيد جراح المسلمين .

عام بعد المصاب الأليم في غزوة أحد في وقت كان فيه المسلمون أحوج فيه للراحة فإذا بهم يغزون سبع غزوات إحداهم كانت قريبة من حدود الشام ويخرجون في ثلاث سرايا كانت إحداهم سببا في غزوة بني النضير التي كانت مقدمة لغزوة الأحزاب .

حاصر النبي ﷺ بنو النضير بعد أن حاولوا قتله رغم مابينهم من عهد ، حتي أجلاهم عن المدينة بما يمكنهم حمله من أموالهم مقابل تخليهم عن ديارهم وعن أرضهم للمسلمين .

هذا الخروج المذل ليهود بنو النضير جعل زعماؤهم يتحركون لتأليب مشركي العرب من قريش وغطفان وأحبايشهم الذين إمتلأت قلوبهم بالغيظ ، وحزبوا الأحزاب لحرب رسول الله حرب إستئصال تعود لهم بها السيادة المهدرة .

معجزة حفر الخندق

عندما بلغت أنباء الأحزاب إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، جمع أهل الشوري من صحبه الكرام ، وعرض عليهم الأمر ، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق ليكون حائلا بينهم وبين المشركين فأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم بحفره.

حفر الخندق فتح بابا جديدا من أبواب الإبتلاء علي هذه الفئة القليلة الصابرة المؤمنة ، يتمثل هذا الإبتلاء في صعوبة الحفر في منطقة رملية تتخللها الصخور الصلدة ، وهم الذين عجزوا قبل أقل من عام عن حفر قبور لدفن شهدائهم في أحد.

وقد جاء في كتاب: أطلس السيرة النبوية ـ للدكتور: شوقي أبو خليل: أن طول الخندق كان خمسة آلاف وخمس مائة وأربعة وأربعين متراً ـ٥٥٤٤ـ ومتوسط عرضه أربعة أمتار فاصلة اثنين وستين ـ ٤.٦٢ ـ ومتوسط عمقه ثلاثة أمتار فاصلة ثلاثة وعشرين ـ٣.٢٣. مع ملاحظة أن تراب الخندق شكل ساترا مرتفعا من جهة المدينة والله أعلم (٢٣)

حفر الخندق حدثت فيه معجزات تناولتها كتب السير والمغازي ولا يتسع المجال لذكرها هنا ، وكانت هذه المعجزات من نعم التأييد الإلهي التي نتحدث عنها والتي بدأت بشائرها في حفر الخندق .

سأكتفي هنا بإلقاء الضوء علي حفر الخندق برؤية عصرية لم تتناولها كتب السير والمغازي ، فالخندق كمشروع لا يمكن أن يتخيله عقل في هذه المنطقة ، فبعد ان تم عرض الفكرة من سلمان رضي الله عنه وأعتمدها رسول الله ﷺ بدأ الإعداد للتنفيذ بتحديد مكان الحفر حفره والذي لم يتم تحديده إعتباطا وإنما بعد دراسة وتربيب مدهش ينم عن عقلية فذة .

يتضح هذا من مقال للدكتور راغب السرجاني(٢٤)بعنوان حفر الخندق علي موقع (قصة الإسلام) بتاريخ ٢٠١٠/٠٤/١٧ كتب يقول:

[أخذ رسول الله مجموعة من الصحابة، وتفقد أطراف المدينة، ليحدد المكان الملائم لحفر الخندق، آخذًا بكل الأسباب، ووجد أن لشرق المدينة المنورة وغربها حماية طبيعية، وهي مرتفعات الحرة الشرقية والغربية، وكذلك كان جنوب المدينة محميًّا بغابات طبيعية وأحراش، فلم يتبق إلا منطقة الشمال ومنطقة الجنوب الشرقي، وفي الأخيرة ديار بني قريظة، وهم إلى الآن على العهد مع رسول الله ، والعهد لا يقضي فقط بعدم معاونة قريش، بل يقضي أيضًا بالدفاع المشترك مع المسلمين عن المدينة المنورة، إذا دهمها عدو، أيًا

---

٢٣ أطلس السيرة النبيوية ـد.شوقي أبو خليل ـ طبعة دار الفكر ـ دمشق ٢٠٠٣

٢٤ د.راغب السرجاني : أستاذ الطب بجامعة القاهرة-ولد سنة ١٩٦٤ داعية إسلامي

كان هذا العدو؛ لذلك أرسل رسول الله لهم رسالة؛ ليؤكد العهد معهم، فأكدوا العهد، وتأكيدهم للعهد مهم جدًّا؛ لأن دخول جيوش المشركين من خلالهم قد ينتج عنه إنهاء الوجود الإسلامي تمامًا، واستئصال شعب المسلمين بكامله.

لم يتبق إذًا إلا منطقة الشمال مفتوحة، ولذلك أخذ رسول الله القرار بحفر الخندق في الشمال، ليغلق المنطقة ما بين الحرة الشرقية والغربية، وإذا كان القرار قد تم اتخاذه بسهولة ويسر، إلا أن تنفيذه يُعدُّ مما يقارِبُ المستحيل؛ فمشروع حفر الخندق مشروع لا يتخيله عقل أبدًا؛ ذلك أن عمق الخندق يبلغ خمسة أمتار، بينما يصل عرضه في أقل التقديرات إلى خمسة أمتار أيضًا (بعض التقديرات تذهب به إلى ١٠ و١٢ مترًا)، ويبلغ طوله اثني عشر كيلو مترًا. وهذه الأبعاد تدل على أن الأرض المفروض حفرها يبلغ حجمها ٣٠٠ ألف متر مكعب!!

ولكي نتصور هذا الجهد المبذول لحفر هذا الخندق العظيم قمت باستطلاع آراء العديد من المهندسين فأصابنا جميعًا الذهول! لأن أفضل عامل اليوم، لا تتعدى قدرته على الحفر في اليوم الواحد خمسة أمتار مكعبة، هذا إذا كانت الأرض التي يحفرها أرضًا رملية، وبعمق متر واحد فقط، وكلما زاد العمق قلَّت قدرة العامل على الحفر.

إن عدد الصحابة في المدينة المنورة جميعًا ثلاثة آلاف، وليس من الممكن أن يشتغل جميعهم في الحفر، فهناك فرق للحراسة، وفرق للخدمة، كما يوجد كبار السن، ومرضى... ومع ذلك فلو افترضنا أنهم جميعًا يعملون في الحفر، فإنه يستحيل حفر الخندق في الزمن القياسي الذي استغرقه بالفعل، حيث استغرق أسبوعين فقط!!

وإذا افترضنا أن كل صحابي سيعمل ست عشرة ساعة يوميًا، فإنه من الصعب جدًّا أن ينتهي الحفر في هذا الزمن، وهذا كله، مع افتراض أن الأرض رملية، وسهلة الحفر، فإذا علمنا أن الأرض التي تم فيها الحفر صخرية تحتاج في زماننا الآن إلى معدات خاصة جدًّا لحفرها، لأدركنا بيقين كم كانت هذه المهمة شاقة وعسيرة، وكم كان إنجازًا جبارًا بحق، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحفر كان لعمق خمسة أمتار، وليس مترًا واحدًا، وأن نقل كميات التراب المستخرج من الأرض إلى أماكن بعيدة عن الحفر هي أيضًا مهمة ثلاثة الآلاف من الصحابة، ولو أضفنا أن الخندق متسع في بعض الأماكن إلى أكثر من خمسة أمتار، ولو أضفنا نقص خبرة المسلمين بشكل عام في هذا العمل؛ إذ إنها المرة الأولى التي يحفرون فيها خندقًا، ولو أضفنا كثرة الأيدي العاملة، وتوزعها على اثني عشر كيلو مترًا، وكيف يمكن أن تُدار فِرَق بهذه

الضخامة، وإذا أضفنا إلى كل ذلك أن هؤلاء يعملون في ظروف بالغة الصعوبة، من جوع وبرد وخوف من قدوم الأعداء في أي لحظة.
لو تخيلنا كل ذلك لتيقنَّا أن هذه المهمة كانت مهمة مستحيلة فعلا، مستحيلة بكل المقاييس، إذ إن عملا كهذا لو تم في زمننا هذا في أسبوعين لاحتاج إلى أكثر من مائتي رافعة أثقال، وآلاف المعدات الإلكترونية، وعشرات سيارات النقل الكبيرة، كما يحتاج إلى إدارة هندسية كاملة، ومجموعة من الاستشاريين المتخصصين في الحفر، ولكي نعرف صعوبة هذا المشروع، من الممكن أن نقارنه مثلاً بمشروعات مترو الأنفاق في المدن الكبرى ومدى صعوبتها، واستغراقها لسنوات طويلة حتى تتم.
وهكذا كان مشروع حفر الخندق خرافيًّا بحق.
ولا يمكننا أبدًا توقع أو تصور حدوثه، وهكذا في العديد من وقائع التاريخ الإسلامي، هناك الكثير من الأمور يستحيل أن نفهمها إلا إذا كنا مؤمنين بالله حقًّا، ولنتذكر مثلا حديثنا عن غزوة بدر، وكيف تم نصر المسلمين فيها، ونتذكر جند البركة وكيف أن الله يضخم جهد المؤمن البسيط؛ فتنتج عنه نتائج عجيبة.
وهكذا فإن مشروعًا كحفر الخندق لا يمكن للبشر أبدًا أن يتموه، ولكن الله إذا أراد أعانهم على ذلك، وذلل لهم كل الصعاب، سواء بأيديهم أو بمدد من الملائكة، أو جنود لم يروها، ولكن هذا واقع نراه، ونشعر به إلى يوم القيامة، ما دام هناك أقوام يستحقون نصر الله ، آخذين بأسباب النصر ذاك.
وهكذا تم حفر الخندق العملاق، تم هذا المشروع الجبار] إنتهي [٢٥]
ظهرت بشائر التأييد الإلهي للمسلمين بتفتيت الصخور الصلدة مع ضربات فئوسهم البسيطه وكلما تعثرت صخرة كان لها رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وظهرت البشائر بإئتلاف القلوب ، وتقديم كل منهم مافي بيته من طعام علي قلته ليتكاثر ببركة رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي يكفي كل العاملين في الخندق .
والمدهش أن هذا المشروع الضخم تم في هذا الوقت القياسي ولم يشعر به المشركين إلا حين فوجئوا به عندما بدأوا في حصار المدينه حتي قال فارسهم (هذا أمر لم يعهده العرب)
كان عدد المشركين الذين حاصروا المسلمين في المدينة من فوقهم ، عشرة آلاف من قريش وغطفان ومن والاهم من الأحابيش مقابل ثلاثة ألاف من المسلمين خلف الخندق تاركين نسائهم وضعفائهم وذراريهم في حصون

---

٢٥ حفر الخندق – مقال للدكتور راغب السرجاني – من موقع قصة الإسلام

المدينة وقد كانت العهود بينهم وبين يهود بنو قريظة الذين إلتزموا حصونهم والتي كانت من أسفل منهم ، ثم نقضوها وأصبح المسلمون محاصرون من فوقهم ومن أسفل ، هنا زاغت الأبصار وهنا بلغت القلوب الحناجر وظهر للمسلمين عدو جديد لم يكن في الحسبان وهم المنافقون والمرجفون في المدينة الذين يظنون بالله الظنون ، هنالك إبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا .

وعندما نجحوا في الإبتلاء وثبتوا في الزلزال وقالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما هنا ظهرت نعمة التأييد الإلهي بجنود لم يرونها كالريح والملائكة ، وجنود يرونها كقصة نعيم بن مسعود التي نعرضها كنموذج من التأييد الإلهي .

التأييد الإلهي في قصة نعيم بن مسعود

إشتد الكرب علي المسلمين بحصار الأحزاب لهم لما يقرب من شهر ، وإزداد الكرب شدة بنقض يهود بنو قريظة لعهدهم وأصبحوا كالشوكة في ظهر المسلمين ، والرسول يبحث عن مخرج من هذه الشدة راوض قائدا غطفان (عيينه بن حصن الفزاري والحارث بن عوف) علي ثلث ثمار المدينة علي أن يرجعا ومن معهما عن المدينة ويكسروا الحصار ، وقبل أن يتم الإتفاق طلب رأي السعدين بن معاذ وبن عبادة زعيمي الآوس والخزرج .

فقالا مقولة جديرة بأن تكتب بماء الذهب ، مقولة المعتز بإسلامه الذي لايقبل به الدنية حتي ولو كانت الحياة هي الثمن قالا (يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ وَلَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْعَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا.فَقَالَ :" بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا " . فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً وَاحِدَةً إِلَّا قِرًى أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا! مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللَّهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.)

في هذا الوقت العصيب يظهر تأييد الله تعالي بجند من جنده (ومايعلم جنود ربك إلا هو) رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود الأشجعي أتي رسول الله ﷺ فقال "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ." فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ ﷺ إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ)

ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه [٢٦]، رجل منذ ساعات قليلة كان من بين أعداء الله الذين يحاصرون رسوله ، فجأة يحول الله قلبه للإسلام ويذهب لرسوله وهو تحت الحصار ويقول له مرني بما شئت ، منتهي التجرد والإخلاص لخدمة هذا الدين ، فالشدة التي فيها رسول الله وأصحابة ليس فيها أي مظنة لمنفعة دنيوية تجعل رجلا يخلع نفسه من مكان تهرب الناس إليه إلي مكان تهرب

---

٢٦ صحيح علي شرط الشيخين في مسند الإمام أحمد رقم ١٧٦٣٠ عن النواس إبن سمعان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وكان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، والميزان بين الرحمن عز وجل يخفضه ويرفعه

الناس منه ، لايمكن تفسير ذلك إلا انها قوة الايمان ، والأعجب هو الدور الذي قام به نعيم بن مسعود بعد ذلك ، كان من الممكن أن يكتفي بعرض خدماته علي رسول الله ﷺ وكان رد رسول الله ﷺ يحمل في طياته الشفقة عليه من هول الموقف وهو مجرد رجل ضعيف وترك له حرية العمل في التخذيل عنهم ، هنا تظهر كياسة المسلم في تسخير كل مايملك لخدمة لدينه لابد للمسلم أن يبادر بأي عمل صالح يستطيعه حتي إن بدا هذا العمل قليلا .

إنطلق نعيم إبن مسعود لتنفيذ فكرة لا يمكن أن تخطر علي بال ، رواها إبن إسحق في سيرته فقال : (خَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ قَالُوا: صَدَقْتَ، لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ. فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ، فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَتَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِغَيْرِهِ فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ؛ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ. قَالُوا: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمُوهُ؛ نُصْحًا لَكُمْ، فَاكْتُمُوا عَنِّي. قَالُوا: نَفْعَلُ. قَالَ: تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَنُعْطِيَكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ. فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ، فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا قَالُوا: نَفْعَلُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ، وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ، وَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَرُءُوسُ غَطَفَانَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي، قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ. قَالَ: فَاكْتُمُوا عَنِّي جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ، قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ

وَالْحَافِرُ فَأَعِدُّوا لِلْقِتَالِ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا وَنَفْرُغُ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ .فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ :
إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَهُوَ يَوْمٌ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَقَدْ كَانَ أَحْدَثَ فِيهِ بَعْضُنَا حَدَثًا فَأَصَابَهُمْ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ، وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينِ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِينَا؛ ثِقَةً لَنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَ إِنْ ضَرَّسَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ تَنْشَمِرُوا إِلَى بِلَادِكُمْ وَتَتْرُكُونَا، وَالرَّجُلَ فِي بِلَادِنَا، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِذَلِكَ مِنْهُ .فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ :وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي حَدَّثَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ .فَأَرْسَلُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ :إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْقِتَالَ فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا .فَقَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ حِينَ انْتَهَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بِهَذَا :إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ مَا يُرِيدُ الْقَوْمُ إِلَّا أَنْ تُقَاتِلُوا، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ انْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ فِي بَلَدِكُمْ .فَأَرْسَلُوا إِلَى قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ :إِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ، وَخَذَّلَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ فَجَعَلَتْ تَكْفَأُ قُدُورَهُمْ وَتَطْرَحُ أَبْنِيَتَهُمْ.) إنتهي (٢٧)

وهكذا نجحت خطة نعيم بن مسعود في التخذيل وبث الشقاق بين صفوف الأحزاب والتي كان من تأييد الله تعالي لها ، أن قدر وقوعها في يوم سبت اليهود ليتخذ منه يهود بني قريظه متكئا لعدم إجابة أبو سفيان للقتال فتأكد كلام نعيم بن مسعود ، تزامن هذا مع الريح الشديدة والرعب الذي بثته الملائكة في قلوب المشركين وتلك هي الجنود التي لم يراها الناس وجعلت أبو سفيان يفض حصاره للمسلمين دون قتال وتكون غزوة الأحزاب هي آخر غزوات المشركين للمسلمين كما قال رسول الله ﷺ.

نعيم بن مسعود رضي الله ، بصدق عمله نال درجة الصحبة وحسنت صحبته ، وأصبحت قصته تروي في كل كتب السيرة ، وقد وروي حديثا صحيحا عن الرسول ﷺ في حرمة قتل الرسل .

٢٧ السيرة النبوية –إبن إسحق

خلاصة القول في هذه الوقفة أن نعمة التأييد الإلهي ليست بعيدة المنال لآحاد المسلمين فضلا عن جماعتهم ، ولو أمعنا النظر وتدبرنا قليلا أن نعمة تأييد الله لعباده بين أيدينا كل يوم ولكنا نتغافل عنها هي موجودة بشكل يومي في كثير من معارك المسلمين مع اليهود الصهاينه علي أرض فلسطين ، كانت موجودة مع المسمين عندما تعلقوا بالله في حرب العاشر من رمضان.

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس، ويحدث لها رتابة، فلا تلتفت إليها، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق - عَزَّ وَجَلَّ - ونعمة من نعمه؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك.

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر. . الخ وساعتها ينبغي عليك أنْ تشكر المنعم الذي عافاك مما ابتلى به غيرك، إذن :فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنِعَم الخالق.

والحق سبحانه جعل نِعَمه عامة للمؤمن وللكافر؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً، مَنْ أحسَنَ هذه الأسباب أعطتْه، حتى لو كان كافراً.

نعمة التأييد الإلهي لن تذهب لأناس يتنعمون في الفرش الوثيرة أو يجاهرون بمعصية عز وجل أو يتلهون بما لانفع فيه كالغناء والفن ولعب الكرة

نعمة التأييد الإلهي لن تذهب لأقوام أصيبوا بالهزيمة النفسية وفقدوا الثقة في نصر الله لهم وراحوا يبحثون عن النصر والتأييد من أعدائهم علي إخوانهم

الحصول علي نعمة التأييد الإلهي في متناول كل مسلم إذا أخلص النية لله تعالي مع حسن اتباع رسول الله صلي الله عليه وسلم ، كما قال الله تعالي في ختام سورة الكهف {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } ﴿١١٠﴾}

فإخلاص النية هو ألا يشرك بعبادة ربه أحدا ، والعمل الصالح هو ماوافق سنة رسول الله ﷺ.

الفصل الثالث

أصحاب الهزيمة النفسية

في صدر سورة البقرة ، وفي اوائل آيات القرآن الكريم بعد فاتحة الكتاب صنف الله تعالي الناس في ثمان عشرة إلي ثلاث أصناف ، وصف للمؤمن في ثلاث آيات ، ووصف للكافر في آيتان، ووصف للمنافقين في ثلاث عشرة آية. فالمؤمن والكافر حالهما واضح بين الإسلام لله رب العالمين وبين إنكار ألوهيته وربوبيته عز وجل فلم يحتاج الأمر إلي كثير بيان في وصف المؤمن ، وقد قال الله عز وجل في صدر سورة التغابن {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِير }(2))

وقد أوجز الحافظ بن كثير الكلام في تفسير هذه الآية حين قال [وقوله تَعَالَى : {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ } أَيْ هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ، وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَتَمَّ الْجَزَاءَ، وَلِهَذَا قَالَ تعالى:{وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}] [٢٨]

الكفر هو أصل النفاق ، فالمنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر إلا أن الله جعل المنافقين في الدرك الأسفل من النار وذلك لمخادعتهم لله وللذين آمنوا بسبب خفاء حالهم ، والله تعالي وحده هو الأعلم بهم وقد أطلع رسوله علي صفاتهم وكيفية معاملتهم في الدنيا ويبقي حسابهم علي الله في الآخرة .

وبما أن الإيمان من أعمال القلب التي لا يعلمها إلا الله ، فتعذر علي المؤمن معرفة المنافق إلا من خلال الصفات التي وصفها به الله ورسوله ، ولذلك أفاض الله في وصفه في صدر صورة البقرة كما بينا وكذلك في غيرها من سور القرآن الكريم ، ومن أبرز صفاتهم أن في قلوبهم مرض وأجمع المفسرون أن المرض الذي في قلوبهم هو مرض في الإعتقاد القلبي وهو الشك والإرتياب فيما نزل علي محمد صلي الله عليه وسلم

وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم بإسم المنافقون كما سميت سورة بإسم المؤمنون وسورة بإسم الكافرون .

المقصود من هذه المقدمة لهذه الوقفة والتي قد تبدو لأول وهلة أنها خارج السياق ، هو اننا أردنا أن نبين أن حديثنا عن أصحاب الهزيمة النفسية ليس حديثا عن المنافقين لأنه كما بينا المنافقين في الأصل كفار وهم في الدرك الأسفل من النار كما وصفهم الله عز وجل ، ونحن لسنا بصدد تكفير أحد من

---

٢٨ تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ - تفسير سورة التغابن

المسلمين من أصحاب الهزيمة النفسية وإنما أردنا فقط بيان حالهم وتحذيرهم من الإنزلاق في هوة النفاق الذي يبدو أنهم إليه أقرب .

فإذا كان المنافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان فالمنهزمون نفسيا يبطنون الإيمان ويظهرون الكفر في أقوالهم وبعض أفعالهم ، ولذلك لانستطيع تكفيرهم طالما يقرون بالإيمان ولكن نحاول رد مايظهر منهم من أقوال أو أفعال كفرية.

وفي تفسير القرطبي قال [وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي :وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَ الْكُفَّارِ بِعَشَرَةِ أَوْصَافٍ: بِالْخَتْمِ وَالطَّبْعِ وَالضِّيقِ وَالْمَرَضِ وَالرَّيْنِ وَالْمَوْتِ وَالْقَسَاوَةِ وَالِانْصِرَافِ وَالْحَمِيَّةِ وَالْإِنْكَارِ .فَقَالَ فِي الْإِنْكَارِ" قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ " النحل: ٢٢ ، وَقَالَ فِي الْحَمِيَّةِ {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ}. الفتح: ٢٦ وَقَالَ فِي الِانْصِرَافِ { ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} التوبة: ١٢ .

وَقَالَ فِي الْقَسَاوَةِ { فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} الزمر: ٢٢ ، وَقَالَ { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ} البقرة: ٧٤، وَقَالَ فِي الْمَوْتِ {أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ} الانعام: ١٢٢ وَقَالَ { إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ } الانعام: ٣٦ ، وَقَالَ فِي الرَّيْنِ { كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ مَا كانُوا يَكْسِبُونَ} المطففين: ١٤، وقال في المرض { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } محمد: ٢٩ ، وَقَالَ فِي الضِّيقِ { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً} الانعام: ١٢٥ ، وَقَالَ فِي الطَّبْعِ {فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} المنافقون: ٣ ، وقال:{ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ } النساء: ١٥٥، وَقَالَ فِي الْخَتْمِ { خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِم} البقرة: ٧ ثم قال :وَقَالَ أَرْبَابُ الْمَعَانِيَ {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أَيْ بِسُكُونِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَحُبِّهِمْ لَهَا وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهَا]

وقال في موضع آخر عند الحديث عن أسباب إمتناع الرسول صلي الله عليه وسلم عن قتل المنافقين رغم أنه قد صحت أحاديث كثيرة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم في وصف المنافقين وتحديد صفاتهم وأحيانا أسمائهم.

[قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ :النِّفَاقُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الزَّنْدَقَةُ فِينَا الْيَوْمَ، فَيُقْتَلُ الزِّنْدِيقُ إِذَا شُهِدَ عَلَيْهِ بِهَا دُونَ اسْتِتَابَةٍ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيِ الشَّافِعِيِّ .قَالَ مَالِكٌ :وَإِنَّمَا كَفَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ لِيُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِعِلْمِهِ،إِذْ لَمْ يُشْهَدْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ][٢٩]

---

٢٩ تفسير القرطبي

يقول الله عز وجل في خواتيم السورة التي بين أيدينا "سورة الأحزاب" (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً(60)

أكثر المفسرون يجعلون المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد إلا في هذه الآيه ، جعل المفسرون الذين في قلوبهم مرض هم الزناة ، قال الإمام القرطبي يقول في تفسيرها [أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ، كَمَا رَوَى سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ ":الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ "قَالَ هم شي وَاحِدٌ، يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ.) ثم قال (وَقِيلَ :كَانَ مِنْهُمْ قَوْمٌ يُرْجِفُونَ، وَقَوْمٌ يَتْبَعُونَ النِّسَاءَ لِلرِّيبَةِ وَقَوْمٌ يشككون المسلمين .قال عكرمة وشهر ابن حَوْشَبٍ ":الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ "يَعْنِي الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمُ الزِّنَى .وَقَالَ طَاوُسٌ :نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ .وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ :نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ .

وقيل :المنافقون والذين في قلوبهم مرض شي وَاحِدٌ، عُبِّرَ عَنْهُمْ بِلَفْظَيْنِ، دَلِيلُهُ آيَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ "الْبَقَرَةِ " . وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ قَوْمٌ كَانُوا يُخْبِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَسُوءُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَيَقُولُونَ إِذَا خَرَجَتْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :إِنَّهُمْ قَدْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا، وَإِنَّ الْعَدُوَّ قَدْ أَتَاكُمْ، قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ .وَقِيلَ كَانُوا يَقُولُونَ :أَصْحَابُ الصُّفَّةِ قَوْمٌ عُزَّابٌ، فَهُمُ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّسَاءِ .وَقِيلَ :هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَنْطِقُونَ بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ حُبًّا لِلْفِتْنَةِ. وَقَدْ كَانَ فِي أَصْحَابِ الْإِفْكِ قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حبا لِلْفِتْنَةِ .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :الْإِرْجَافُ الْتِمَاسُ الْفِتْنَةِ، وَالْإِرْجَافُ :إِشَاعَةُ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ لِلِاغْتِمَامِ بِهِ .وَقِيلَ:تَحْرِيكُ الْقُلُوبِ] إنتهي [٣٠]

والشاهد من هذا ان الإمام مالك عليه رحمة الله سمي المنافقين في عصره بالزنادقه ، وقال المفسرون عن الذين في قلوبهم مرض في سورة الأحزاب هم الذين يتعرضون للنساء والزناة أي ميزوهم عن المنافقين ، وعلي ذلك نري أنه يجوز لنا وضع المنهزمون نفسيا تحت مسمي اللذين في قلوبهم مرض لوجود عوامل كثيرة مشتركة بينهم ، فقد تشابهت قلوبهم في الإشمئزاز من شرع الله ، وفي الصد عن سبيل الله بحجج تكاد تكون هي نفسها منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام وصدق الله إذ يقول في سورة محمد "وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُم" (30)

---

٣٠ نفس المصدر السابق

نشرت مقالات كثيرة لبعض الباحثين لدراسة وتحليل أسباب وأثر وعلاج ظاهرة الهزيمة النفسية لدي المسلمين ، فبعضهم درسها من الناحية النفسية ، والبعض أخذ في الإعتبار العوامل البيئية والظروف الإجتماعية ، وأكثرهم علي أن السبب الرئيسي لهذه الظاهرة هو ضعف الوازع الديني والجهل بالدين ، والحقيقة أن كل هذه الأسباب مجتمعة من الممكن أن تؤدي إلي هذا المرض العضال ، ولا إختلاف في أثره السيئ علي الأمة الإسلامية والذي لا أتفق فيه مع كل المحللين لهذه الظاهرة هو طريقة العلاج ، فكل من تعرض لهذه الظاهرة يعالجها بالتذكير بالآيات المثبتة للمسلمين كقول الله عز وجل في سورة آل عمران {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (١٣٩) ، فالخطاب بمثل هذه الآيات موجه لأهل الإيمان ، وأصحاب الهزيمة النفسية أقرب للخروج من دائرة الإيمان وبالتالي صمت آذانهم وطبع علي قلوبهم بما لايسمح لهم بسماع هذا الخطاب من الأساس.

في مقال لأحد الكتاب في أحد مواقع التواصل الإجتماعي لدراسة الظاهرة وتحليلها من منظور إسلامي بعنوان (الهزيمة النفسية ... أو عندما تنكسر الإرادة)أتيح للقراء التعليق علي المقال ، فكانت أغلب التعليقات صادمه لأنها تعكس مدي تمكن الهزيمة النفسية من هؤلاء ، وأن مثل هذا الخطاب بالنسبة لهم كمن يعالج الرمضاء بالنار او كمن يقول داوني بالتي هي الداء ، وأجد نفسي مضطرا لعرض بعض النماذج لهذه التعليقات لكي يمكن مقارنتها بردود الذين في قلوبهم مرض في غزوة الأحزاب

يقول أحدهم في التعليق علي صاحب المقال (عندما تكابر وتقرأ الموضوع حتى النهاية تصاب بنوع من الدهشة والاستغراب وقد يُخَيّل لك ان صاحب الموضوع نام مع أهل الكهف ولم يستيقظ بعد

كيف لإنسان يعيش في القرن ٢١ مع ما يعرفه من تطور هائل في مختلف الميادين من علوم إنسانية وطبيعية كالطب والصناعة والفيزياء وغير ذلك من العلوم ، كيف لهذا الانسان أن يحاول معالجة مشاكل إجتماعية وسياسية ونفسانية آنية بالقفز على كل هذه المعطيات العلمية الضخمة والضرب بها عرض الحائط والرجوع الى نماذج تراثية عقائدية أُريد لها ان تكون مقدسة لحل المشاكل الحالية

بكيفية خارقة إستطاع صاحب المقال إرجاع عقارب الزمن الذي نعيشه الى زمن موسى وفرعون وكأننا نعيش فيلما للخيال العلمي او الخيال المخدر بجرعات مفرطة)

ويقول تعليق آخر (قرأت الموضوع وكنت أنتظر أن يقدم صاحب المقال وصفات مغايرة للخلل الوظيفي في العقل الإسلامي، وإذا به يزيد الطين بلة. وإذ يذكر صاحبنا الدوافع النفسية، فأكبر دافع نفسي للخمول هو ما يعج به تراثنا من اعتبار الحياة الدنيا لعب ولهو، وكل شيء مؤجل إلى الآخرة، فأين الثقافة التي ستحفز على العمل بجد هنا. والعمل الصالح في الثقافة الاسلامية ليس إلا الإكثار من طقوس تعبدية وصرف الأموال في الحج، أكبر مستشفى عقلي في العالم، للطواف بين الصفا والمروة ورجم الشيطان وتقبيل الحجر الأسود وباقي الأوثان الأخرى. كيف لا يصاب بالجنون والانفصام من يطلب منه دينه أن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه سيموت غدا ؟؟ أي ألعاب بهلوانية ستمكن الفرد من القيام بهذه العملية المستحيلة؟؟ أما خمس صلوات في اليوم فهي إضراب مقنع عن العمل؟؟ أم ستكدب محيطك عندما تجد الإدارات والمصانع تتوقف ثلاث مرات في اليوم من أجل الصلاة، في حين أن الأوطان يبنيها العمل الجاد والمتواصل. أما رمضان فحدث ولا حرج حيث ينخفض فيه الناتج الوطني بنسب مهولة. إن الطقوس الاسلامية صالحة فقط للقراصنة والعصابات التي تسطوا على أموال الناس بشكل مباغت وهو حال محمد عندما كان يسطو على قوافل قريش، ويضع هذه الشرائع الغابوية التي إسمها الاسلام. وإذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فذروا البيع..أليست هذه دعوة صريحة لتبخيس صورة العمل. إن صاحب المقال يحلم بجيش محمد من أجل الانبعاث النفسي وإشعال المقاومة، وليراجع صاحبنا التاريخ الاسلامي وتاريخ الغزوات التي يستشهد بها ليجد أن داعش اليوم لا تختلف عن جيش محمد، نفس قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث، نفس السبي للنساء وبيعهن في سوق النخاسة، نفس نكاح الجهاد.. التاريخ الاسلامي يعيد نفسه في شكل مهازل. ولو انتشرت دولة الخلافة لقطعوا رأسك)

ويقول تعليق ثالث (الضعف او الانهزام النفسي هي ظاهرة مرضية داخلية يعانيها الفرد ويمكن تحديد أعراضها وعلاجها بزيارة ذوي الاختصاص)

وهكذا أغلب التعليقات ترفض المعالجة الإسلامية للظاهرة ، ويمكن حصر أسباب الرفض للطرح الإسلامي في سببين :

أولا: إعتبار التراث الإسلامي غير صالح لهذا الزمان وإعتبار الدعوة للعودة إليه غرور وعبث .

ثانيا : إتخاذ الظواهر السلبية التي أوجدتها بعض الجماعات الإسلاميه سببا كافيا لرفض كل ماهو إسلامي

وصاحب المقال إستشهد في مقاله بمشهدين من مشاهد غزوة الأحزاب للتدليل علي الهزيمة النفسيه المشهد الأول هو مشهد التبشير من رسول الله ﷺ، الذي نتج عنه موقفان: موقف التصديق الكامل والثقة التامة بموعود الله ورسوله.

وفي ذلك يقول الله تعالى: {ولما رأى المومنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما} (الأحزاب ٢٢). قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إ ن نصر الله قريب} (البقرة٢١٢). أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب.

أما المشهد الثاني فموقف التكذيب والتردد والنفاق، الذي تبناه بعض من كانوا مع رسول الله ﷺ في المعركة، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: { وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا} (الأحزاب: ١٢) وطائفة ثالثة استأذنت النبي في الرجوع، وقال فيهم الله تعالى: {وإذ ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا} (الأحزاب:١٣).

المحن دائما تكشف ضعاف النفوس كما كشفت محنة غزوة الأحزاب عن خبايا المنافقين ومعادِنهم الخسيسة وخلجَاتِ صدورهم التي تنفُثُ حقدا وبغضا لهذا الدين ، وتقطرُ ألسنتُهم بما تمليه عليها قلوبهم التي لم تذق للإيمان طعما ، وإنما أُشربتِ الشكَّ والخداعَ .

جاءت هذه المحنة لتكشف المستور ، وتهتِكَ الأسرارَ التي انطوتْ عليها صدورُهم ، واجتهدوا في كتمانها ، أسرارٌ لا يتمُّ الإفصاح عنها إلا في مجالسِ الخفاءِ مع شياطينِهم وقُرنائهم .

قال أحدُهم متهكما ساخرا : " : يعدُنا محمدٌ فتحَ فارسَ والرومَ وأحدُنا لا يقدِرُ أن يتبَّرزَ فَرَقاً ! ما هذا إلا وعدٌ غُرُورٌ " . { قد كان محمدٌ يعدُنا فتحَ فارسَ والرومَ ، وقد حُصرَنَا هاهنا ، حتى ما يستطيعُ أحدُنا أن يبرُزَ لحاجَتِهِ ، ما وعدنا اللهُ ورسولُهُ إلا غُرُورًا } [٣١]

قال الألوسي في وصف أصحاب القلوب المريضه : " هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبَهِ عليهم ، وقيل : قومٌ كانوا ضُعَفَاءَ

---

٣١ تفسير الطبري

الاعتقادِ لِقُرْبِ عهدِهِم بالإسلام ، وجُوِّزَ أن يكون المرادُ بهم المنافقين أنفسَهم [٣٢].

كما سجَّل القرآن عليهم لطيفة :(وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ) وتأنيثُ الفعلِ إشارةٌ إلى رخاوتهم ، وتأنُّثِهِمْ في الأقوالِ والأفعالِ " [٣٣] ، فالجبنُ والهلع ليس من صفات الرجال .

وقوله تعالي {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا } قال البقاعي : " عدلوا عن الاسم ـ الذي وَسَمَهَا به النبيُّ من المدينة وطَيبة مع حسنه ـ إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديماً مع احتمال قبحه باشتقاقه من الثرب الذي هو اللوم والتعنيف إظهاراً للعدول عن الإسلام " [٣٤]

[اختاروا هذا الاسمَ القديمَ تصريحاً بتنكُّرِهِم وإنكارِهِم لمسمَّاها الجديد الذي يعلن عن عهدها الجديد مع النور والإيمان بعد الهجرة النبوية وبناء الدولة الإسلامية التي لا يعترف بها أهل النفاق وها هي الفرصة قد سنحت لهم ليعلنوا عن موقفهم الحقيقي من هذه الدولة التي أُسِّست على الإيمان .

وهكذا شأن أهل النفاق يستغلون الشدائد والأزمات وأوقاتَ الضعف وعصورَ الوَهَنِ : للإعلان عن مواقفهم المخزية ، وهذا شأنُهم في إحياء النعرات القديمة والدعوة إلى الجاهليات الأولى والرجوع ببلادِ الإسلام إلى عهودٍ بعيدةٍ شاع فيها الظلمُ وعمَّ الجهلُ فتراهم ينبشُونَ في مقبرة التاريخ عن الحضارات البائدة والقرون الغابرة وإحياء عاداتها المندثرة وتقاليدِها الراكدة ليُمِيتُوا بها السُّننَ ، ويطْمِسُوا معالمَ الإسلام ومظاهرَه في بلادِهِ .

وليس ببعيدٍ عنا ذلك الاهتمام الكبير بالحضارات الفرعونية والفنيقية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية وغيرها من الحضارات البائدة ! وأقربُ مثال تسمية الميادين والطرقات والمحلات والأحياء والمشاريع بأسماء فرعونية أو فارسية أو بابلية ! وهذه دعوةٌ صريحةٌ للرجعيَّة والعصبيةِ الجاهليةِ والتفرقة بين المؤمنين وتفتيت الأمةِ .

ناهيك عما ينطوي عليه هذا النداءُ من دعوةٍ إلى التفرقةِ بين المهاجرين والأنصار ونبذ ما بين الفريقين من أُخُوَّةٍ وألفة.

---

٣٢ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ ه ١٦ / ٥٤

٣٣ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) : دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ٦ / ٤٠٦

٣٤ نفس المرجع السابق

فمناداتهم على المؤمنين بقولهم {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا } فيه خِسَّةٌ ودناءةٌ ودعوةٌ للفُرْقَةِ بعد الوحدة ، والنزاع بعد الوفاق] [٣٥]

خلاصة الكلام في هذه الوقفة أن أصحاب القلوب المريضه لايخلو منهم عصر وإن إختلفت المسميات فهم المنافقون وهم المرجفون وهم الزنادقة وهم المهزومون نفسيا .

وعلاج المهزومون نفسيا يجب أن يكون علي رأس أولويات دعاة الحق لأن بقاؤهم علي هذا الحال ، يعني الإبقاء علي شوكة في ظهر المسلمين ، كالمنافقين في غزوة الأحزاب وفي غيرها .

وعلاج هؤلاء يختلف بإختلاف منشأ المرض ، فمنهم من مرضه قدرا كونيا {كتبت عليهم الضلالة } {فزادهم الله رجسا إلي رجسهم } فمثل هؤلاء لاجدوي من محاولة إصلاحهم ، وينطبق عليهم قول الله تعالي في سورة يس {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾}

ومنهم من مرضه ظرفي نتيجة صدمة إجتماعية، فالمهزوم من تنهار إرادته أمام المواقف والمحن والتحدّيات التي يواجهها، ويعيش الهزيمة في نفسه، فتشل إرادته وقواه المعنوية والمادية، فلا يقوى على توظيفها لصالحه، أو لصالح أُمّته والجماعة التي يواجهها ويتحمّل مسؤولية قيادتها.

وتتفاقم المشكلة عندما تعم الهزيمة مساحات واسعة من المجتمع، وعندما تصاب القيادات ومراكز التوجيه بالهزيمة النفسية، وعندما تبدأ الهزيمة النفسية تأثيرها، ويستشعر الخطر على كيان الأُمّة والجماعة، تبدأ مرحلة جديدة من مهام العمل الاعلامي الذي يتحمّل مسؤولية اعداد الأُمّة وتحصينها ضد هذه الحالات المرضية، وهي مرحلة الموقف من هذه الحالة الخطرة، وكم أكّد القرآن الكريم على تحصين المجتمع الإسلامي وحمايته من الاشاعات المضادّة، وحالات الإحباط والهزيمة النفسية، بل كرّس جزءاً كبيراً من توجيهه الإعلامي والتربوي للانتصار على الهزيمة النفسية، وشحذ الهمم، وتقوية العزائم، واعادة المعنويات المفقودة، كما حصل في معركة أحد، وفي مواقف عديدة من حالات المواجهة مع الحرب النفسية، والدعاية المضادّة التي شنّها المنافقون واليهود والمشركون وغيرهم على الدعوة الإسلامية وحركة انتشارها العسكرية والسياسية والفكرية.

والهزيمة النفسية كأي حالة مرضية لها أسبابها ومناشئها، كما لها علاجها

---

٣٥ غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم عرض وتحليل للدكتور سعود عبد الله الفنيسان ص ١٧٠

ووسائل الانتصار عليها، ولعل أبرز أسباب هذه الظاهرة المرضية في حياة الفرد والجماعة هي:

ضعف الثقة بالله: ليس الإيمان بالله قضية نظرية لا علاقة لها بواقع الإنساني النفسي وتكوينه التربوي والأخلاقي، بل هي مسألة وثيقة الارتباط ببناء الإنسان الداخلي، ولها تجسيدها بشكل مواقف وسلوك، ولا شيء يجري في هذا الوجود إلا بمشيئته وإرادته، يمدّ الإنسان المؤمن بقوّة نفسية وإرادة صلبة على المحن والتحدّيات، ويلاحظ أثر هذه التربية واضحاً في النص القرآني الذي تحدّث عن طلائع الدعوة والإيمان من صحابة الرسول الهادي محمّد صلي الله عليه وسلم وصوّر موقفهم من الهزيمة العسكرية، فبدوا من خلال النصر قوّة إرادية لا تهزم وإرادة متماسكة تستمد عونها من الله سبحانه، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (آل عمران/ ١٧٣). {وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء/ ١٠٤). {وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} (آل عمران/ ١٢٦). {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} (البقرة/ ١٥٥-١٥٦).{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ} (البقرة/ ٢٤٩).{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} (الطلاق/ ٣). وهكذا يوجّه القرآن عنايته لتربية الإنسان وتحصينه ضد الحرب النفسية والهزيمة، وليمكّنه من النظر إلى حركة العالم وقوانين التاريخ من خلال إرادة الله التي لا تُقهر.

الجهل بتاريخ البشرية: والسبب الثاني من أسباب الهزيمة النفسية والتداعي أمام التحدّيات والمحن هو الجهل بمسيرة التاريخ البشري وحركة الأحداث والوقائع، والتأثّر بالحدث الآني وتحديد الموقف السياسي والعسكري والاقتصادي، وكذا السلوك الفردي مع الآخرين، أو تجاه المحن والابتلاء الذي يواجهه الإنسان بحدود الاطار الزمني الضيّق، والقرآن يوضّح للإنسان هيكلية الحركة، وعدم الاستقرار في الأحداث والقوى المؤثّرة في حياة البشرية، القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويبيّن للإنسان المخاطب انّ الوقوف عند الحدث الآني هو خطأ، وفهم قاصر للأحداث وحركة التاريخ، لذا يخاطبه بقوله: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} (آل عمران/ ١٤٠). إنّ الإنسان عندما يستوعب التجربة التاريخية وحركة الأحداث، يستطيع ان يفهم الماضي والحاضر، ويشخّص المستقبل، ويبني موقفه على أساس تجربة ناجحة، وعندئذ لا يكون عرضة للهزيمة النفسية عندما يواجه التحدّيات والاحداث المؤلة، ويخسر الجولة الآنية.

إنّ القرآن يوجّه نظر الإنسان، ويدعوه إلى التأمّل في أحداث الماضي وتجارب الأمم السابقة بقوله: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (آل عمران/ ١٩٦-١٩٧). {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (التوبة/ ٧٠).

التكوين النفسي للفرد المهزوم: يساهم التكوين النفسي للشخصية مساهمة فعالة في صنع الهزيمة النفسية، انّ التربية والبيئة والظروف النفسية الخاصة تجعل من هذا الفرد أو ذاك شَخصاً مستعدّاً لتقبّل الهزيمة، والتداعي أمام الحملات الدعائية التي توجّه نحوه، أو تصنع منه قوّة إرادية يشعر بالتفوّق الذاتي، ويملك القدرة على امتصاص الهزيمة، وينتصر عليها داخلياً، ويسعى إلى تحويلها إلى نصر ودرس للعبرة والمقاومة، فتكوين الشخص النفسي، وتربيته الخاصة، وتجربته الحياتية، لها الأثر الكبير في صنع شخصيته ومستوى مقاومته للهزيمة، وثباته في ميدان الصراع السياسي والاعلامي والعسكري... إلخ. وقد حرص القرآن على تربية اتباعه تربية متفوّقة، تشعرهم بالقوّة والعزّة الباطنة، فلا ينحني المؤمن للمحن والتحدّيات ولا يستسلم للخصم، ولا يرضخ لقوى الطاغوت، قال تعالى: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (آل عمران/ ١٣٩). {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ} (المنافقون/ ٨).

تراكم الاحباطات الحياتية:قد تمر بالأفراد والجماعات مشاكل وتحدّيات متعددة فيخفق الفرد أو الجماعة في مواجهتها،وتتكرر التحدّيات، وتتكرر معها حالات الفشل، فتتراكم الاحباطات تراكماً نفسياً تشعر ذلك الفرد، أو تلك الجماعة بالخوف من تكرر الفشل والهزيمة، وتستحكم تلك العقدة في المواقف، وتتحول إلى حالة من الإحساس بالضعف والهزيمة النفسية، غير انّ القرآن الكريم يعالج هذه الحالات، ويكرّس توجيهات عديدة لمقاومتها كقوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (آل عمران/ ١٤٠).{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} (الإسراء/ ٦).

وهكذا يكوّن القرآن وعياً وتربية لمقاومة الهزيمة النفسية، ويكرّس جهداً اعلاميّاً قائماً على أسس علمية دقيقة، يساهم في معركتنا الحضارية في حالتي الهجوم والدفاع

الباب الثاني

خصائص النبي ﷺ في سورة الأحزاب

الفصل الأول : يأيها النبي
الفصل الثاني : النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم
الفصل الثالث : نصر النبي صلي الله عليه وسلم بالريح وبالرعب
الفصل الرابع : زوجات النبي صلي الله عليه وسلم
الفصل الخامس :محمد صلي الله عليه وسلم خاتم النبيين
الفصل السادس :القسم بين الزوجات
الفصل السابع :الصلاة والسلام عليه عبادة

السيرة النبويه هي النموذج الأمثل للإنسان الكامل الذي يُتَأسَّى به ، ويُقْتَدَى بهديِه ومنهجه في شتى جوانب الحياة : في السلم والحرب ، في السفر والحضر ، في البيت والمسجد ، في الطريق والسوق ، في الزراعة والرعي ، وفي التجارة والصناعة ، في تعامله مع البعيد ومع القريب ، ومع العدو ومع الحبيب

والسيرة النبوية هي أصح سيرة لتاريخ نبيّ مرسل حيث وصلت إلينا عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا ، فخذ مثلاً سيرة موسى وعيسى عليهما السلام تلقى التوراة والإنجيل وقد تطرق إليهما الزيف والتحريف . وقد تعددت مصادر السيرة النبوية كما يلي :

أولا : القرآن الكريم هو المصدر الأول والرئيسي للسيرة حيث اشتمل على كثير من أحداث السيرة قبل البعثة وبعدها ، وترجعُ أهميةُ هذا المصدرِ إلى أن القرآنَ الكريمَ نُقِلَ إلينا تواترا فهو قطعيُّ الثبوت ، وإلى أنه المعجزة الكبرى التي أيد الله بها نبيه

ثانيا : كتب السنة النبوية هي المصدر الثاني للسيرة النبوية ؛ وهي تدور حول أقوال النبي وأفعاله وصفاته وتقريراته : وهي متنوعةٌ حسبَ طريقةِ التصنيفِ

ثالثا : كتب السيرة : وهي الكتب التي تناولت حياة الرسول ودعوته بمرحلتيها المكية والمدنية وما تخلل ذلك من أحداثٍ فضلا عن تناولها لأحوال العرب في الجاهلية وصدر الإسلام وحياة النبي قبل البعثة.

رابعا : كتب مؤلفة في بعض الموضوعات المتعلقة بالسيرة :

مثل كتب الشمائل : التي تتناول أخلاق النبي وآدابه وصفاته ، وأقدم من كتب فيها أبو البختري وهب بن وهب الأسدي ت٢٠٠هـ وكتابه هو " صفة النبي " ثم أبو الحسن علي بن محمد المدائني ت٢٢٤هـ " صفة النبي " ثم داود الأصبهاني في كتابه صفة أخلاق النبي وللحافظ الترمذي ت ٢٧٩ هـ كتاب بعنوان الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية ، وكذلك المحدث أبو الشيخ عبد الله بن محمد الأصبهاني ت ٣٦٩ هـ في كتابه أخلاق النبي وآدابه " .

وكتب الدلائل : دلائل النبوة هي ما أكرم الله عز وجل به نبيه محمدا مما يدل على صدق نبوته ومن المؤلفات فيها دلائل النبوة للفريابي ت ٢١٢هـ ، وأعلام النبوة لأبي بكر بن أبي الدنيا ت٢٨١هـ ، وأعلام النبوة للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠ هـ ، ودلائل النبوة للبيهقي ت ٤٥٨ هـ .

وكتب الخصائص النبوية ، ككتاب الخصائص لابن سبع السبتي ت ٥٢٠هـ تقريبا ، وخصائص أفضل المخلوقين لعمر بن علي بن الملقن ت ٨٠٤هـ ،

واللفظ المكرم في خصائص النبي المعظم لقطب الدين الخيضري ت٨٩٤هـ ، وأجمعها لذلك كتاب الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطي ت٩١١هـ
وكتب المغازي : ومن أوثق كتب المغازي كتاب موسى بن عقبة (ت١٤٠هـ)، وقد قال ابن معين «كتاب موسى ابن عقبة عن الزهري من أصح هذه الكتب »، وقال الإمام الشافعي : «ليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره » .
، فضلا عن الدراسات الأخرى الموضوعية التي تناولت موضوعا معيَّنا من موضوعات السيرة . [٣٦]
وخصائص النبي صلي الله عليه وسلم تنقسم إلي أربعة أقسام :
القسم الأول : خصائص إنفرد بها النبي صلي الله عليه وسلم عن سائر الأنبياء
القسم الثاني : خصائص إشترك فيها النبي صلي الله عليه وسلم مع أنبياء آخرين
القسم الثالث : خصائص للنبي صلي الله عليه وسلم عن أمته
القسم الرابع : خصائص أعطيت لأمته صلي الله عليه وسلم بواسطت
وسورة الأحزاب من السور التي إشتملت علي كثير من خصائص النبي صلي الله عليه وسلم إن لم تكن أكثر سور القرآن الكريم جمعا لهذه الخصائص ، وفيما يلي بيان لها

---

[٣٦] **البيان القرآني للسيرة النبوية " دراسة منهجية " الدكتور الشيخ / أحمد محمد الشرقاوي الأستاذ المشارك بجامعة الأزهر وكلية التربية بالقصيم ١٤٢٨ه**

الفصل الأول

(نداء : ياأيها النبي)

ورد هذا النداء { يا أيها النبي } للنبي ﷺ في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة ، منها خمس مرات في سورة الأحزاب وحدها ، وثلاث مرات في الأنفال ، ومرة واحدة في التوبة ، ومرة واحدة في الممتحنة ، ومرة واحدة في الطلاق ، ومرتان في التحريم .

هذه الخصيصة هي من خصائص النبي ﷺ التي إختصه الله تعالي بها دون سائر الأنبياء ووجه الخصوصية فيها أن الله سبحانه وتعالي لم يناده بإسمه المجرد قط في القرآن الكريم دون سائر الأنبياء إلا علي سبيل الإخبار عن شيئ يخصه ، وورد هذا في أربع مواضع فقط في القرآن الكريم وهي قوله تعالي في سورة آل عمران {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّـهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّـهُ الشَّاكِرِينَ} ﴿١٤٤﴾) وقوله تعالي في سورة الأحزاب {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّـهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾} وقوله تعالي في سورة محمد {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} ﴿٢﴾) وقوله تعالي في سورة الفتح {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّـهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانًا } ﴿٢٩﴾

ونودي بيا أيها الرسول مرتان ، الأولي في سورة المائدة {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} ﴿٤١﴾ والثانية في سورة المائدة أيضا في قوله تعالي {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} ﴿٦٧﴾)

بينما كان النداء لبقية الأنبياء بأسمائهم المجرده كقوله {يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة }،{يانوح إهبط بسلام } ، {وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا } ، {يا موسي إني انا ربك } ، { يا عيسي أأنت قلت للناس } وهكذا مع سائر الأنبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام

وهذا التخصيص بالنداء لنبينا ﷺ فيه دلالة علي مكانته وتكريمه وعظيم شأنه عند الله عز وجل .

يقول صاحب التحرير والتنوير (افْتِتَاحُ السُّورَةِ بِخِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَنِدَائِهِ بِوَصْفِهِ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ الْأَهَمَّ مِنْ سَوْقِ هَذِهِ السُّورَةِ يَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَدْ نُودِيَ فِيهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي افْتِتَاحِ أَغْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ التَّشْرِيعِ بَعْضُهَا خَاصٌّ بِهِ وَبَعْضُهَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ وَلَه مُلَابِسَة لَهُ.

فَالنِّدَاءُ الْأَوَّلُ :لِافْتِتَاحِ غَرَضِ تَحْدِيدِ وَاجِبَاتِ رِسَالَتِهِ نَحْوَ رَبِّهِ.

وَالنِّدَاءُ الثَّانِي :لِافْتِتَاحِ غَرَضِ التَّنْوِيهِ بِمَقَامِ أَزْوَاجِهِ وَاقْتِرَابِهِ مِنْ مَقَامِهِ.
وَالنِّدَاءُ الثَّالِثُ :لِافْتِتَاحِ بَيَانِ تَحْدِيدِ تقلبات شؤون رِسَالَتِهِ فِي مُعَامَلَةِ الْأُمَّةِ.
وَالنِّدَاءُ الرَّابِعُ :فِي طَالِعَةِ غَرَضِ أَحْكَامِ تَزَوُّجِهِ وَسِيرَتِهِ مَعَ نِسَائِهِ.
وَالنِّدَاءُ الْخَامِسُ :فِي غَرَضِ تَبْلِيغِهِ آدَابَ النِّسَاءِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَمِنَ الْمُؤْمِنَاتِ.
فَهَذَا النِّدَاءُ الْأَوَّلُ افْتُتِحَ بِهِ الْغَرَضُ الْأَصْلِيُّ لِبَقِيَّةِ الْأَغْرَاضِ وَهُوَ تَحْدِيدُ وَاجِبَاتِ رِسَالَتِهِ فِي تَأْدِيَةِ مُرَادِ رَبِّهِ تَعَالَى عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ دُونَ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الدِّينِ أَعْمَالَهُ، وَهُوَ نَظِيرُ النِّدَاءِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ }الْمَائِدَة :67 وَقَوْلِهِ :{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ }الْمَائِدَة: ٤١
وَنِدَاءُ النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِوَصْفِ النُّبُوةِ دُونَ اسْمِهِ الْعَلَمِ تَشْرِيفٌ لَهُ بِفَضْلِ هَذَا الْوَصْفِ لِيَرْبَأَ بِمَقَامِهِ عَنْ أَنْ يُخَاطَبَ بِمِثْلِ مَا يُخَاطَبُ بِهِ غَيْرُهُ وَلِذَلِكَ لَمْ يُنَادِ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ يَا أَيهَا النبي أَوْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، بِخِلَافِ الْإِخْبَارِ عَنْهُ فَقَدْ يَجِيءُ بِهَذَا الْوَصْفِ كَقَوْلِهِ (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النبيء] التَّحْرِيم:٨ {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ} الْفُرْقَان: ٣٠{ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ }الْأَنْفَال:١ {النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ }الْأَحْزَاب: ٦ وَيَجِيءُ بِاسْمِهِ الْعَلَمِ كَقَوْلِهِ {مَا كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ }الْأَحْزَاب: ٤٠
وَقَدْ يَتَعَيَّنُ إِجْرَاءُ اسْمِهِ الْعَلَمِ لِيُوصَفَ بَعْدَهُ بِالرِّسَالَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } الْفَتْح: ٢٩ وَقَوْلِهِ {وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } آل عمرَان: ١٤٤ وتلك مَقَامَاتٌ يُقْصَدُ فِيهَا تَعْلِيمُ النَّاسِ بِأَنَّ صَاحِبَ ذَلِكَ الِاسْمِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ تَلْقِينٌ لَهُمْ بِأَنْ يُسَمُّوهُ بِذَلِكَ ، وَيَدْعُوهُ بِهِ، فَإِنَّ عِلْمَ أَسْمَائِهِ مِنَ الْإِيمَانِ لِئَلَّا يَلْتَبِسَ بِغَيْرِهِ،
وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ :أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ " [٣٧] تَعْلِيمًا لِلْأُمَّةِ.
وَقَدْ أَنْهَى أَبُو بَكْرِ ابْن الْعَرَبِيّ أَسْمَاءَ النَّبِي ﷺ إِلَى سَبْعَةٍ وَسِتِّينَ وَأَنْهَاهَا السُّيُوطِيُّ إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ .وَذَكَرَ ابْنُ الْعَرَبِيّ أَنَّ بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ قَالَ :أَسْمَاءُ النَّبِي أَلْفَا اسْمٍ) إنتهي [٣٨]

---

[٣٧] صحيح البخاري – كتاب التفسير – سورة الصف قوله تعالي يأتي من بعدي أسمه أحمد رقم (٤٨٩٦)

٣٨ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

رسول الله لقبه، واسمه محمد، واسمه أحمد كما ذُكر في القرآن، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدل على مُسمَّاه، بحيث إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمى، والقوم الذين سُمُّوا لهم محيط يُعرفون فيه، وغيرهم بنفس الأسماء لهم محيط آخر، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط.

ولفضيلة الشيخ الشعراوي عليه رحمة الله كلام نفيس في هذا الباب ، قال [وتعريف الإنسان يكون بالاسم أو بالكُنْية أو باللقب، فالاسم هو العلم الذي يُوضع لمسمّى ليُعلَم به ويُنادَى به، ويُميّز عن غيره، أما الكنية فاسم صُدِّر بأب أو أم كما نقول :أبو بكر، وأم المؤمنين، فإنْ سُمِّي بد بدايةً وجُعِل عَلَماً على شخص فهو اسم، وليس كنية، أما اللقب فما أشعر برفعة أو ضِعةً كما تقول :فلان الشاعر أو الشاطر.

فإذا أُطلِق الاسم الواحد على عدة مسميات، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أنْ تُوصَف بما يميزها كأسرة مثلاً عشقتْ اسم محمد فسمَّتْ كل أولادها) محمد (فلا بُدَّ أن نقول: محمد الكبير، محمد الصغير، محمد الأوسط.

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنْية ولقب، أما اسمه فمحمد وقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات :{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل } آل عمران: ١٤٤ {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله } الأحزاب: ٤٠ {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } الفتح: ٢٩ .{وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ... } محمد: ٢

وورد باسم أحمد في موضع واحد هو :{وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ...} الصف: ٦

أما كنيته :فأبو القاسم، ولقبه :رسول الله ، وهكذا استوفى رسول الله صلي الله عليه وسلم العَلَمية في أوضاعها الثلاثة :الاسم، والكُنْية، واللقب.

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الناس المحيطون بالإنسان، إما يدل على الرفعة تفاؤلاً بأنه سيكون له شأن، أو يدل على الضِّعَة كإسم شهرة تبعا لحرفته ، أو خوفا من الحسد .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عَزَّ وَجَلَّ، وطبيعي أنْ يأتي لقبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُشْعِراً برفعة أيما رفعة، فهي ليست عند الخلق فحسب، إنما رفعةَ عند الخالق، فلما وَلِد رسول الله أسماه جده بأحب الأسماء عنده، وقال :سمَّيْته محمداً ليُحمد في الأرض وفي السماء.

ولما وُلِد القاسم كُنِّي به رسول الله فقيل :أبو القاسم، فلما اختاره الله للرسالة وللسفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقّبه برسول الله وبالنبي، وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من البشر، فما بالك وهي من عند الله، فأنت حين تضع المقاييس تضعها على قَدْر معرفتك وإمكاناتك.

فرسول الله ﷺ هو رسول الله ونبي الله بمقاييس الله، فهو إذن مُشرّف عندكم، مُشرَّف عند مَنْ أرسله و (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...) الأنعام: ١٢٤

فأحبُّ شيء في الإعلام برسول الله أن نقول :محمد، أو أبو القاسم، أو رسول الله، أو النبي، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً، فلم يقُلْ يا محمد، إنما بلقبه الذي يُشعر برفعته عند الحق سبحانه،فقال في ندائه :{ياأيها النبي ... } الأنفال: ٦٥،{ياأيها الرسول ... } المائدة: ٤١

ولو تتبعت نداء الله للرسل من لَدُنْ آدم عليه السلام لا تجد رسولاً نُودِي بغير اسمه إلا محمد ﷺ. أما لفظ (محمد) فقد ورد في القرآن، لكن في غير النداء، ورد على سبيل الإخبار بأن محمداً رسول الله.

وحتى في الإخبار عنه ﷺ أخبر الله عنه بلقبه :{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} التوبة: ١٢٨وقال :{وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً} الفرقان: ٣٠

إذن :في النداء استقل بيا أيها النبي، ويا أيها الرسول، أما في الإخبار فلا بُدَّ أنْ يذكر اسمه (محمد رسول الله) ، وإلا فكيف يعرف أنه رسول الله؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسمّى.ونُودِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيأيها النبي، ويأيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم مَنْ ننادي نسبق الاسم بمقدمات، نقول :يا سيدي فلان، يا فضيلة الشيخ، يا صاحب العزة. . الخ.

والحق سبحانه نادى رسوله بيأيها النبي، ويأيها الرسول، الرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه؛ ليُبلغهم منهجه الذي يريد أنْ تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ، أما النبي فمُرْسَل أيضاً من قِبلَ الحق سبحانه، لكن ليس معه شرع جديد، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل، أما فهو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه.

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً، فهو نبي ورسول له خصوصيات أُمِر بها، ولم يُؤْمَر بتبليغها ـ وهذه مسائل خاصة بالنبوة ـ وله أمور أخرى أُمِر بها، وأُمِر بتبليغها.

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول بالمعنى الاصطلاحي، وإلا فَهُم جميعاً مُرْسَلون من قِبَل الله تعالي.

وكلمة (النبي) مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام، فالخبر يكون من البشر للبشر، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ أي:أمر عظيم ينبغي الاهتمام به، وأصله من النَّبوَة، وهي الشيء العالي المستدير في وسط شيء مسْتَوٍ.] إنتهي [٣٩]

ولنا مع هذه الخصيصة وقفتان:

الوقفة الأولي : أن هذه الخصيصة يجب أن تكون مبعث فخار وعزة للمسلمين بالمكانة الخاصة لنبيهم ، وفي نفس الوقت هي دعوة لغير المسلمين بمراجعة أنفسهم ، رغم أننا لانفرق بين أحد من رسل الله ولكن الله فضل بعض النبيين وبعض الرسل كما قال سبحانه في سورة البقرة {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّـهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} ﴿ ٢٥٣﴾ وقوله تعالي في سورة الإسراء {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} ﴿٥٥﴾

الوقفة الثانية : إذا كان من تفضيل الله عز وجل لنبينا عدم مناداته بإسمه مجردا كباقي الأنبياء ، فمن باب أولي أن نلتزم نحن بهذا الأدب مع رسول الله صلي الله عليه وسلم وألا نجعل حديثنا عنه كالحديث عن آحاد الناس وذلك عملا بقول الله تعالي في سورة النور (لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّـهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾وقوله تعالي في سورة الحجرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

[٣٩] تفسير الشعراوي

الفصل الثاني

النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم

يقول الله عز وجل في سورة الأحزاب{النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّـهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا }(٦)

هذه الآية هي ارتقاءات في مجال الإحسان إلى النفس، ثم إلى الغير، فالإنسان أولاً يُحسن إلى نفسه، ثم إلى القرابة القريبة، ثم القرابة البعيدة، ثم على الأباعد؛ لذلك يقول ﷺ :"ابدأ بنفسك، ثم بمَنْ تعول". [٤٠]

ويقولون :أوطان الناس تختلف باختلاف هِمَمها، فرجل وطنه نفسه، فيرى كل شيء لنفسه، ولا يرى نفسه لأحد، ورجل وطنه أبناؤه وأهله، ورجل يتعدَّى الأصول إلى الفروع، ورجل وطنه بلده أو قريته، ورجل وطنه العالم كله والإنسانية كلها.فرسول الله ﷺ تعدَّى خيره إلى الإنسانية كلها على وجه العموم، والمؤمنين على وجه الخصوص

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية [قَوْلُهُ تَعَالَى: {النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} هَذِهِ الْآيَةُ أَزَالَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا أَحْكَامًا كَانَتْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، مِنْهَا :أَنَّهُ ﷺ كان لا يصلي على ميت عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ قَالَ :(أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ تُوُفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ) أَخْرَجَهُ الصَّحِيحَانِ [٤١]. وَفِيهِمَا أَيْضًا (فَأَيُّكُمْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَأَنَا مَوْلَاهُ) [٤٢]

ثم قال :قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ :وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ هُوَ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّ أَنْفُسَهُمْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى النَّجَاةِ .قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ :وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) :أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا تَقَحُّمَ الْفَرَاش .قُلْتُ :هَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ فِي مَعْنَى الْآيَةِ وَتَفْسِيرِهَا، وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذُكِرَ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ) .وَعَنْ جَابِرٍ مِثْلُهُ، وَقَالَ:(وَأَنْتُمْ تُفْلِتُونَ مِنْ يَدَيَّ)

ثم قال (وَقِيلَ :أَوْلَى بِهِمْ أَيْ أَنَّهُ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ وَدَعَتِ النَّفْسُ إِلَى غَيْرِهِ كَانَ أَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى. وَقِيلَ أَوْلَى بِهِمْ أَيْ هُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَحْكُمَ

---

[٤٠] صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم (١٤٢٦) ، كتاب النفقات رقم (٥٣٢٥)

٤١ صحيح البخاري كتاب الكفالة ، باب الدين ، رقم (٢٢٩٨) – صحيح مسلم كتاب الفرائض رقم (١٦١٩)

٤٢ صحيح البخاري كتاب في الإستقراض باب الصلاة علي من ترك دينا رقم (٢٣٩٩)

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَيُنَفَّذُ حُكْمُهُ فِي أَنْفُسِهِمْ، أَيْ فِيمَا يَحْكُمُونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ مِمَّا يُخَالِفُ حُكْمَهُ.][٤٣] إنتهي

وفي تفسير إبن كثير [قد علم الله تعالى شفقة رسوله عَلَى أُمَّتِهِ وَنُصْحَهُ لَهُمْ، فَجَعَلَهُ أَوْلَى بِهِمْ من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مُقَدَّمًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً] النِّسَاء:٦٥

وَفِي الصَّحِيح " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِه وَوَلَدِهِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ" [٤٤] وَفِي الصَّحِيح أَيْضًا أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نفسي، فقال ﷺ "لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبُّ إِلَيْكَ من نفسك" فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ ﷺ» الْآنَ يَا عُمَرُ" [٤٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ {النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}.] [٤٦] أنتهي

وأقوال المفسرون في تفسير هذه الجزئية من الآية ينحصر في ثلاثة أقوال:

أن النبي ﷺ أولي بسداد دين من مات من المسلمين وعليه ديون

أن النبي ﷺ أولي بطاعة المسلمين له وإنفاذ حكمه من سواه ممن له حكم عليهم

أن المؤمن لايكتمل إيمانه حتي يكون النبي أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين

وفي الجزئية الثانية من الآية ، كرم الله تعالي نبيه الكريم بجعل أزواجه كأمهات المؤمنين حفظا لهم وتشريفا وفي ذلك يقول الإمام القرطبي في تفسيره قوله تعالى:{وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ} :[شَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى أَزْوَاجَ نَبِيِّهِ ﷺ بِأَنْ جَعَلَهُنَّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْ فِي وُجُوبِ التَّعْظِيمِ وَالْمَبَرَّةِ وَالْإِجْلَالِ وَحُرْمَةِ النِّكَاحِ عَلَى الرِّجَالِ، وَحَجْبِهِنَّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُنَّ بِخِلَافِ الْأُمَّهَاتِ .وَقِيلَ :لَمَّا كَانَتْ شَفَقَتُهُنَّ عَلَيْهِمْ كَشَفَقَةِ الْأُمَّهَاتِ أُنْزِلْن بمنزلة الأمهات.] [٤٧] إنتهي

---

٤٣ تفسير القرطبي – تفسير سورة الأحزاب

٤٤ صحيح البخاري برقم (١٤)

٤٥ صحيح البخاري برقم (٦٦٣٢)

٤٦ تفسير إبن كثير – تفسير سورة الأحزاب

٤٧ تفسير القرطبي

وقد أكد الله تعالي هذا المعني في نفس سورة الأحزاب بقوله تعالي {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّـهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّـهِ عَظِيمًا} (٥٣) .

وفي تفسير هذه الآية قال القرطبي : [يُرْوَى أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ حِينَ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ سَلَمَةَ بَعْدَ أَبِي سَلَمَةَ، وَحَفْصَةَ بَعْدَ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ :مَا بَالُ مُحَمَّدٍ يَتَزَوَّجُ نِسَاءَنَا! وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ لَأَجَلْنَا السِّهَامَ عَلَى نِسَائِهِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي هَذَا، فَحَرَّمَ اللَّهُ نِكَاحَ أَزْوَاجِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَجَعَلَ لَهُنَّ حُكْمَ الْأُمَّهَاتِ. وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ تَمْيِيزًا لِشَرَفِهِ وَتَنْبِيهًا عَلَى مَرْتَبَتِهِ ﷺ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :وَأَزْوَاجُهُ ﷺ اللَّاتِي مَاتَ عَنْهُنَّ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ نِكَاحُهُنَّ، وَمَنِ اسْتَحَلَّ ذَلِكَ كَانَ كَافِرًا،لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً} .

وَقَدْ قِيلَ :إِنَّمَا مُنِعَ مِنَ التَّزَوُّجِ بِزَوْجَاتِهِ، لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ فِي الْجَنَّةِ لِآخِرِ أَزْوَاجِهَا .قَالَ حُذَيْفَةُ لِامْرَأَتِهِ :إِنْ سَرَّكِ أَنْ تَكُونِي زَوْجَتِي فِي الْجَنَّةِ إِنْ جَمَعَنَا اللَّهُ فِيهَا فَلَا تَزَوَّجِي مِنْ بَعْدِي، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لِآخِرِ أَزْوَاجِهَا.

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، هَلْ بَقِينَ أَزْوَاجًا أَمْ زَالَ النِّكَاحُ بِالْمَوْتِ، وَإِذَا زَالَ النِّكَاحُ بِالْمَوْتِ فَهَلْ عَلَيْهِنَّ عِدَّةٌ أَمْ لَا؟ فَقِيلَ :عَلَيْهِنَّ الْعِدَّةُ، لِأَنَّهُ تُوُفِّيَ عَنْهُنَّ، وَالْعِدَّةُ عِبَادَةٌ .وَقِيلَ :لَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ، لِأَنَّهَا مُدَّةُ تَرَبُّصٍ لَا يُنْتَظَرُ بِهَا الْإِبَاحَةُ. وَهُوَ الصَّحِيحُ، لِقَوْلِهِ ﷺ :(مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةَ عِيَالِي (وَرُوِيَ) أَهْلِي (وَهَذَا اسْمٌ خَاصٌّ بِالزَّوْجِيَّةِ)، فَأَبْقَى عَلَيْهِنَّ النَّفَقَةَ وَالسُّكْنَى مُدَّةَ حَيَاتِهِنَّ لِكَوْنِهِنَّ نِسَاءَهُ، وَحُرِّمْنَ عَلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى بَقَاءِ النِّكَاحِ. وَإِنَّمَا جُعِلَ الْمَوْتُ فِي حَقِّهِ ﷺ لَهُنَّ بِمَنْزِلَةِ الْمُغَيَّبِ فِي حَقِّ غَيْرِهِ، لِكَوْنِهِنَّ أَزْوَاجًا لَهُ فِي الْآخِرَةِ قطعا بخلاف سائر النَّاسِ، لِأَنَّ الرَّجُلَ لَا يُعْلَمُ كَوْنُهُ مَعَ أَهْلِهِ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ، فَرُبَّمَا كَانَ أَحَدُهُمَا فِي الْجَنَّةِ وَالْآخَرُ فِي النَّارِ، فَبِهَذَا انْقَطَعَ السَّبَبُ فِي حَقِّ الْخَلْقِ وَبَقِيَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَالَ ﷺ (زَوْجَاتِي فِي الدُّنْيَا هُنَّ زَوْجَاتِي فِي الْآخِرَةِ).وَقَالَ (كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ يَنْقَطِعُ إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي فَإِنَّهُ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

فَأَمَّا زَوْجَاتُهُ ﷺاللَّاتِي فَارَقَهُنَّ فِي حَيَاتِهِ مِثْلُ الْكَلْبِيَّةِ وَغَيْرِهَا، فَهَلْ كَانَ يَحِلُّ لِغَيْرِهِ نِكَاحُهُنَّ؟ فِيهِ خِلَافٌ. وَالصَّحِيحُ جَوَازُ ذَلِكَ، لِمَا رُوِيَ أَنَّ الكلبية الَّتِي فَارَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺتَزَوَّجَهَا عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .وَقِيلَ :إِنَّ الَّذِي تَزَوَّجَهَا الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ الْكِنْدِيُّ .قَالَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ :الَّذِي تَزَوَّجَهَا مُهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ أَحَدٌ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إجماع.] أنتهي [٤٨]

---

٤٨ نفس المصدر السابق

الفصل الثالث

نصر النبي ﷺ بالريح وبالرعب

يقول الله تعالى في سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً(9) }

يقول الإمام القرطبي [{فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحا} قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الصَّبَا، أُرْسِلَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَلْقَتْ قُدُورَهُمْ وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ .) فَكَانَتْ الرِّيحُ الَّتِي أُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الصَّبَا .وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :(نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ) . وَكَانَتْ هَذِهِ الريح معجزة للنبي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

{وجنودا لم تروها} : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ :بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَقَلَعَتِ الْأَوْتَادَ، وَقَطَعَتْ أَطْنَابَ الْفَسَاطِيطِ، وَأَطْفَأَتِ النِّيرَانَ، وَأَكْفَأَتِ الْقُدُورَ، وَجَالَتِ الْخَيْلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرُّعْبَ، وَكَثُرَ تَكْبِيرُ الْمَلَائِكَةِ فِي جَوَانِبِ الْعَسْكَرِ.] إنتهي [٤٩]

وفي الحديث المتفق عليه جمع رسول الله ﷺ خمس من خصائصه أولها نصرت بالرعب ففي صحيح الإمام البخاري بسنده قال خْبَرَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ(أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [٥٠]

ومعني (نصرت بالرعب) أن اللهَ عز و جل قد ألقى في قلوب الذين كفروا الرُّعب عند منازلتهم المُسلِمين، وكان المُسلِمون دائمًا في مقام المدافع عن الحقّ، وكان الكُفَّار دائمًا في مقام البغي والعدوان والاستطالة الظَّالمة الغاشمة! فكان هذا الرُّعب من الأسباب القدريَّة التي هيَّأها الله جلَّ وعلا لنصرة نبيّه ﷺ، وقد ذكرت هذه الكلمة في القرآن ثلاث مرات:

مرةً بعد هزيمة المُسلِمين في أُحُد نزلت هذه الآية:{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} آل عمران: ١٥١، وهزيمة أُحد كانت في أعقاب خروج المشركين من مكة، وشنّهم الهجوم على الإسلام وأمته في المدينة.

وقد استطاع المشركون إيقاع خسائرجسيمة بالمدافعين عن الدّين وموطنه الجديد، مما ترك آثارًا سيّئةً في النفوس، فأراد اللهُ أن يُواسي جراحهم، وأن

---

٤٩ تفسير القرطبي – تفسير سورة الأحزاب

٥٠ صحيح البخاري – كتاب التيمم حديث رقم ٣٣٥

يشعروا أن القتال القادم سيكون لمصلحتهم، وأنه سيقذف الرُّعب في قلوب المعتدين عندما يُكرِّرون هجومهم.
والـمَرَّة الثَّانية عندما خان يهودُ بني النضير عهدهم، وحاولوا قتلَ النَّبيّ ﷺ، فجرَّد عليهم حملةً ليؤدِّبهم، ولكن القوم دون قتالٍ حلَّ بهم الفزع دون قتال وقرَّروا الجلاء عن المدينة: (مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر: ٢
وأخيرًا ذكرت هذه الكلمة عندما انضمَّ يهودُ بني قُرَيظة إلى الأحزاب التي أحاطت بالمدينة تبغي دكَّها على من فيها، وأعلنت حصارًا رهيبًا عليها، وكان بنو قُرَيظة قد أعطوا العهد من قبل على أن يعيشوا مع الـمُسلِمين في سلامٍ شريف، واعترف رئيسهم أنه لم يجد من النَّبيّ إلا خيرًا، ومع ذلك فقد انتهز الفرصة التي سنحت وأعلن الحرب الغادرة، وظنَّ أنه سيُقاسم المشركين الغنائم بعد الإجهاز على محمدٍ وصحابته.
ولكن قدر الله كان أغلب، لقد فضَّ اللهُ جموعَ المُحاصِرين قبل المنازلة، ولله مطلق القدرة { وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا }الأحزاب: ٢٦
وقوله تعالي {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب} الأحزاب: ٢٦ أي: الخوف وهو جندي من جنود الله، وهذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الكافرين هو الذي فرَّقهم، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} المنافقون: ٤
وقد ثبت في كتب السيرة عن بعض صحابة رسول الله ﷺ ، أنهم كانوا يستعملون السواك، فظن الكفار أنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم، هذا هو الرعب الذي نصر الله به عباده المؤمنين.
وظاهرُ هذا الحديث يفيد أنّ فضيلةَ النّصرةِ بالرّعبِ عامّةٌ في النّبيّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلّم، إذ كلّما توجّه ﷺ إلى عدوٍ ملأ اللهُ قلوبَهم رعبًا شديدًا وخوفًا وهَلَعًا مِن مَقْدَمِه عليهم، كما تعمّ هذه الفضيلةُ سائرَ مَن اتّبع هديَه وسار على نهجِه بأنْ حقّق الإسلامَ وصحّح العقيدةَ وقام بالشّريعةِ، وسَلِمَتْ سريرتُه مِنَ الدَّغَلِ والدَّخَنِ، وسيرتُه مِنَ الاضطرابِ والاعوجاجِ،

فإنّ الرّعبَ باقٍ في نفوسِ أعداءِ الإسلامِ، والملاحَظُ أنّه بالرَّغمِ مِنْ ضعفِ المسلمين في هذا الزّمانِ إلاّ أنّ الكفّارَ في جملتِهم مرعوبون منهم ومِن عودةِ الإسلامِ، لذلك يحدث منهم الهجومُ الشَّرِسُ على المسلمين بمختلفِ الوسائلِ قصْدَ إبعادِهم عن دينِهم بأيديهم وأيدي بني جلدتِنا، كلُّ ذلك خوفًا ورعبًا مِنَ التّمكينِ للإسلامِ فتتزلزلُ أقدامُهم، قال تعالى :{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} آل عمران: ١٥١.

وبث الرعب.. هو من أخطر نظريات الحروب ، وكانت تمارس قديمًا بأساليب مختلفة؛ مثل لبس جلود الوحوش ونشر الإشاعات المرعبة. كما كانت تمارس بأشد وأفظع الأساليب مثل التمثيل بالجثث وحرق الأحياء وبقر بطون النساء.

أما في حروب الإسلام كانت نظرية الرعب أكمل صيغ الرحمة و ذلك لأن الرعب يكون بقذفه في قلوب الأعداء قبل الشروع في القتال ولا يكون بالأساليب المشار إليها والمعروفة في الحروب الكافرة. وفي ذلك رحمة!!لأن حدوث الرعب قبل الحرب يكون مانعًا للأعداء من الدخول في القتال أصلا بما يترتب على ذلك من تجنب كل آثار الحروب.. وفي ذلك رحمة!!

ومن هنا كان قول الرسول ﷺ :"نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ" [٥١] ولم يقل قاتلت بالرعب؛ لأن الرعب هو الذي يمنع الاقتتال الذي يموت به الناس على الجهل والكفر، وقول رسول الله ﷺ "مسيرة شهر" وهي المدة الكافية لأن يأتي المسلمون إلى هؤلاء الناس وهم عاجزون عن الوقوف أمام المقاتل المسلم؛ فيؤثرون السلامة ليكون النصر بأقل خسائر إنسانية.. وفي ذلك رحمة!!

وقذف الرعب في الحرب يكون باستحقاق الطرف المسلم لأن يقذف الله في قلوب أعدائه المهابة منه بتقواه وحفظه للدين فإن تخلي عن ذلك نزع الله المهابة من قلوب أعدائه منه كما في حديث ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأُكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا». قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهَنُ؟

---

٥١ صحيح البخاري (٣٣٥)

قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ.[٥٢] والغثاء: ما يحمله السيل من زبد ووسخ.
أما استحقاق الطرف الكافر للرعب فيكون بشركه بالله. ومن هنا جاء في البخاري باب قَوْلِ النبي ﷺ :"نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ" وَقَوْلِهِ عز وَجل {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ} آل عمران:١٥١.. وقول الله :{لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} الحشر: ١٣.
وتبقي العبرة هي الموقف الذي يمارسه من ينتصر.. ليكون التعامل الإنساني للمسلمين المنتصرين بالعدل والرحمة مع أعدائهم حيث لا ينشأ عن الرعب الذي يقذفه الله في قلوب المحاربين للإسلام أي استكبار من المسلمين عليهم أو أي ظلم لهم بل سيكونون في غاية الرأفة بهم، والحرص عليهم؛ فينقلب الرعب منهم إلى طمأنينة لهم وإلى دعوتهم.
وهنا يظهر المعنى الإنساني للإسلام: أن يترفق وهو قادر، ويتودد وهو غالب. وهاهو رسول الله ﷺ يفتح مكة فيدخلها ساجدا لله على ناقته.. ثم يعفو ويقول: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" [٥٣]. فكان التحول إلى التفكير في الدعوة وتدبر قضاياها بعد أن أصبح الرعب مجرد ضرورة عارضة تمكن بها المسلمون من النصر ليملكوا فرصة التعامل بالرحمة والعدل... والإسلام.

٥٢ مسند أحمد (٢٩/٤٩)
٥٣ سنن البيهقي (١٨٠٥٥)

الفصل الرابع

زوجات النبي ﷺ

وهذه الخصيصة تتضمن ثلاث خصائص إختص الله تعالي بها نبيه عن سائر أمته ، أولها ماأختص الله تعالي به نبيه في الجمع بين أكثر من أربع دون سائر رجال أمته صلي الله عليه وسلم ، وفيها أيضا خصائص لزوجاته صلي الله عليه وسلم دون سائر نساء المؤمنين كما وردت في أقوال المفسرين .
وفيها ايضا نص صريح علي ان نساء النبي لسن كأحد من النساء في حال الإحسان والتقوي ، ويضاعف لهن العذاب عند إرتكاب الإثم وهذا من باب التعظيم والتكريم لأنه يمتنع في حقهن الإثم

وقد ورد ذكر زوجات النبي ﷺ في سورة الأحزاب في قوله تعالي :{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31) }

وهذه الآية تسمي آية التخيير لأنها تتضمن أمر من الله تبارك وتعالي لرسوله ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ فَيَذْهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَحْصُلُ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى فِي ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، فَاخْتَرْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، فَجَمَعَ الله تعالى لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ خَيْرِي الدُّنْيَا والآخرة.

وقد وردت تسمية هذه الآيه بهذا الإسم في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت (أُنْزِلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ، فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ).

وقد أفتتحت هذه الآية بالنداء الخاص بالنبي {يا أيها النبي } للدلالة علي أن زوجات النبي من خصوصياته ، وأكثر المفسرون ذكروا عند تفسير هذه الآية أسماء زوجات النبي اللاتي مات عنهن .

وقال إبن كثير في تفسيره](قَالَ عِكْرِمَةُ :وَكَانَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ: خَمْسٌ مِنْ قُرَيْشٍ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن، وَكَانَتْ تَحْتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَفِيَّةُ بنت حيي النضيرية وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْهِلَالِيَّةُ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةُ، وَجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ، رَضِيَ اللَّهُ عنهن وأرضاهن جميعا.)

ثم قال (وَلَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَبَقِيَتْ مَعَهُ إِلَى أَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ فَآمَنَتْ بِهِ وَنَصَرَتْهُ، وَكَانَتْ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ، وَمَاتَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي الْأَصَحِّ، وَلَهَا خَصَائِصُ مِنْهَا:أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، وَمِنْهَا أَنَّ أَوْلَادَهُ كُلَّهُمْ مِنْهَا، إِلَّا إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ مِنْ سُرِّيَّتِهِ مَارِيَةَ، وَمِنْهَا أَنَّهَا خَيْرُ نساء الأمة. وَاخْتُلِفَ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى عَائِشَةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، ثَالِثُهَا الْوَقْفُ.

وَسُئِلَ شَيْخُنَا أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَّةَ عَنْهُمَا فَقَالَ :اخْتُصَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِخَاصِّيَّةٍ، فَخَدِيجَةُ كَانَ تَأْثِيرُهَا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تُسَلِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَتُثَبِّتُهُ، وَتُسَكِّنُهُ، وَتَبْذُلُ دُونَهُ مَالَهَا، فَأَدْرَكَتْ غُرَّةَ الْإِسْلَامِ، وَاحْتَمَلَتِ الْأَذَى فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ وَكَانَ نُصْرَتُهَا لِلرَّسُولِ فِي أَعْظَمِ أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ، فَلَهَا مِنَ النُّصْرَةِ وَالْبَذْلِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا. وَعَائِشَةُ تَأْثِيرُهَا فِي آخِرِ الْإِسْلَامِ، فَلَهَا مِنَ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى الْأُمَّةِ، وَانْتِفَاعِ بَنِيهَا بِمَا أَدَّتْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ، مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا. هَذَا مَعْنَى كَلَامِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، بَعَثَ إِلَيْهَا السَّلَامَ مَعَ جِبْرِيلَ، فَبَلَّغَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ. رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : (أَتَى جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ، قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شراب، فإذا هي أتتك فأقرأها السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ، مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ) [٥٤] وَهَذِهِ لعَمْرِ اللَّهِ خَاصَّةٌ، لَمْ تَكُنْ لِسِوَاهَا.

وَأَمَّا عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَإِنَّ جِبْرِيلَ سلَّم عَلَيْهَا عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا" :يَا عَائِشَةُ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ ."فَقُلْتُ :وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا أَرَى، تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [٥٥] .

وَمَنْ خَوَاصِّ خديجة، رضي الله عنها:أنه لم تسوءه قَطُّ، وَلَمْ تُغَاضِبْهُ، وَلَمْ يَتَلْهَا مِنْهُ إِيلَاءٌ، وَلَا عُتْبٌ قَطُّ، وَلَا هَجْرٌ، وَكَفَى بِهَذِهِ مَنْقَبَةً وَفَضِيلَةً.وَمِنْ خَوَاصِّهَا :أَنَّهَا أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فلمَّا تَوَفَّاهَا اللَّهُ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

٥٤ صحيح البخاري برقم (٣٨٢٠)

٥٥ صحيح البخاري رقم (٦٢٤٩)

وَهِيَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ وُدِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَبَلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيّ، وَكَبُرَتْ عِنْدَهُ، وَأَرَادَ طَلَاقَهَا فَوَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ، فَأَمْسَكَهَا.وَهَذَا مِنْ خَوَاصِّهَا :أَنَّهَا آثَرَتْ بِيَوْمِهَا حُبَّ النَّبِيِّ ﷺ تَقَرُّبًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحُبًّا لَهُ، وَإِيثَارًا لِمَقَامِهَا مَعَهُ، فَكَانَ يَقْسِمُ لِعَائِشَةَ يَوْمَهَا وَيَوْمَ سَوْدَةَ، وَيَقْسِمُ لِنِسَائِهِ، وَلَا يَقْسِمُ لَهَا وَهِيَ رَاضِيَةٌ بِذَلِكَ مُؤْثِرَةٌ، لِتُرْضِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

وَتَزَوَّجَ الصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَتَيْنِ،وَقِيلَ :بِثَلَاثٍ، وَبَنَى بِهَا بِالْمَدِينَةِ أَوَّلَ مَقْدَمِهِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى، وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانِ عَشْرَةَ، وَتُوُفِّيَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ، وَأَوْصَتْ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهَا أَبُو هُرَيْرَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ، وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّهَا كَانَتْ أَحَبَّ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْهُ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ :"عَائِشَةُ". قِيلَ :فَمِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ :"أَبُوهَا "[٥٦].

وَمِنْ خَصَائِصِهَا أَيْضًا :أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا، وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّهُ كان ينزل عليه الوحي وهو في لحافها دُونَ غَيْرِهَا. وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، لَمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةَ التَّخْيِيرِ بَدَأَ بِهَا فَخَيَّرَهَا، فَقَالَ :"وَلَا عَلَيْكِ أَلَّا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ" .فَقَالَتْ :أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أبويَّ، فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ. فَاسْتَنَّ بِهَا بَقِيَّةُ أَزْوَاجِهِ ﷺ، وَقُلْنَ كَمَا قَالَتْ.

وَمِنْ خَصَائِصِهَا : أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، بَرَّأَهَا مِمَّا رَمَاهَا بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ، وَأَنْزَلَ فِي عُذْرِهَا، وَبَرَاءَتِهَا، وَحْيًا يُتْلَى فِي مَحَارِيبِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَوَاتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَشَهِدَ لَهَا أَنَّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَوَعَدَهَا الْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ، أَنَّ مَا قِيلَ فِيهَا مِنَ الْإِفْكِ كَانَ خَيْرًا لَهَا، وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الَّذِي قِيلَ فِيهَا شَرٌّ لَهَا، وَلَا عَيْبٌ لَهَا، وَلَا خَافِضٌ مِنْ شَأْنِهَا، بَلْ رَفَعَهَا اللَّهُ بِذَلِكَ، وَأَعْلَى قَدْرَهَا وَعَظَّمَ شَأْنَهَا، وَأَصَارَ لَهَا ذِكْرًا بِالطِّيبِ وَالْبَرَاءَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَيَا لَهَا مِنْ مَنْقَبَةٍ مَا أَجَلَّهَا. وَتَأَمَّلْ هَذَا التَّشْرِيفَ وَالْإِكْرَامَ النَّاشِئَ عَنْ فَرْطِ تَوَاضُعِهَا وَاسْتِصْغَارِهَا لِنَفْسِهَا، حَيْثُ قَالَتْ :وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فَيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَهَذِهِ صِدِّيقَةُ الْأُمَّةِ، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَحِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّهَا بَرِيئَةٌ مَظْلُومَةٌ، وَأَنَّ قَاذِفِيهَا ظَالِمُونَ مُفْتَرُونَ عَلَيْهَا، قَدْ بَلَغَ أَذَاهُمْ إِلَى أَبَوَيْهَا، وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا كَانَ احْتِقَارَهَا لِنَفْسِهَا وَتَصْغِيرَهَا لِشَأْنِهَا، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ قَدْ صَامَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، أَوْ

---

٥٦ سنن الترمذي برقم (٣٨٧٩) من حديث عمرو بن العاص، رضي الله عنه

شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ، قَدْ قَامَ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَظَهَرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَلَاحَظُوا أَنْفُسَهُمْ بِعَيْنِ اسْتِحْقَاقِ الْكَرَامَاتِ، وَأَنَّهُمْ مِمَّنْ يُتَبَرَّكُ بِلِقَائِهِمْ، ويُغتنم بِصَالِحِ دُعَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَجِبُ عَلَى النَّاسِ احْتِرَامُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ وَتَعْزِيزُهُمْ وَتَوْقِيرُهُمْ، فَيُتَمَسَّحُ بِأَثْوَابِهِمْ، وَيُقَبَّلُ ثَرَى أَعتَابِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ بِالْمَكَانَةِ الَّتِي تَنْتَقِمُ لأجْلِهَا مَنْ تَنَقَّصَهُمْ فِي الْحَالِ، وَأَنْ يُؤْخَذَ مَنْ أَسَاءَ الْأَدَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ، وَإِنَّ إِسَاءَةَ الْأَدَبِ عَلَيْهِمْ ذَنْبٌ لَا يُكَفِّرُهُ شَيْءٌ إِلَّا رِضَاهُمْ.

وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ لَهَانَ، وَلَكِنَّ مِنْ وَرَاءِ تَخَلُّفٍ، وَهَذِهِ الْحَمَاقَاتُ وَالرُّعُونَاتُ نِتَاجُ الْجَهْلِ الصَّمِيمِ، وَالْعَقْلِ غَيْرِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَصْدُرُ مِنْ جَاهِلٍ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ، غَافِلٍ عَنْ جُرْمِهِ وَعُيُوبِهِ وَذُنُوبِهِ، مُغْتَرٍّ بِإِمْهَالِ اللَّهِ لَهُ عَنْ أَخْذِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكِبْرِ وَالِازْدِرَاءِ عَلَى مَنْ لَعَلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ نَفْسِهِ عَظِيمًا، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَقِيرٌ،

وَمِنْ خَصَائِصِ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :أَنَّ الْأَكَابِرَ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَانَ إِذَا أَشْكَلَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ، اسْتَفْتَوْهَا فَيَجِدُونَ عِلْمَهُ عِنْدَهَا.

وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أن رسول الله ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِهَا .وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّ الْمَلَكَ أَرَى صُورَتَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺقَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فِي خِرْقَةِ حَرِيرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :"إِنَّ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ"[٥٧]

وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ هَدَايَاهُمْ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقَرُّبًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَيُتْحِفُونَهُ بِمَا يُحِبُّ فِي مَنْزِلِ أَحَبِّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَتُكَنَّى أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ، وَرُوِيَ أَنَّهَا أَسْقَطَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺسَقْطًا، وَلَا يَثْبُتُ ذَلِكَ.

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ حُبَيْشِ بْنِ حُذَافَةَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، تُوُفِّيَتْ سَنَةَ سَبْعٍ، وَقِيلَ :ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ، وَمِنْ خَوَاصِّهَا:مَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَقْدِسِيُّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي السِّيرَةِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَلَّقَهَا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ وَإِنَّهَا زَوْجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ :حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ طَاهِرِ بْنِ حَرْمَلَةَ بْنِ يَحْيَى، حَدَّثَنَا جَدِّي حَرْمَلَةُ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ صَالِحٍ الْحَضْرَمِيُّ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَوَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ :مَا يَعْبَأُ

٥٧ رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

اللَّهُ بِابْنِ الْخَطَّابِ بَعْدَ هَذَا. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ رَحْمَةً لِعُمَرَ .[٥٨]

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، وَاسْمُهَا رَمْلَةُ بِنْتُ صَخْرِ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، هَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَتَنَصَّرَ بِالْحَبَشَةِ، وَأَتَمَّ اللَّهُ لَهَا الْإِسْلَامَ، وَتَزَوَّجَهَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَأَصْدَقَهَا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَبَعَثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمْرُو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ بِهَا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَوَلَّى نِكَاحَهَا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، وَقِيلَ :خَالِدَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَهِيَ الَّتِي أَكْرَمَتْ فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِن يَجْلِسَ عَلَيْهِ أَبُوهَا لَمَّا قَدِمَ أَبُو سُفْيَانَ الْمَدِينَةَ، وَقَالَتْ لَهُ :إِنَّكَ مُشْرِكٌ، وَمَنَعَتْهُ الْجُلُوسَ عَلَيْهِ.

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ سَلَمَةَ وَاسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ خَصَائِصهَا :أَنَّ جِبْرِيلَ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَهِيَ عِنْدَهُ فَرَأَتْهُ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ .فَفِي مَخْزُومِ بْنِ يَقْظَةَ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ، تُوُفِّيَتْ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ، وَهِيَ آخِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مَوْتًا، وَقِيلَ :بَلْ مَيْمُونَةُ، وَمِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ :أُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ، فَقَالَ :فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ" :مَنْ هَذَا؟ " أَوْ كَمَا قَالَ .قَالَتْ :هَذَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ .قَالَتْ :وَايْمُ اللَّهِ، مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، يُخْبِرُ أَنَّهُ جِبْرِيلُ، أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ :فَقُلْتُ لِأَبِي عُثْمَانَ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ؟ قَالَ :مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ. [٥٩]

وزوَّجها ابْنُهَا-عُمَرُ-مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَرَدَّتْ طَائِفَةٌ ذَلِكَ بِأَنَّ ابْنَهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ السِّنِّ حِينَئِذٍ مَا يَعْقِدُ التَّزْوِيجَ، وَرَدَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ذَلِكَ، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ قَالَهُ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ أَحْمَدَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ-ابْنَهَا-سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْقُبْلَةِ لِلصَّائِمِ؟ فَقَالَ" :سَلْ هَذِهِ "يَعْنِي: أُمَّ سَلَمَةَ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُهُ، فَقَالَ:لَسْنَا كَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يُحِلُّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مَا شَاءَ .فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" :إِنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ"[٦٠] أَوْ كَمَا قَالَ.

---

٥٨ المعجم الكبير (٢٩١/١٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣٣٤/٤) : "فيه عمرو بن صالح الحضرمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات".

٥٩ صحيح مسلم برقم (٢٤٥١)

٦٠ صحيح مسلم برقم (١١٠٨)

وَمِثْلُ هَذَا لَا يُقَالُ لِصَغِيرٍ جِدًّا، وَعُمَرُ وُلِدَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ . وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ :وَقَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنه كان صغيرا، دَعْوَى وَلَمْ يَثْبُتْ صِغَرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ مِنْ بَنِي خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ، وَهِيَ بِنْتُ عَمَّتِهِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ قَبْلُ عِنْدِ مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَطَلَّقَهَا فَزَوَّجَهُ اللَّهُ إياها من فوق سبع سموات، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ:{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} فَقَامَ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِلَا اسْتِئْذَانٍ، وَكَانَتْ تَفْخَرُ بِذَلِكَ عَلَى سَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَقُولُ :"زوَّجكن أَهَالِيكُنَّ وزوَّجني الله من فوق سبع سمواته" ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهَا. تُوُفِّيَتْ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ عِشْرِينَ، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ.

وَتَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ الْهِلَالِيَّةَ، وَكَانَتْ تَحْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ، تَزَوَّجَهَا سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَكَانَتْ تُسَمَّى أَمَّ الْمَسَاكِينِ، وَلَمْ تَلْبَثْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا يَسِيرًا، شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، وَتُوُفِّيَتْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ ﷺ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَكَانَتْ سُبِيَتْ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَوَقَعَتْ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، فَكَاتَبَهَا، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابَتَهَا، وَتَزَوَّجَهَا سَنَةَ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَتُوُفِّيَتْ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ، وَهِيَ الَّتِي أَعْتَقَ الْمُسْلِمُونَ بِسَبَبِهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الرَّقِيقِ، وَقَالُوا:أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ بَرَكَتِهَا عَلَى قَوْمِهَا.

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيِّ، مِنْ وَلَدِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ أَخِي مُوسَى، سَنَةَ سَبْعٍ، فَإِنَّهَا سُبِيَتْ مِنْ خَيْبَرَ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ تَحْتَ كِنَانَةَ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، فَقَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، تُوُفِّيَتْ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ، وَقِيلَ :سَنَةَ خَمْسِينَ .وَمِنْ خَصَائِصِهَا :أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْتَقَهَا وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا .قَالَ أَنَسٌ :أَمْهَرَهَا نَفْسَهَا، وَصَارَ ذَلِكَ سُنَّةً لِلْأَمَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَجْعَلَ عِتْقَ جَارِيَتِهِ صَدَاقَهَا، وَتَصِيرُ زَوْجَتَهُ عَلَى مَنْصُوصِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

قَالَ التِّرْمِذِيُّ :بسنده ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ :بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: صَفِيَّةُ بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ :"مَا يُبْكِيكِ؟ "قَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي ابْنَةُ يَهُودِيٍّ .فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :"إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَبِمَا تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟ " ثُمَّ قَالَ: "اتَّقِ اللَّهَ يَا حَفْصَةُ." [٦١] قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

٦١ سنن الترمذي برقم (٣٨٩٤)

وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ الْهِلَالِيَّةَ، تَزَوَّجَهَا بِسَرَفَ وَهُوَ عَلَى تِسْعَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ، وَهِيَ آخِرُ مَنْ تَزَوَّجَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، تُوُفِّيَتْ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَهِيَ خَالَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَخَالَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَإِنَّ أُمَّهُ أُمُّ الْفَضْلِ بِنْتُ الْحَارِثِ وَهِيَ الَّتِي اخْتُلِفَ فِي نِكَاحِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا. هَلْ نَكَحَهَا حَلَالًا أَوْ مُحرمًا؟ وَالصَّحِيحُ إِنَّمَا تَزَوَّجَهَا حَلَالًا كَمَا قَالَ أَبُو رَافِعٍ الشَّفِيرُ فِي نِكَاحِهَا.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَقْدِسِيُّ وَغَيْرُهُ :وَعَقَدَ عَلَى سَبْعٍ وَلَمْ يَدْخُلْ بِهِنَّ، فَالصَّلَاةُ عَلَى أَزْوَاجِهِ تَابِعَةٌ لِاحْتِرَامِهِنَّ وَتَحْرِيمِهِنَّ عَلَى الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُنَّ نِسَاؤُهُ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ فَارَقَهَا فِي حَيَاتِهَا وَلَمْ يَدْخُلْ، لَا يَثْبُتُ لَهَا أَحْكَامُ زَوْجَاتِهِ اللَّاتِي دَخَلَ بِهِنَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليما.

وقوله تعالي {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا30) (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31) }

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا نِسَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّاتِي اخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُنَّ تَحْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَهُنَّ بِحُكْمِهِنَّ وَتَخْصِيصِهِنَّ دُونَ سَائِرِ النِّسَاءِ، بِأَنَّ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :وَهِيَ النُّشُوزُ وَسُوءُ الْخُلُقِ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الزُّمَر:٦٥، وَكَقَوْلِهِ :(وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الْأَنْعَام: ٨٨،{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}الزُّخْرُف:٨١، وقوله {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} الزُّمَر:٤، فَلَمَّا كَانَتْ محلَّتهن رَفِيعَةً، نَاسَبَ أَنْ يَجْعَلَ الذَّنْبَ لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُغْلَّظًا، صِيَانَةً لِجَنَابِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ الرَّفِيعِ؛ وَلِهَذَا قَالَ :{مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}.] [٦٢] إنتهي

، ولنا مع هذه الخصيصة ثلاث وقفات :

الوقفة الأولي : مع السيدة خديجة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين

أعداء الإسلام وأصحاب القلوب المريضه من المسلمين يتخذون من تعدد زوجات النبي ﷺ مدخلا للتشغيب علي الإسلام والطعن في سيرة النبي ﷺ وتصويره علي أنه رجل مزواج كلف بالنساء وحاشاه من ذلك ﷺ ، وجهل

٦٢ تفسير إبن كثير

بعض المسلمين بسيرة نبيهم يجعلهم لقمة سائغة في أفواه هؤلاء المتخرصون ، فيتزعزع الإيمان في قلوبهم بالباطل بينما المتأمل في سيرته صلي الله عليه وسلم في زواجه سيجد فيها مايرسخ به إيمانه وتصديقه .

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها هي اول زوجات النبي ﷺ ، وقد تزوجها وهو في الخامسة والعشرين من عمره قبل نزول الوحي وتكليفه بالرسالة بخمسة عشر عاما ، وكانت السيدة خديجة في الأربعين من عمرها أي تكبره بخمسة عشر عاما ، وكانت هذه هي زيجته التي تزوجها ككل الرجال قبل تكليفه بالرسالة بعد أن أعجبت السيدة خديجة بأمانته وحسن خلقه أثناء عمله في تجارة لها فضلا عن نسبه الشريف ، وهي السيدة ذات المال والحسب والنسب والعقل الراجح والتجربة السابقة من الزواج قبله ، وقد تم زواجه بها صلي الله عليه وسلم كأي زواج يتم لشاب في مثل سنه ، بعد بحث ودراسة عن من تناسبه ، والتقدم لأهلها لطلبها مع أصحاب الوجاهة من أهله مع إحتمالية القبول أو الرفض ، وهذا يختلف بقية عن زيجاته بعدها وكلها جاءت بعد موت خديجة رضي الله عنها وبعد تكليفه بالرسالة ولايسع كل من تزوجها بعد خديجه رضي الله عنها أنها ترفضه وهو رسول الله ﷺ.

زواجه من خديجة رضي الله عنها كان هو الزيجة الوحيدة له خارج إطار الدعوة والرساله ولكن في إطار مايسعي إليه أي رجل لتكون له زوجة ، يكون له معها بيت وأسره وأولاد ، يسكن إليها وتؤنسه وتساعده في شئون حياته الخاصة . أما بقية زيجاته كلها فكانت في إطار ماتتطلبه دعوته ورسالته والشأن العام للمسلمين .

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها أحب زوجاته إليه وقد إحتفظ بحبه لها والوفاء لها حتي بعد مماتها ، وهي كانت له نعم الزوجة ، فهي الوحيدة بقدر الله وحكمته التي أنجب منها الأولاد كدليل من أدلة أخري كثيرة لإسكات المرجفون والمتخرصون في الغرض من تعدد زوجاته . فقد حفظ الله تعالي لخديجة رضي الله عنها التفرد بالفضل في كونها هي الزوجة التي إختارها الرسول صلي الله عليه وسلم كرجل مثل باقي الرجال ، وقد إستأثرت بحبه وكانت أم ولده وأعظم مواقفها علي الإطلاق عندما نزل الوحي أول مرة وهو يتعبد في الغار ثم عاد إليها مذعورا ، خائفا ، مرتعشا لايدرك ماحدث له بحكم بشريته التي لم تتحمل رؤية أو سماع ملك من السماء .

لو أن رجل في زماننا بكل مستحدثاته من أجهزة ومعدات تفوق الخيال ، عاد إلي أهله بعد خلوة لكي يحدثهم بما حدث به رسول الله ﷺ خديجة من أول الوحي ، لا شك أنهم سيتهمونه بالكذب ويرمونه بالخلل العقلي أو الجنون .

السيدة خديجة رضي الله عنها تبدو وكأن الله تعالي إختارها لنبيه لهذه اللحظة الفارقة ، وقد ركب فيها كل مقومات الحكمة ورجاحة العقل وإكتمال الزوجيه من أجل هذه اللحظه الفريدة في عمر البشرية ، حين شملته بعطفها وحنانها وأظهرت له تصديقها لكل ما ألم به ، وذكرته بخصال الخير فيه وبمحامد صفاته ، ثم إنطلقت إلي قريب لها تثق في علمه وأمانته هو ورقة بن نوفل ، فأخذته له ليسمع منه أو قصت هي عليه ماسمعته من رسول الله فقال لها أنه سيكون نبي هذا الزمان ولو عاش لآمن به وبشره بمعاداة قومه له ومقاومة دعوته كمن سبقه من الأنبياء ،

لم تذهب إلي مشعوذ ، ولم تذهب لطلب العلاج من طبيب وإنما ذهبت لأهل العلم ، وهذا درس للمسلمين بصفة عامة وللنساء بصفة خاصة ، إزالة اللبس في أي مسألة أو خلاف لايكون إلا باللجوء لأهل العلم .

ويكتمل عقد الكمال الزوجي للسيدة خديجة عندما تمسكت بتصديقها وتأييدها ودعمها للرسول ﷺ في رسالته ودعوته للإسلام رغم سماعها من إبن عمها معاداة قومه له وإخراجهم له ، أتخيل لو أن إحدي نساء عصرنا في هذا الموقف لترددت ولقالت بلسان الحال إن لم تقل بلسان المقال (الله الغني ، مالنا ووجع الدماغ) ولطلبت من زوجها تجنب هذا الأمر الذي سيكون مصدرا للمتاعب وتحري السلامة والأمان .

لو أن الرسول ﷺ كان مزواجا او كلف بالنساء كما يزعم أصحاب القلوب المريضة لما أختار أول زوجاته ثيبا وأكبر منه بخمسة عشر عاما ، وانما الأولي أن يختار البكر الصغيرة التي تناسب سن الشباب.

السيدة خديجة رضي الله عنها هي الزوجة الوحيدة من زوجات الرسول ﷺ التي لم يتزوج عليها في حياتها رغم أنها تكبره بخمسة عشر عاما ولم يعدد زوجاته إلا بعد مماتها وهذا دليل نفي آخر لما يتخرص به المرجفون ، فقد ماتت السيدة خديجة رضي الله عنها في السنة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ من مكة إلي المدينة أي بعد ثلاثة عشرة سنة من البعثة ، كان عمر رسول الله ﷺ وقتها ثلاث وخمسون عاما وبالتالي يكون عمرها عند مماتها ثمانية وستون عاما ومع ذلك لم يتزوج عليها رسول الله ﷺ في حياتها .

كل هذه الفضائل لخديجة رضي الله عنها جعلت الرسول ﷺ يذكرها في أكثر من حديث صحيح وقد جمعها ﷺ في حديث مع مريم إبنة عمران التي ضربها الله مثلا في القرآن للذين آمنوا ، ففي صحيح البخاري بسنده عن عبد الله بن جعفر قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : (سمعت النبي ﷺ يقول : خير

نسائها مريم إبنة عمران وخير نسائها خديجة) [٦٣] . وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (بشر رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد ببيت في الجنة) [٦٤]

الوقفة الثانية : مع السيدة عائشة رضي الله عنها الأم بلا ولد

السيدة عائشة رضي الله عنها قد تكون أكثر إمرأة في التاريخ تعرضت للظلم وأثير حولها الجدل بعد مريم إبنة عمران عليها السلام ، وكانت مصدر إلهام لكثير من كتاب التاريخ والسير للكتابة عنها إيجابا أو سلبا.

وبدأ الجدل حول السيدة عائشة رضي الله عنها منذ زواجها من رسول الله ﷺ من عدة مصادر سنستعرضها وندفع الظلم عنها فيما يلي :

أولا : أول أبواب الجدل في سيرة السيدة عائشة رضي الله عنها كان هو سن زواجها ، فما أجمعت عليه كتب السيرة أن الرسول ﷺ عقد عليها في السادسة من عمرها وبني بها في التاسعة في السنة الأولي بعد هجرة النبي صلي الله عليه وسلم من مكة للمدينة.

وقد تزوجها الرسول ﷺ بعد أن أراه الله صورتها في المنام كما ورد في صحيح البخاري قال (حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُرِيتُكِ فِي المَنَامِ مَرَّتَيْنِ، إِذَا رَجُلٌ يَحْمِلُكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَيَقُولُ :هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَكْشِفُهَا فَإِذَا هِيَ أَنْتِ، فَأَقُولُ :إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ " [٦٥]

وقد ثار اللغط حول سن زواج السيدة عائشة رضي الله عنها لأن اللذين تولوا كبرهم في موضوع حقوق المرأة وتنظيم الأسرة والنسل ، يحاربون زواج المرأة في سن صغيرة لأن هذا يصطدم مع خططهم التي تستهدف محاربة زيادة نسل المسلمين ، فأعتبروا أن سن الزواج المناسب للمرأة هو ستة عشر عاما ثم رفعوه إلي ثمانية عشر عاما وبناءا عليه يستحيل زواج السيدة عائشه في التاسعة بزعمهم وقد إنهزم بعض المشتغلين بالعلم الشرعي من المسلمين أمام هذه الدعاوي الباطلة وأخذوا يشككون في الروايات الصحيحة التي تثبت أن سن السيدة عائشة عند الزواج تسع سنوات.

---

٦٣ صحيح البخاري رقم ٣٤٣٢ كتاب أحاديث الأنبياء

٦٤ صحيح مسلم رقم ٢٤٣٤ كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل خديجة رضي الله عنها

٦٥ صحيح البخاري رقم ٥٠٧٨ كتاب النكاح باب نكاح الأبكار

والرد علي هذا اللغط لايحتاج إلي هذا الحرج وهذا الجهد في تكييف النصوص المحددة لسن السيدة عائشة ، لأن كتب التراث التي ذكرت السن ذكرته بلا حرج لأنه أمرا عاديا ولا حرج فيه لأن السن ليس شرطا شرعيا لصحة الزواج وإنما الشرط هو البلوغ للذكر والأنثي علي السواء ، وسن البلوغ يختلف من مكان لآخر ، وسن بلوغ الذكر يختلف عن سن بلوغ الأنثي ، وسن البلوغ يختلف بين شخص وآخر لكلا الجنسين ، فلا يمكن القول بالبلوغ في سن واحدة ، وانما جري العرف أن بلوغ الذكور في بلادنا يمكن أن يبدأ لدي بعض الأشخاص في سن الثانية عشرة ويمكن أن يتأخر لدي البعض حتي سن الثامنة عشر ، وسن البلوغ للإناث يمكن أن يبدأ لدي بعضهن في سن التاسعة ويمكن أن يتأخر حتي سن الخامسة عشر .

إذن فلا غرابة في سن زواج السيدة عائشة عند التاسعة لأنه أول سن البلوغ الطبيعي للمرأة وبالتالي لا مانع من تزويجها في هذا السن ، ويتأكد هذا إذا علم أن سن الرسول ﷺ عند زواجه بالسيدة عائشة رضي الله عنها أربع وخمسون عاما ، وسن أبوها أبو بكر رضي الله عنه إثنان وخمسون ويستحيل عقلا وشرعا أن يتواطأ الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه علي إرتكاب مخالفة في حق عائشة رضي الله عنها ، كما يستحيل شرعا وعقلا أن تتقبل السيدة عائشة أن يفرض عليها هذا الفعل المخالف دون أن تنقله لنا فيما روته من أحاديث كثيرة عن حياتها مع رسول الله ﷺ .

ولم تنقل لنا كتب التاريخ والسير أي إشارة عن وجود إستنكار أو إستغراب من الصحابة الذين عايشوا هذا الحدث ولا حتي من المنافقين الذين ماتركوا شاردة ولا واردة يمكن التشغيب بها علي الإسلام إلا وأستغلوها ومنها حادثة الإفك عن السيدة عائشة أيضا ، ولو كان في سن زواجها من رسول الله ﷺ حرج لما تركوه .

إذن فالتشغيب بهذا الأمر علي الإسلام هو أمر محدث أحدثه أعداء الإسلام الجدد مستغلين جهل المسلمين بسيرة نبيهم ومستغلين الهزيمة النفسية لمن يتصدي للرد عليهم ، ولم يذكر سن الزواج في كتب التراث إلا علي سبيل السرد التاريخي والتأريخ للأحداث وليس لتتعيينه كسن للزواج ، فصحة الزواج لاترتبط بالسن وإنما ترتبط بالنمو الجسدي والوظائف العضوية للجسد .

<u>ثانيا</u> : الباب الثاني من أبواب الجدل حول السيدة عائشة رضي الله عنها هو حادثة الإفك ، والتي ورد ذكرها مجملا في سورة النور ومفصلة في دوواين

السنة بما لايحتاج منا إلي مزيد من التفصيل ، وكفي السيدة عائشة فضلا أن ينزل في برائتها من هذه الحادثة قرآنا يتلي في الصلوات إلي يوم القيامة .

ثالثا : وثالث أبواب الجدل حول السيدة عائشة رضي الله عنها هو موقفها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، عندما تبنت الدعوة بالثأر من قتلة عثمان قبل مبايعة علي رضي الله عنه وكان إجتهادا خاطئا منها تراجعت عنه بعد أن إلتقت علي رضي الله قبل موقعة الجمل وندمت عليه بعد ذلك بعد أن إستعرت نيران الفتنه بين المسلمين وأريقت فيها الدماء .

وقد إنتهز الشيعة الرافضه هذا الإجتهاد الخاطئ من السيدة عائشة رضي الله عنها في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وأستغلوه أسوأ إستغلال في التشنيع عليها وإتهامها بالباطل في كل مناسبة .

رابعا : السيدة عائشة رضي الله عنها إنفردت بعدة خصائص تميزها عن نساء النبي صلي الله عليه وسلم ، فهي أصغرهن سنا ، ولم يتزوج النبي بكرا غيرها ، ولم ترزق بالولد فعوضها الله لتكون أما لكل المؤمنين ، وكانت أكثرهن فقها في الدين ، وأكثرهن رواية لحديث رسول ﷺ، بل كانت رابعة السبعة المكثرين للرواية عن رسول الله ﷺ بعد أبو هريرة وعبد الله بن عمر وانس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين ، وقد جمع الشاعر السبع المكثرين من رواة الحديث بقوله :

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا من الحديث عن المختار خير مضر
أبو هريرة، سعد، جابر، أنس صدِّيقة، وابن عباس، كذا ابن عمر

وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٢١٠) حديثا ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إليها في كثير من مسائل الفقه بعد وفاة رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي أطلقوا عليها معلمة الرجال وكان لها رأيا مخالفا في بعض المسائل الفقهية كفتنة مقتل عثمان ومسألة رضاع الكبير وغيرها .هذا التفاعل لم يأت من فراغ ، فهي إبنة الصديق أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺوقد إختارها الله تعالي لنبيه وهي في هذه السن الصغيرة ، ووهبها من الفقه والحكمة ماجعلها مرجعا للمسلمين في حياة رسول الله صلي الله عليه وسلم الخاصة ، ولولاها ماتعلمت النساء كثير من شئون دينهم التي تحتاج النساء إلي من يعلمهن إياها من بنات جنسهن ، نقلت للنساء كيفية معاشرة الزوجات لأزواجهن ، وهدي الرسول ﷺ في معاملتهن ، وقد جعلها الله سببا لكثير من الرخص في بعض الأحكام الفقهية كالتيمم وغيره .

ولا شك أن هذا التفاعل في أمور الدين جعلها عرضة للخلاف ويفتح عليها أبوابا للنقد والنيل منها من أعداء الإسلام والكارهين لسنة رسول الله ﷺ.

الوقفة الثالثة : مع السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها

وَهِيَ بِنْتُ عَمَّة رسول الله ﷺأُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ قَبْلُه عِنْدِ مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَطَلَّقَهَا فَزَوَّجَهُ اللَّهُ إياها من فوق سبع سموات، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} فَقَامَ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِلَا اسْتِئْذَانٍ، وَكَانَتْ تَفْخَرُ بِذَلِكَ عَلَى سَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقُولُ :"زوَّجكن أَهَالِيكُنَّ وزوَّجني الله من فوق سبع سمواته". وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهَا.

وقصة زواج النبي ﷺ منها كانت أيضا مدخلا من مداخل التشغيب علي سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم وذلك بإساءة فهم قول الله تعالي (وتخفي في نفسك ماالله مبديه ، وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه) فغمز المنافقون رسول الله بقصد الإساءة إليه فقالوا أن رسول الله يرغب في الزواج من زوجة متبناه ومولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهي زينب رضي الله عنها ، وحاشاه ﷺ من هذا الظن السيئ .

ولكي ندرك بطلان غمز المنافقون نحتاج إلي عرض قصة زيد إبن حارثة ، وقد وردت في التفاسير متفرقة ، إخترنا عرضها من تفسير التحرير والتنوير لشمولية عرضها في هذا التفسير ،

يقول إبن عاشور :[زَيْدٌ هُوَ المعنيّ من قَوْله تَعَالَى لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ، فَاللَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَالْخَلَاصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ بِأَنْ يَسَّرَ دُخُولَهُ فِي ملك رَسُوله ﷺ ، وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْعِتْقِ وَالتَّبَنِّي وَالْمَحَبَّةِ،

وَيَأْتِي التَّصْرِيحُ بِاسْمِهِ الْعَلَمِ إِثْرَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ :فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ شَرَاحِيلَ الْكَلْبِيُّ مِنْ كَلْبِ بْنِ وَبَرَةَ وَبَنُو كَلْبٍ مِنْ تَغْلِبَ. كَانَتْ خَيْلٌ مِنْ بَنِي الْقَيْنِ بْنِ جَسْرٍ أَغَارُوا عَلَى أَبْيَاتٍ مِنْ بَنِي مَعْنٍ مِنْ طَيِّءٍ، وَكَانَتْ أُمُّ زَيْدٍ وَهِيَ سُعْدَى بِنْتُ ثَعْلَبَةَ مِنْ بَنِي مَعْنٍ خَرَجَتْ بِهِ إِلَى قَوْمِهَا تَزُورُهُمْ فَسَبَقَتْهُ الْخَيْلُ الْمُغِيرَةُ وَبَاعُوهُ فِي سُوقِ حُبَاشَةَ (بِضَمِّ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ) بِنَاحِيَةِ مَكَّةَ فَاشْتَرَاهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ زَوْجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قبل أَن يتزوّجها رَسُول اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهَبَتْهُ خَدِيجَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (وَزَيْدٌ يَوْمَئِذٍ ابْنُ ثَمَانِ سِنِينَ) وَذَلِكَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ فَحَجَّ نَاسٌ مِنْ كَلْبٍ فَرَأَوْا زَيْدًا بِمَكَّةَ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفَهُمْ فَأَعْلَمُوا أَبَاهُ وَوَصَفُوا مَوْضِعَهُ وَعِنْدَ مَنْ هُوَ، فَخَرَجَ أَبُوهُ حَارِثَةُ وَعَمُّهُ كَعْبٌ لِفِدَائِهِ فَدَخَلَا مَكَّةَ وكلّما النبي ﷺ فِي فِدَائِهِ، فَأتى بِهِ النبي ﷺ إِلَيْهِمَا فَعَرَفَهُمَا، فَقَالَ لَهُ النبي ﷺ :"اخْتَرْنِي أَو اخْتَرْهُمَا" . قَالَ زَيْدٌ :مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَدًا، فَانْصَرَفَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَطَابَتْ أَنْفُسُهُمَا بِبَقَائِهِ، فَلَمَّا رأى النبي ﷺ مِنْهُ ذَلِكَ أَخْرَجَهُ إِلَى الْحِجْرِ وَقَالَ :"يَا مَنْ حَضَرَ اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي يَرِثُنِي

وَأَرِثُهُ"، فَصَارَ ابْنا للنبي ﷺ عَلَى حكم التبني فِي الْجَاهِلِيَّة وَكَانَ يُدْعَى :زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ.
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَوَّجَهُ أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاتَهُ فَوَلَدَتْ لَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَطَلَّقَهَا. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّجَهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ الْأَسَدِيّ حَلِيفِ آلِ عَبْدِ شَمْسٍ وَهِيَ ابْنَةُ عَمَّتِهِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ .
ثُمَّ بَعْدَ الْهِجْرَة آخى النبي ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَمَّا بَطَلَ حُكْمُ التَّبَنِّي بِقَوْلِهِ تَعَالَى :وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ] الْأَحْزَاب صَارَ يُدْعَى: حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ.
وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ طَلَّقَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ فَزَوَّجَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَأُمُّهَا الْبَيْضَاءُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَوَلَدَتْ لَهُ زَيْدَ بْنَ زَيْدٍ وَرُقَيَّةَ ثُمَّ طَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي لَهَبٍ، ثُمَّ طَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ هِنْدَ بِنْتَ الْعَوَّامِ أُخْتَ الزُّبَيْرِ.
وَشَهِدَ زَيْدٌ بَدْرًا وَالْمَغَازِي كُلَّهَا. وَقُتِلَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْجَيْشِ وَهُوَ ابْن خمس و خمسين سَنَةً
وَزَوْجُ زَيْدٍ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ هِيَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الْأَسْدِيَةُ وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَلَمَّا تَزَوَّجَهَا النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَّاهَا زَيْنَبَ، وَأَبُوهَا جَحْشٌ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ وَكَانَ أَبُوهَا حَلِيفًا لِآلِ عَبْدِ شَمْسٍ بِمَكَّةَ وَأُمُّهَا أُمَيْمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ طَلَّقَهَا بِالْمَدِينَةِ، وَتَزَوجهَا النبي ﷺ سَنَةَ خَمْسٍ، وَتُوُفِّيَتْ سَنَةَ عشْرِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ وَعُمُرُهَا ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً، فَتَكُونُ مَوْلُودَةً سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، أَيْ سَنَةَ عشْرِينَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ.
وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَأْثُورَ الصَّحِيحَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ: أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بَقِيَتْ عِنْدَهُ زَيْنَبُ سِنِينَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ، فَكَانَ إِذَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تَارَةً مِنْ خِلَافٍ أَدْلَتْ عَلَيْهِ بِسُؤْدُدِهَا وَغَضَّتْ مِنْهُ بِوِلَايَتِهِ فَلَمَّا تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُطَلِّقَهَا وَجَاءَ يُعْلِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِعَزْمِهِ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَزَوَّجَهَا مِنْ عِنْدِهِ.
وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ: أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى النَّبِي ﷺ أَنَّهُ سَيَنْكِحُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ.
وَعَنِ الزُّهْرِيِّ :نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِي ﷺ يُعْلِمُهُ أَنَّ اللَّهَ زَوَّجَهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَذَلِكَ هُوَ مَا فِي نَفْسِهِ. وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّهُ مُخْتَارُ(إختيار) بَكْرِ بْنِ الْعَلَاءِ

الْقُشَيْرِيّ [٦٦] وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيّ. وَالظَّاهِرُ عِنْدِي: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الرُّؤْيَا كَمَا أُرِيَ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ :"أَتَانِي بِكِ الْمَلَكُ فِي الْمَنَامِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ يَقُولُ لِي: هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاكْشِفْ فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ: إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يمضه.
فَقَوْل النبي ﷺ لِزَيْدٍ :" أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ" تَوْفِيَةً بِحَقّ النَّصِيحَةِ وَهُوَ أَمْرُ نُصْحٍ وَإِشَارَةٍ بِخَيْرٍ لَا أَمْرُ تَشْرِيعٍ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُتَصَرِّفٌ بِحَقّ الْوَلَاءِ وَالصُّحْبَةِ لَا بِصِفَةِ التَّشْرِيعِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَدَاءُ هَذِهِ الْأَمَانَةِ لَا يَتَأَكَّدُ أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ زَيْنَبَ صَائِرَةٌ زَوْجًا لَهُ لِأَنَّ عِلْمَ النَّبِي بِمَا سَيَكُونُ لَا يَقْتَضِي إِجْرَاءَهُ إرشاده أَوْ تَشْرِيعَهُ
بِخِلَافِ عِلْمِهِ أَوْ ظَنّه فَإِن النبي ﷺ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ مَثَلًا لَا يُؤْمِنُ وَلَمْ يمنعهُ ذَلِك من أَنْ يُبَلِّغَهُ الرِّسَالَةَ وَيُعَاوِدَهُ الدَّعْوَةَ، وَلِأَنَّ رَغْبَتَهُ فِي حُصُولِ شَيْءٍ لَا تَقْتَضِي إِجْرَاءَ أَمْرِهِ عَلَى حَسَبِ رَغْبَتِهِ إِنْ كَانَتْ رَغْبَتُهُ تُخَالِفُ مَا يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَرْغَبُ أَنْ يقوم أحد بقتل عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ قَبْلَ أَن يسمع مِنْهُ إِعْلَانَهُ بِالتَّوْبَةِ مِنِ ارْتِدَادِهِ حِينَ جَاءَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَائِبًا.
وَلِذَلِكَ كُلِّهِ لَا يُعَدُّ تَصْمِيمُ زَيْدٍ عَلَى طَلَاقِ زَيْنَب عصيانا للنبي ﷺ لِأَنَّ أَمْرَهُ فِي ذَلِكَ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجِهِ. وَلَا يَلْزَمُ أَحَدًا الْمَصِيرُ إِلَى إِشَارَةِ الْمُشِيرِ كَمَا اقْتَضَاهُ
وَقَوْلُهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ يُؤْذِنُ بِأَنَّهُ جَوَابٌ عَنْ كَلَامٍ صَدَرَ مِنْ زَيْدٍ بِأَنْ جَاءَ زَيْدٌ مُسْتَشِيرًا فِي فِرَاقِ زَوْجِهِ، أَوْ مُعْلِمًا بِعَزْمِهِ عَلَى فِرَاقِهَا.
وَجُمْلَةُ "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ" عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ تَقُولُ .وَالْإِتْيَانُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ :وَتُخْفِي لِلدِّلَالَةِ عَلَى تَكَرُّرِ إِخْفَاءِ ذَلِكَ وَعَدَمِ ذِكْرِهِ وَالَّذِي فِي نَفْسِهِ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُ زَيْنَبَ وَأَنَّ زَيْدًا يُطَلِّقُهَا وَذَلِكَ سِرٌّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ لَيْسَ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغُهُ وَلَا مِمَّا للنَّاس فَائِدَة فِي عِلْمِهِ حَتَّى يُبَلِّغُوهُ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يُعْلِمْ عَائِشَةَ وَلَا أَبَاهَا بِرُؤْيَا إِتْيَانِ الْمَلَكِ بِهَا فِي سَرَقَةٍ من حَرِيرٍ إِلَّا بَعْدَ أَن تزَوجهَا مَا صدق "مَا فِي نَفْسِكَ" هُوَ التَّزَوُّجُ بِزَيْنَبَ وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي سَيُبْدِيهِ اللَّهُ لِأَنَّ اللَّهَ أَبْدَى ذَلِك فِي تزوج النبي ﷺ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا وَلَمْ يُبِدِ اللَّهُ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَخْفَاهُ فِي نَفسه أمرا يَصْلُحُ لِلْإِظْهَارِ فِي الْخَارِج، أَي أَن يَكُونَ مِنَ الصُّوَرِ الْمَحْسُوسَةِ.

---

٦٦ هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري الفقيه المالكي ولي قضاء العراق. له كتاب في الأحكام والرد على المزني والأشربة ورد فيه على الطحاوي وكتاب في الأصول والرد على القدرية والرد على الشافعي. توفى سنة ٣٤٣ هـ .

وَجُمْلَةُ وَتَخْشَى النَّاسَ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ، أَيْ تُخْفِي مَا سَيُبْدِيهِ اللَّهُ وَتَخْشَى النَّاسَ مِنْ إِبْدَائِهِ. وَالْخَشْيَةُ هُنَا كَرَاهِيَةُ مَا يُرْجِفُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ، وَالْكَرَاهَةُ مِنْ ضُرُوبِ الْخَشْيَةِ إِذِ الْخَشْيَةُ جِنْسٌ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادِهِ بِالتَّشْكِيكِ فَلَيْسَتْ هِيَ خَشْيَةُ خوف، إِذْ النبي ﷺلَمْ يَكُنْ يَخَافُ أَحَدًا مِنْ ظُهُورِ تَزَوُّجِهِ بِزَيْنَبَ، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ ظَهَرَتْ أَرَاجِيفُ الْمُنَافِقِينَ بعد، وَلَكِن النبي ﷺ كَانَ يَتَوَسَّمُ مِنْ خُبْثِهِمْ وَسُوءِ طَوِيَّتِهِمْ مَا يَبْعَثُهُم على القالة فِي النَّاس لفتنة الْأمة، فَكَانَ يعلم مَا سيقولونه ويمتعض مِنْهُ، كَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي قَضِيَّةِ الْإِفْكِ، وَلَمْ تَكُنْ خَشْيَةً تَبْلُغُ بِهِ مَبْلَغَ صَرْفِهِ عَمَّا يَرْغَبُهُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَزَوُّجِ زَيْنَبَ بَعْدَ طَلَاقِ زَيْدٍ، وَلَكِنَّهَا اسْتِشْعَارٌ فِي النَّفْسِ وَتَقْدِيرٌ لِمَا سَيُرْجِفُهُ الْمُنَافِقُونَ.
وَلَيْسَ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ مَا يُفِيدُ أَنَّهُ قَدَّمَ خَشْيَةَ النَّاسِ عَلَى خَشْيَةِ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُكَلِّفْهُ شَيْئًا فَعَمِلَ بِخِلَافِهِ
وَبِهَذَا تعلم أَن النبي ﷺ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ، وَقَدْ قَامَ بِعَمَلِ الصَّاحِبِ النَّاصِحِ حِينَ أَمَرَ زَيْدًا بِإِمْسَاكِ زَوْجِهِ وَانْطَوَى عَلَى عِلْمٍ صَالِحٍ حِينَ خشي مَا سيفترصه الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْقَالَةِ إِذَا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ خُفْيَةً أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ فِتْنَةً لِضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ.
وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ :وَتَخْشَى النَّاسَ عِتَابٌ وَلَا لَوْمٌ، وَلَكِنَّهُ تَذْكِيرٌ بِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ تَوَقِّيهِ قَالَةَ الْمُنَافِقِينَ. وَحَمَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى مَعْنَى العتاب وَلَيْسَ من سِيَاقِ الْكَلَامِ مَا يَقْتَضِيهِ فَأَحْسَبُهُمْ مُخْطِئِينَ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ تَشْجِيعٌ لَهُ وَتَحْقِيرٌ لِأَعْدَاءِ الدِّينِ وَتَعْلِيمٌ لَهُ بِأَنْ يَمْضِيَ فِي سَبِيلِهِ وَيَتَنَاوَلَ مَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ وَلِرُسُلِهِ مِنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ مُبَاحٌ مِنْ مَرْغُوبَاتِهِمُ وَمَحَبَّاتِهِمْ إِذَا لَمْ يَصُدُّهُمْ شَيْء من ذَلِك عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{مَا كانَ عَلَى النَّبِي مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ} الْأَحْزَاب: ٣٨، ٣٩ ، ثم قال :
وَقَدْ رُوِيَتْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَخْبَارٌ مَخْلُوطَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَتَسَرَّبَ إِلَى نَفْسِكَ مِنْهَا أُغْلُوطَةٌ، فَلَا تُصْغِ ذِهْنَكَ إِلَى مَا أَلْصَقَهُ أَهْلُ الْقَصَصِ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ تَبْسِيطٍ فِي حَالِ النبي ﷺ حِينَ أَمَرَ زَيْدًا بِإِمْسَاكِ زَوْجِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ مُخْتَلَقَاتِ الْقَصَّاصِينَ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اخْتِلَافًا من الْقصاص لِتَزْيِينِ الْقِصَّةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ مِنْ أَرَاجِيفِ الْمُنَافِقِينَ وَبُهْتَانِهِمْ فَتَلَقَّفَهُ الْقَصَّاص وَهُوَ الَّذِي نَجْزِمُ بِهِ.
وَمِمَّا يَدُلُّ لِذَلِكَ أَنَّكَ لَا تَجِدُ فِيمَا يُؤْثَرُ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَثَرًا مُسْنَدًا إِلَى النبي ﷺ أَوْ إِلَى زَيْدٍ أَوْ إِلَى زَيْنَبَ أَوْ إِلَى أَحَدٍ

مِنَ الصَّحَابَةِ رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، وَلكنهَا كلهَا قِصَصٌ وَأَخْبَارٌ وَقِيلَ وَقَالَ.] [٦٧]
وبعد عرض القصة بهذا السياق النافي لأي صورة من صور الهمز والغمز من المنافقين ، عرض الطاهر بن عاشور القصة في سياق آخر هو سياق الروايات الضعيفة والتي لايوجد بها أيضا مايدعو إلي ريبة أو حرج. ولسنا في حاجة إلي ذكر هذه الروايات الضعيفه في هذا المقام .
وهذه القصة تتضمن خصيصة من خصائص النبي ﷺ وهي ان الذي ولي تزويجه منها هو الله عز وجل بمعني انه أوحي إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر ، وقد ذكرهذا الإمام القرطبي في تفسيره فقال : [لَمَّا وَكَّلَتْ أَمْرَهَا إِلَى اللَّهِ وَصَحَّ تَفْوِيضُهَا إِلَيْهِ تَوَلَّى اللَّهُ إِنْكَاحَهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ : {فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها}، وَرَوَى الْإِمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ آبَائِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ { وَطَرًا زَوَّجْتُكَهَا} وَلَمَّا أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَلَا تَجْدِيدِ عَقْدٍ وَلَا تَقْرِيرِ صَدَاقٍ، ولا شي مِمَّا يَكُونُ شَرْطًا فِي حُقُوقِنَا وَمَشْرُوعًا لَنَا.
وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّاتِهِ ﷺ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . و ختام الآية فيه رد علي كل الأباطيل ببيان الحكمة من هذه القصة بقوله تعالي (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) ويقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيه :وقوله: (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) أَيْ: إِنَّمَا أَبَحْنَا لَكَ تَزْوِيجَهَا وَفَعَلْنَا ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيجِ مُطَلَّقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ" :زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ"، فَلَمَّا قَطَعَ اللَّهُ هَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) ، ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آيَةِ التحريم :(وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُم) النِّسَاءِ:٢٣ لِيَحْتَرِزَ مِنَ الِابْنِ الدَّعِيِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ.وَقَوْلُهُ :(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا) أَيْ: وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وحَتَّمه، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، كَانَتْ زَيْنَبُ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ]. إنتهي [٦٨]
وأحسن مانختم به الكلام في هذه الخصيصة ماذكره الحافظ إبن كثير في تفسيره :[وَقَال ابْنُ جَرِيرٍ : عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ :لَوْ كَتَمَ

٦٧ التحرير والتنوير – تفسير سورة الأحزاب
٦٨ تفسير القرطبي

مُحَمَّدٌ ﷺ شَيْئًا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، لِكَتَمَ :{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} . [٦٩]] إنتهي [٧٠] ، أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسَّع على نفسه، فتزوَّج تسعاً، وضيَّق على أمته بأربعة، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله، أمّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ، إذن :على الرسول أنْ يُمسِك زوجاته كلهن، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع.

شيء آخر :يظن الناس أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات، فإذا ماتت إحداهن تزوج بأخرى، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة، وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء.أما رسول الله - نعم تزوج تسعاً - لكن خاطبه ربه بقوله :{لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ. } فَمَن الذي ضيّق عليه إذن؟ محمد أم أمته؟ فزوجاته ﷺ لو ماتوا جميعاً ما كان له ﷺ أنْ يتزوَّج بعدهن.

زوجات النبي ﷺ ، أمهات المؤمنين ، جعلهن سبحانه تعالي من خصائص نبيه ، فأختصهن بخصائص عن سائر النساء ، وقد تزوجهن النبي ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ، وكان زواجه بهن بترتيب إلهي لمصلحة دعوته ﷺ ، فمنهم عائشة وحفصة رضي الله عنهما إبنتي وزيريه المقربين (ابو بكر وعمر) رضي الله عنهما لكي لايكون عليهما حرج في كثرة الدخول علي رسول الله ﷺ ، زينب بنت جحش تزوجها بحكم الله تعالي لإحكام إبطال التبني لكونها كانت زوجة لمتبناه زيد بن حارثة ، بقية نسائه تزوجهن لظروف خاصة بهن ، منهن من تنصر زوجها وتركها بلا عائل، ومنهن من أستشهد زوجها وترك لها عيالا يحتاجون النفقة ، ومنهن من تزوجها تأليفا لقلوب قومها علي الإسلام ، وعندما أنزل الله آية التخيير ، وأمر رسوله بأن يخيرهن بين الله ورسوله والتحمل والصبر علي ضيق النفقة وبين أن يمتعهن ويسرحهن سراحا جميلا ، بفضل الله تعالي إخترن كلهن الله ورسوله

---

٦٩ صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه علي الماء رقم (٧٤٢٠)، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان رقم (١٧٧)

٧٠ تفسير إبن كثير

الفصل الخامس

محمد ﷺ خاتم النبيين

يقول الله عز وجل في سورة الأحزاب {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين } (٤٠) وتأتي هذه الآية لتأكيد حكم منع التبني وعدم جواز قول زيد إبن محمد وإنما هو زيد إبن حارثة ، فالرسول ﷺ لم يعش له أولادا ذكور، فقد ولد له من خديجه رضي الله عنها القاسم والطيب والطاهر فماتوا صغارا وولد له إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضا رضيعا ، وكان له من خديجة أربع بنات :زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضي الله عنهم أجمعين ، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتي أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) كقوله : (اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام : ١٢٤ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لانبي بعده فلا رسول بعده من باب الأولي والأحري لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول.

وقد وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم التي تؤكد علي انه خاتم النبيين وبذلك يقطع الطريق علي كل مدعي للنبوة بعده ، ولم يخلو زمان من مدع للنبوة بدءا من مسيلمة الكذاب إنتهاءا بالقاديانية والبابية والبهائية ومن علي شاكلتهم في الأزمنة المتأخرة.

وقد أخبر الله تعالي في كتابه ، وأخبر رسوله في السنة المتواترة أنه لانبي بعده ليعلموا أن كل من إدعي هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك أثيم ضال مضل ، ولو أتي بخوارج العادات أو أتي بأنواع من السحر والطلاسم والشعوذه ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب إلي يوم القيامة ، كَمَا أَجْرَى اللَّهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عَلَى يَدِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِي بِالْيَمَنِ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بِالْيَمَامَةِ، مِنَ الْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْوَالِ الْبَارِدَةِ، مَا عَلِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ وَفَهْمٍ وحجى أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ ضَالَّانِ، لَعَنَهُمَا اللَّهُ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مُدَّعٍ لِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخْتَمُوا بِالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَذَّابِينَ يَخْلُقُ اللَّهُ مَعَهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَشْهَدُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا. وَهَذَا مِنْ تَمَامِ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ بِضَرُورَةِ الْوَاقِعِ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الِاتِّفَاقِ، أَوْ لِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ إِلَى غَيْرِهِ، وَيَكُونُ فِي غَايَةِ الْإِفْكِ وَالْفُجُورِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) الْآيَةَ الشُّعَرَاءِ:٢٢١، ٢٢٢ . وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَنْبِيَاءِ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْبِرِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّشْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْعَدْلِ فِيمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ، مَعَ مَا يُؤَيِّدُونَ بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ لِلْعَادَاتِ، وَالْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَاتِ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا مستمرا ما دامت الأرض والسموات.

سنكتفي بحديثين فقط من أحاديث الرسول ﷺ في هذا المعني أولهما ماورد في صحيح البخاري بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟قَالَ :فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ) [٧١]

وفي صحيح مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :(فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ) [٧٢]

يقول الشيخ الشعراوي عليه رحمة الله [قال سبحانه {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم} الأحزاب: ٤٠ لأن علاج قضية التبني أهمُّ من أبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشيء، إنما ينفعه البلاغ عن الله، وأن يحمل له منهج ربه الذي يسعده في دينه ودنياه.

إذن :ففرحكم برسول الله كرسول أَوْلَى من فرحكم به كأب، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء، وهم أشقياء في الحياة لا قيمة لهم.

وقوله {مَّا كَانَ } الأحزاب: ٤٠ النفي هنا يفيد الجحود، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمدا أَباً لأحد من رجالكم، وتأمل عظمة الأداء القرآني في كلمة {مِّن رِّجَالِكُمْ } الأحزاب: ٤٠ ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم، لماذا؟ قالوا: لأنه ﷺ كان أَباً لعبد الله وللقاسم ولإبراهيم، وكانوا جميعاً منهم، وهو ﷺ أبوهم، فجاءت كلمة {رِّجَالِكُمْ } الأحزاب: ٤٠ لتُخرج هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم لم يبلُغوا مبلغ الرجال، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال، وإنْ كان أباً لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة.

وقوله {ولكن } أي: أهم من أُبوَّته أن يكون رسول الله {ولكن رَّسُولَ الله} ليس هذا فحسب، ولكن أيضاً {وَخَاتَمَ النبيين } أي: الرسول والنبي الذي يختم الرسالات، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة.

وهذه من المسائل التي وقف عندها المستشرقون معترضين، يقولون :جاء في القرآن :{وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّه } آل عمران: ٨١.

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أُخذ عليهم هذا العهد، بدليل :{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوح }

---

٧١ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين رقم (٣٥٣٥)

٧٢ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم (٥٢٣)

إذن :أخذ الله العهد على الأنبياء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومهم بمقدم رسول جديد، وأنه إذا جاءهم عليهم أن يؤمنوا به، وأنْ ينصرونه، كما بشَّر مثلاً عيسى عليه السلام برسالة محمد ﷺ فقال :{وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ... } الصف: ٦

كيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم؟ نقول :نعم هو واحد منهم، لكن إنْ كانوا قد أُمِروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتي، فقد أمر ﷺ أن يَبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل.

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة في زمن المأمون، فأمر به فَوُضِع في السجن، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعي النبوة، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر، فأحضر المدعي الأول وقال له :إن هذا الرجل يدَّعي أنه نبي، فماذا تقول فيه؟ قال :هو كذاب؛ لأنني لم أرسل أحداً - فارتقى إلى منزلة الألوهية، لا مجرد أنه نبي

والمرأة التي ادَّعَتْ النبوة أيضاً في زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قالها لها :ألم تعلمي أن رسول الله قال: لا نبيَّ بعدي؟ قالت :بلى، ولكنه لم يقل لا نبية بعدي!

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله :{وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} الأحزاب: ٤٠ وما دام أن الله تعالى أنعم عليهم بكل شيء فليس لأحد أنْ يعترض؛ لأنه سبحانه هو الذي يضع الرسول المناسب في المكان المناسب والزمان المناسب، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان] إنتهي [٧٣]

ووجه الخصوصية في ختم النبوة بمحمد ﷺ هو رحمة من الله بالعباد وتشريفا لهم ، لأن ذلك يعني أن به ﷺ إكتمل الدين الحنيف وتمت نعمة الله علي عباده ، وأنه أرسل إلي الناس كافة والكتاب الذي أنزل معه مصدقا لما قبله من الكتب ومهيمنا عليها . وبذلك يكون النبي ﷺ شهيدا علي أمته وتكون أمته شهداء علي من سبقها من الأمم كما قال الله عز وجل {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة :١٤٣

٧٣ تفسير الشعراوي

الفصل السادس

القسم بين الزوجات

قال الله تعالي في سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا مَا فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيما (50) }

هذه الآية تتضمن عدة خصائص للنبي ﷺ ، وقد بدأت الآية بالنداء الرابع الذي خُوطِبَ بِهِ النبي ﷺ فِي شَأْنٍ خَاصٍّ بِهِ هُوَ بَيَانُ مَا أُحِلَّ لَهُ مِنَ الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِي وَمَا يَزِيدُ عَلَيْهِ وَمَا لَا يَزِيدُ مِمَّا بَعْضُهُ تَقْرِيرٌ لِتَشْرِيعٍ لَهُ سَابِقٍ وَبَعْضُهُ تَشْرِيعٌ لَهُ لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَمِمَّا بَعْضُهُ يَتَسَاوَى فِيهِ النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ الْأُمَّةِ وَبَعْضُهُ خَاصٌّ بِهِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِخُصُوصِيَّتِهِ مِمَّا هُوَ تَوْسِعَةٌ عَلَيْهِ، أَوْ مِمَّا رُوعِيَ فِي تَخْصِيصِهِ بِهِ عُلُوُّ دَرَجَتِهِ.

وقد وردت هذه الآية عَقِبَ الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا لَمَّا خَاضَ الْمُنَافِقُونَ فِي تزوّج النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَقَالُوا :تَزَوَّجَ مَنْ كَانَتْ حَلِيلَةَ مُتَبَنَّاهُ، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ من يحل للنبي تَزَوُّجُهُنَّ حَتَّى لَا يَقَعَ النَّاسُ فِي تَرَدُّدٍ وَلَا يَفْتِنَهُمُ الْمُرْجِفُونَ.

وهذه الآية جامعة لكل التشريعات الخاصة بزوجات النبي صلي الله عليه وسلم ، ففيها تقرير وتأكيد لماهو موجود ومستقر من تشريعات وفيها الجديد ولم يكن موجودا .

فمما هو تقرير وتأكيد لما هو موجود من تشريعات قوله تعالي (إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ) وهذا كان هو الواقع ولا جديد فيه ثم عطف عليها ماهو جديد ولم يكن موجودا وذلك في قوله تعالي (وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ، وقد أضاف هذا الجزء من الآية أصناف جديدة من النساء أحلهن الله لنبيه للزواج لم يعلم أنهن كن موجودات فيما عنده من زوجات ، فمن المعلوم أن فيهن من هن من قراباته وهن القرشيات منهن :عائشة ، وحفصة ، وسودة ، وأم سلمة ، وأم حبيبة ، وفيهن من لسن كذلك وهن جويرية من بني المصطلق ، وميمونة بنت الحارث من بني هلال ، وزينب أم المساكين من بني هلال وكانت يومئذ متوفاة وصفية بنت حيي من سبايا خيبر. يضاف إلي هولاء ماملكت يمينه صلي الله عليه وسلم كمارية القبطية أم ولده إبراهيم وأخريات إختلفت فيهن الروايات .

أول هذه الأصناف الجديده من النساء التي أحلها الله لنبيه هن بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته بشرط أن يكن ممن هاجرن معه من مكة إلي المدينة ، وقد إختلف المفسرون في الحكمة من تخصيص بنات عمه وعماته وخاله وخالاته في هذه الآية ، فذكر الطبري في تفسيره (فأحل الله له صلي الله عليه وسلم من بنات عمه وعماته وخاله وخالاته ، المهاجرات معه منهن دون من لم يهاجر منهن معه) وكأن المقصود من ذكرهن في الآية هو ذكر شرط هجرتهن . وذكر القرطبي (انه خصهن بالذكر تشريفا لهن كما قال تعالي : فيهما فاكهة ونخل ورمان) وإشترط الهجرة لسقوط الولاية عن من لم يهاجر لقوله تعالي في سورة الأنفال{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا} ﴿٧٢﴾ وقد أخذ الحافظ إبن كثير منحي آخر في تفسير هذه الجزئية من الآيه وهو مأميل إليه ، قال [وَقَوْلُهُ: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} : هَذَا عَدْلٌ وَسط بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ؛ فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُ أَحَدُهُمْ بِنْتَ أَخِيهِ وَبِنْتَ أُخْتِهِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَدْمِ إِفْرَاطِ النَّصَارَى، فَأَبَاحَ بِنْتَ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ، وَبِنْتَ الْخَالِ وَالْخَالَةِ، وَتَحْرِيمِ مَا فَرّطت فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ، وَهَذَا بَشِعٌ فَظِيعٌ] .[٧٤] إنتهي

الصنف الآخر الجديد من النساء في هذه الآيه في قوله تعالي {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} وهي خصوصية للنبي ﷺ أيْ: وَيَحِلُّ لَكَ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ -الْمَرْأَةُ الْمُؤْمِنَةُ إِذَا وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ.وَهَذِهِ الْآيَةُ تَوَالَى فِيهَ شَرْطَانِ ان تهب نفسها للنبي بلا مهر وإن أراد النبي أن يتزوجها.

وَقَوْلُهُ : {خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } قَالَ عِكْرِمَةُ: أَيْ: لَا تَحِلُّ الْمَوْهُوبَةُ لِغَيْرِكَ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا. أَيْ :إِنَّهَا إِذَا فَوَّضَتِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ، فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ لَهَا عَلَيْهِ بِهَا مَهْرُ مِثْلِهَا، كَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تزويج بِنْتِ وَاشِقٍ لَمَّا فَوَّضَتْ، فَحَكَمَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَدَاقِ مِثْلِهَا لَمَّا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَالْمَوْتُ وَالدُّخُولُ سَوَاءٌ فِي تَقْدِيرِ الْمَهْرِ وَثُبُوتِ مَهْرِالْمِثْلِ فِي الْمُفَوَّضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَمَّا هُوَ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْمُفَوَّضَةِ شَيْءٌ وَلَوْ

---

٧٤ تفسير إبن كثير- تفسير سورة الأحزاب

دَخَلَ بِهَا؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ وَلَا وَلِيٍّ وَلَا شُهُودٍ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ :{خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} ، يَقُولُ :لَيْسَ لِامْرَأَةٍ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا مَهْرٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ. (٧٥)

وقوله تعالي {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا } (٥١)

وهذه خصيصة أخري من خصائص النبي ﷺ ، يقول الحافظ بن كثير في تفسيره [قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ :حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّهَا كَانَتْ تُغَيِّر من النِّسَاءَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَتْ :أَلَا تَسْتَحِي الْمَرْأَةُ أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ :{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ} ، قَالَتْ :إِنِّي أَرَى رَبَّك إلا يُسَارع فِي هَوَاكَ) (٧٦)

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَة، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: { تُرْجِي} أَيْ: تُؤَخِّرُ {مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ} أيْ: مِنَ الْوَاهِبَاتِ أَنْفُسِهِنَّ {وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} أَيْ: مَنْ شِئْتَ قَبِلْتَهَا، ومَنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا، ومَنْ رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بعد ذلك، إن شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَآوَيْتَهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ :{وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ) . قَالَ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ فِي قَوْلِهِ : (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} : كُنَّ نِسَاءً وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ بِبَعْضِهِنَّ وَأَرْجَأَ بِعَضَهُنَّ لَمْ يُنْكحن بَعْدَهُ، مِنْهُنَّ أُمُّ شَرِيكٍ

وَقَالَ آخَرُونَ :بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ :{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}أَيْ: مِنْ أَزْوَاجِكَ، لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ القَسْم لَهُنَّ، فَتُقَدِّمْ مَنْ شِئْتَ، وَتُؤَخِّرْ مَنْ شِئْتَ، وَتَجَامِعْ مَنْ شِئْتَ، وَتَتْرُكْ مَنْ شِئْتَ.

هَكَذَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي رَزِين، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرُهُمْ، وَمَعَ هَذَا كَانَ، ﷺ، يَقْسِمُ لَهُنَّ؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْقَسْمُ وَاجِبًا عَلَيْهِ، ﷺ وَاحْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

---

٧٥ نفس المصدر السابق

٧٦ المسند (١٥٨/٦)

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: بسنده عَنْ مُعَاذة عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ :{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ} ، فَقُلْتُ لَهَا :مَا كُنْتِ تَقُولِينَ؟ فَقَالَتْ:كُنْتُ أَقُولُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِليَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُؤْثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا(٧٧).

فَهَذَا الْحَدِيثُ عَنْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ وُجُوبِ الْقَسْمِ، وَحَدِيثُهَا الْأَوَّلُ يَقْتَضِي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَاهِبَاتِ، وَمِنْ هَاهُنَا اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النِّسَاءِ اللَّاتِي عِنْدَهُ، أَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمْ. وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَفِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) أَيْ: إِذَا عَلِمْنَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ الحَرَجَ فِي الْقَسْمِ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسِمْ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ، ثُمَّ مَعَ هَذَا أَنْت تَقْسِمُ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ، فَرِحْنَ بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرْنَ بِهِ وَحَمَلْنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ، وَاعْتَرَفْنَ بِمِنَّتِكَ عَلَيْهِنَّ فِي قَسْمِكَ لَهُنَّ وَتَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ. إنتهي (٧٨)

وبمناسبة ما نحن بصدده من الحديث عن أحكام الزواج والتعدد يقول الشعراوي عليه رحمة الله [يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التي يثيرها أعداء الإسلام بسبب مسألة "تعدد الزوجات" ، مع أن التعدد في مصر لم يصل إلى حَدِّ الظاهرة، وليس وباءً كما يُصوّره البعض.

فالذين أحصوا هذه المسألة وجدوا أن الذين عدَّدوا بزوجتين ثلاثة بالمائة، والذين عددوا بثلاث واحد في الألف، والذين عدَّدوا بأربع نصف في الألف، فلماذا إذن إثارة الناس ضد ما شرع الله، ثم ألم يمتصّ التعدد فائضاً من النساء؟

وتأتي الزوجة تشتكي :بعد أنْ عِشْتُ معه كذا وكذا، وخدمته كذا وكذا يتزوج عليَّ؟ فأقول لها :أضَرَّك أنتِ؟ تقول :نعم،أقول :لكنه نفع أخرى، فواحدة بواحدة، ولماذا ننظر إلى المتزوجة، ونغفل التي لم تتزوج، أليس من حقّها هي الأخرى أن تتزوج؟ ثم إن المرأة التي قبلَتْ أن تكون الثانية ما قبلت إلا لأنها لم تستطع أنْ تكون الأولى، وكذلك الثالثة ما قبلتْ، إلا لأنها لم تستطع أن تكون الثانية.

---

٧٧ صحيح البخاري برقم (٤٧٨٩)

٧٨ تفسير إبن كثير- تفسير سورة الأحزاب

ثم نقول لهؤلاء :أألزمك ربك أنْ تعدد؟ هذه مسألة أباحها الشارع لحكمة، ولم يلزمك بها، فإنْ كان التعدد لا يعجبك فاكتفِ بواحدة. (فالتعدد ليس بفرض أو واجب وإنما هو مباح بشروطه وأهمها العدل).
والذين أثاروا الضجة في تعدُّد الزوجات أثاروا أكثر منك في مسألة مِلْك اليمين في الإسلام، وراحوا يتهمون الإسلام والمسلمين :كيف يجمَع الرجل فوق زوجاته كذا وكذا من ملْك اليمين؟
ومعلوم أن مِلْك اليمين كان موجوداً قبل الإسلام، وظل موجوداً حتى دعا القانون الدولي العام إلى منع ظاهرة العبودية، ودعا إلى تحرير العبيد، فسرَّح الناس ما عندهم من العبيد، وكان منهم مَنْ يشتري العبيد من أصحابهم ثم يُطلِق سراحهم.
ومن هؤلاء العبيد مَنْ كان يعود إلى صاحبه وسيده مرة أخرى يريد العيش في كنفه وفي عبوديته مرة أخرى؛ لأنه ارتاح في ظل هذه العبودية، وعاش في حمايتها، وكان بعضهم يفخر بعبوديته ولا يسترها فيقول :أنا عتيق آل فلان.
والمنصف يجد أن مِلْك اليمين في الإسلام ليست سُبَّة فيه، إنما مفخرة للإسلام؛ لأن مِلْك اليمين وسيلته في الإسلام واحدة، هي الحرب المشروعة، فالإسلام ما جاء لينشيء رِقاً، إنما جاء لينشيء عتقاً.
الإسلام جاء والرق موجود، وكان العبيد يُباعون مع الأرض التي يعملون بها، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد في عِتْق عبده، في حين كانت منابع الرقِّ كثيرة متعددة، فكان المدين الذي لا يقدر على سداد دَيْنه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين، وكان اللصوص وقُطَّاع الطرق يسرقون الأحرار، ويبيعونهم في سوق العبيد. . إلخ.
فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الوسائل ومنعها، ولم يُبْقِ إلا منبعاً واحداً هو السَّبْي في حرب مشروعة، وحتى في الحرب ليس من الضروري أن ينتج عنها رِقٌّ؛ لأن هناك تبادلَ أسري، ومعاملة بالمثل، وهذا التبادل يتم على أقدار الناس، فالقائد أو الفيلسوف أو العالم الكبير لا يُفتدى بواحد من العامة، إنما بعدد يناسب قدره ومكانته، واقرأ في ذلك قوله تعالى :{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ... } محمد: ٤.
لأن الحرب ما شُرِعَتْ في الإسلام ليُرغم الناسُ على الدين، لكن ليُحمي اختيارهم للدين، بدليل أن البلاد التي دخلها الفتح الإسلامي بقي فيها كثير من الناس على كفرهم، ثم ألزمهم دفع الجزية مقابل الزكاة التي يدفعها المسلم، ومقابل الخدمات التي تؤديها إليه الدولة.

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسرى، وعلى المجتمع الظالم الذي ينتقد الإسلام في هذه الجزئية أن يعلم أن الذي أَسرْتَه في المعركة قد قدرْتَ عليه، وتمكَّنْتَ منه، وإنْ شئت قتلتَهُ، فحين يتدخَّل الشرع هنا ويجعل الأسير مِلْكاً لك، فإنما يقصد من ذلك حَقْن دمه أولاً، ثم الانتفاع به ثانية، إما بالمال حين يدفع أهله فديته، وإما بأنْ يخدمك بنفسه.

إذن :المقارنة هنا ليستْ بين رِقٍّ وحرية كما يظن البعض، إنما هي بين رِقٍّ وقتل. ومشروعية الرق في أسرى الحرب إنما جاءتْ لتحقِنَ دم المأسور، وتعطي الفرصة للانتفاع به، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وظَلَّ أسيرك بيدك، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها، فهو شريكك في الإنسانية المخلوقة لله تعالى، وما أباح الله لك أنْ تأسره، وأن تملكه إلا لكي تَحْقِنَ دمه، لا أن تُذِلَّهُ.

ومما يدل علي سماحة الإسلام في معاملة ملك اليمين مارواه البخاري في صحيحه عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ :لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ :إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :(يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ) [٧٩]

فأيُّ إكرام للأسير بعد هذا، بعد أنْ حقن دمه أولاً، ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة، ثم فتح له عدة منافذ تؤدي إلى عِتْقه وحريته، فإنْ كان للرقِّ في الإسلام باب واحد، فللحرية عدة أبواب، منها العتق في الكفارات وهي في تكفير الذنوب التي بين العبد وربه.

هذا إنْ كان الأسير رجلاً، فإنْ كان امرأة، ففيها نفس التفصيل السابق، وتُعامَل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأَمَة ـ وهي في بيت سيدها ـ وضعها خاصاً، فهي ترى سيدتها تتمتع بزوجها، وترى البنت تتزوج، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية، إلى آخر مثل هذه الأمور، وهي تقف موقف المتفرج، وربما أخذتها الغيرة من مثل هذه المسائل، فيكرمها الله حين يُحلّها لسيدها، فيكون لها ما لسيدتها الحرة، فإذا ما أنجبتْ لسيدها ولداً صارت حُرَّة به، وهذا منفذ آخر من منافذ القضاء على الرق.

---

٧٩ تفسير إبن كثير ج٦ ص ٤٤٠-٤٤٦

الفصل السابع

الصلاة والسلام عليه عبادة

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {إِنَّ اللَّـهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} ﴿٥٦﴾ ،
المقصود من هذه الآية أن الله تعالي أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه صلي الله عليه وسلم عنده في الملأ الأعلي ، وذلك بانه يثني عليه عند ملائكته المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه أي تدعو له ، قَالَ الْبُخَارِيُّ :قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: صَلَاةُ اللَّهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ :الدُّعَاءُ .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:يُصَلُّونَ: يبرّكون. هَكَذَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُمَا (٨٠)
وقد أخبر سيحانه وتعالي في آيات أخر أن سبحانه وتعالي ، يصلي علي عباده المؤمنين ، ومن ذلك قوله تعالي في سورة الأحزاب أيضا {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43) } ، وقوله تعالي في سورة البقرة {أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }﴿١٥٧﴾
إذن صلاة الله تعالي علي نبيه ليست خصيصة له وإنما هي رحمة من الله تعالي لكل عباده المؤمنين الصابرين ، إنما الخصيصة في أمر الله تعالي لعباده المؤمنين بالصلاة والسلام عليه وذلك في قوله تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وبذلك أصبح الصلاة والسلام عليه أمر تعبدي يؤجر المسلم عليه .
وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، وثواب الصلاة عليه ، سنذكر منها ماتيسر إن شاء الله تعالي ، والله المستعان .
قَالَ الْبُخَارِيُّ -عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ :- بسنده ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ :قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقد عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ فَقَال : (قُولُوا: اللَّهُمَّ، صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ، بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)(٨١)
وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ هُوَ الَّذِي فِي التَّشَهُّدِ الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُهُمْ إِيَّاهُ، كَمَا كَانَ يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَفِيهِ :(السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ).
وقد أورد الحافظ إبن كثير في تفسيره الآراء الفقهية في وجوب الصلاة والسلام علي النبي فقال :(وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ

٨٠ صحيح البخاري (٥٣٢/٨) "فتح"
٨١ صحيح البخاري برقم (٤٧٩٧) .

خُزَيمة، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ أَنَّهُمْ قَالُوا :يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا السَّلَامُ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ إِذَا نَحْنُ صَلَّيْنَا فِي صَلَاتِنَا؟ فَقَالَ :(قُولُوا: اللَّهُمَّ، صَل عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّد) وَذَكَرَهُ[٨٢].

وَرَوَاهُ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بِمِثْلِهِ [٨٣] وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ، فَإِنْ تَرَكَهُ لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ. وَقَدْ شَرَعَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ يُشنع عَلَى الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي اشْتِرَاطِهِ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ تَفَرَّدَ بِذَلِكَ، وَحَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ وَالطَّحَاوِيُّ وَالْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُمْ، فِيمَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ. وَقَدْ تَعَسّف الْقَائِلُ فِي رَدِّهِ عَلَى الشَّافِعِيِّ، وَتَكَلَّفَ فِي دَعْوَاهُ الْإِجْمَاعَ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا ، فَإِنَّهُ قَدْ رَوَيْنَا وُجُوبَ ذَلِكَ وَالْأَمْرَ بِالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَمُفَسَّرٌ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ :ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَمِنَ التَّابِعِينَ:الشَّعْبِيُّ، وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ. وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ، لَا خِلَافَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ وَلَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ أَيْضًا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَخِيرًا فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الدمشقي، بِه.

وبه قال إسحاق بن رَاهْوَيْهِ، وَالْفَقِيهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْمَوَّازِ الْمَالِكِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ أَئِمَّةِ الْحَنَابِلَةِ أَوْجَبَ أَنْ يُقَالَ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كَمَا عَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لَمَّا سَأَلُوهُ، وَحَتَّى إِنَّ بَعْضَ أَصْحَابِنَا أَوْجَبَ الصَّلَاةَ عَلَى الْآلِ مِمَّنْ حَكَاهُ الْبَنْدَنِيجِيّ، وسُلَيم الرَّازِيُّ، وَصَاحِبُهُ نَصْرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَقْدِسِيُّ، وَنَقَلَهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَصَاحِبُهُ الْغَزَالِيُّ قَوْلًا عَنِ الشَّافِعِيِّ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ وَجْهٌ، عَلَى أَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى خِلَافِهِ، وَحَكَوُا الْإِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ، وَلِلْقَوْلِ بِوُجُوبِهِ ظَوَاهِرُ الْحَدِيثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والغَرَض أَنَّ الشَّافِعِيَّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، لِقَوْلِهِ بِوُجُوبِ الصلاة عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ -سَلَفٌ وَخَلَفٌ كَمَا تَقَدَّمَ، لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، فَلَا إِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

---

٨٢ المسند (١١٩/٤) وسنن أبي داود برقم (٩٨١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٩٨٧٧) والمستدرك (٦٦٨/١) وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم".

٨٣ مسند الشافعي برقم (٢٦٨) "بدائع المنن" ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس، عن نعيم بن عبد الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ :الْحَدِيثُ الْآخَرُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ - وَصَحَّحَهُ -وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا، مِنْ رِوَايَةِ حَيْوة بْنِ شُرَيْح الْمِصْرِيِّ، عَنْ أبي هانئ حميد بن هَانِئٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ أَبِي عَلِيٍّ الجَنْبي ، عَنْ فُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ :سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ، لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (عَجِل هَذَا) ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ :(إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ثُمَّ لِيدعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ)[٨٤]

أما عن ثواب الصلاة والسلام عليه فقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة منها ما رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا)

قَالَ التِّرْمِذِيُّ :هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعَمَّارٍ، وَأَبِي طَلْحَةَ، وَأَنَسٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ [٨٥]

وبَعْدَ النِّدَاءِ لِلصَّلَاةِ؛ لِلْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ، حَدَّثَنَا كَعْبُ بْنُ عَلْقَمَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ :أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :(إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عَلْقَمَةَ [٥١]

وَمِنْ ذَلِكَ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْجِنَازَةِ: فَإِنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَقْرَأَ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَفِي الثَّالِثَةِ يَدْعُو لِلْمَيِّتِ، وَفِي الرَّابِعَةِ يَقُولُ :اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنَا بَعْدَهُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ

---

٨٤ المسند (١٨/٦) وسنن أبي داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذي برقم (٣٤٧٧)

٨٥ صحيح مسلم برقم (٤٠٨) وسنن أبي داود برقم (١٥٣٠) وسنن الترمذي برقم (٤٨٥)

مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ)وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ[٨٦]وقد روى الترمذي عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيّ بْنِ كَعْب، عَنْ أَبِيهِ قَالَ :كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ ."قَالَ أُبَيٌّ :قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَالَ" :مَا شِئْتَ ."قُلْتُ :الرُّبْعُ؟ قَالَ" :مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) قُلْتُ :فَالنِّصْفُ؟ قَالَ :(مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) قُلْتُ :فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ :(مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) قُلْتُ :أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا ؟ قَالَ :(إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ) ثُمَّ قَالَ :هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ) [٨٧].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : (بسنده)، عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جعلتُ صَلَاتِي كُلَّهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ :(إِذَنْ يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ)[٨٨]

عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسيَّب، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَصْعَدُ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ[٨٩]] إنتهي [٩٠]

[والصلاة والسلام عليه عبادة، لأن الصلاة من المؤمنين، هي الدعاء والاستغفار، واستغفارهم ليس لرسول الله، إنما هو استغفارهم لأنفسهم؛ لأن رسول الله جاء رحمةً لهم، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً فَهُمْ إنِ استغفروا، فاستغفار عن الغفلة عنه ﷺ، أو عن أنهم لم يتقدم اسمه، فيصلون عليه.

والمؤمن حين يُصلِّي على رسول الله، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله؟ ماذا بأيدينا؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله، إنك لا تقول أصلي، ولكن تقول :اللهم صَلِّ على محمد، أو صلَّى الله على محمد، فتطلب مِمَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلي على رسول الله؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤدِّيه لرسول الله.

إذن :فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة، والصلاة من الملائكة الدعاء، والصلاة من المؤمنين الاستغفار.

---

٨٦ المسند (١٦٨/٢) وصحيح مسلم (٣٨٤) وسنن أبي داود (٥٢٣) وسنن الترمذي (٣٦١٤) وسنن النسائي (٢٥/٢) .

٨٧ المسند (٤٤٥/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٧) .

٨٨ المسند (١٣٦/٥)

٨٩ سنن الترمذي برقم (٤٨٦) .

٩٠ تفسير إبن كثير

وقوله تعالى بعدها :{وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} الأحزاب: ٥٦ في صدر الآية {إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي } الأحزاب: ٥٦ ولم يَقُلْ سبحانه ويسلمون، فلما أمر المؤمنين قال {صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}الأحزاب: ٥٦ فزاد: وسلِّموا تسليماً.

قال العلماء :لأن الصلاة على رسول الله لا يزن إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإذعان لأمره، وأن تُسْلِم زمامك له في كل صغيرة وكبيرة، وإلاَّ فكيف تُصلِّي عليه وأنت تعصي أوامره، وقد قال تعالى :{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} النساء: ٦٥.

ومن معاني التسليم أن نقول :السلام عليك أيها النبي كما نقول في التشهُّد، والسلام اسم من أسماء الله، ومعنى:السلام عليك يا رسول الله أي: جعل الله لك وقاية، فلا ينالك أحد بسوء.] [٩١]

والأحاديث في فضل ووجوب الصلاة علي النبي ﷺ أكثر من أن تستقصي في هذا البحث وما ذكر فيه الكفاية بإذن الله لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

والمؤمن كيس فطن ، وليس من الفطنة ولا من الكياسة التلهي عن هذا الفضل العظيم الذي تفضل الله علي عباده بهذه العبادة الميسرة وهي الصلاة والسلام علي النبي في كل حال.

وما أطيب أن ننهي هذا الفصل بهذه الخصيصة العظيمة من خصائص النبي ﷺ سائلين الله عز وجل أن يجعل فيما ذكرناه الكفاية .

---

٩١ تفسير الشعراوي

الباب الثالث

أهم الأحكام الشرعية في سورة الأحزاب

الفصل الأول : تحريم التبني

الفصل الثاني :المطلقة قبل الدخول

الفصل الثالث : حكم الحجاب

الفصل الأول

تحريم التبني

يُطْلَقُ لفظ التبنِّي ويُراد به أحد معنيين: الأول: أن يَضُمَّ الإنسان إليه وَلَدًا يَعرف أنه ابن غيره وينسبه إلى نفسه نِسْبَة الابن الصحيح، وتثبت له جميع حقوقه، والثاني: أن يجعل غير ولده كولده النَّسَبي في الرعاية والتربية فقط دون أن يُلْحِق به نسبه، ولا يكون كأولاده الشرعيين.
والمعني الثاني يدل علي عمل خيري دعت إليه عاطفة كريمة كحماية المُتبنَّى من الضياع لموت والديه أو غيابهما أو فقرهما مثلاً، أو لإشباع غَرِيزَةِ الأبوة والأمومة عند الحرمان منها بالذُّرية، ولا مانع منه شرعًا، بل مندوب إليه من باب الرحمة والتعاوُن على الخير.
أما الأول، فقد كان معروفًا في الشرائع الوضعية قبل الإسلام، كما عَرَفَه العرب في الجاهلية وظل مُعترَفًا به في الاسلام، وبمقتضاه تبنَّى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فكان يُدعي زيد بن محمد، حتى أبطله القرآن بعد الهجرة بأربع سنوات أو خمس، بعد غزوة الأحزاب . وخطورة التبني أنه تترتب عليه آثار خطيرة يمكن أن تحدث خللا في المجتمع نتيجة إختلاط الأنساب وتضييع حقوق الميراث ، ومن شأن هذه الآثار أن تكون ذريعه لوجود الحسد والضغينة والبغضاء في المجتمع ، بالإضافة إلي إحتمالية حدوث مشاكل علي المدي البعيد حيث أن الرجل المتبني لا يحل له أن يتزوج زوجة متبناه إذا فارقها، كما لا يحل له أن يتزوج زوجة ابنه الحقيقي .
لذلك تعددت الحكمة من تحريم التبني والتي يمكن حصرها فيما يلي:
أن فيه حرمان الأب الحقيقي المعروف من أن يتصل به نسبه المتولد منه، المنسوب إليه في الواقع، وفيما يعلم الله والناس.
أن فيه إدخال عنصر غريب في نسب المتبنيّ يدخل على زوجته وبناته باسم البنوّة والأخوّة، ويعاشرهن على أساس أنه إبن أو أخ لكل منهن، وهو في الواقع أجنبي عنهن، لا يباح له منهن ما يباح للابن والأخ الحقيقي لهن.
لوتركزت هذه البنوة الكاذبة في الأسرة فإن البنوة الحقة في الأسرة الحقة تسير إلى الفناء، والمحو والزوال وبذلك تضيع الأنساب، ويختل نظام الأسر، وتضيع حكمة الله تعالى في جعل الناس شعوباً وقبائل، وفيه وراء ضياع الأنساب.
اختلال نظام الأسر فتضيع حقوق الورثة الذين تحقق سبب إرثهم الشرعي من الأب (الكاذب المتبني) فلا ترث إخوته ولا أخواته لوجود الابن (الزور) الذي منع ببنوته الكاذبة إرثهم الشرعي.
وقوع العداوة والبغضاء بينهم وبين مورثهم بهذا الدعي الذي تبناه المورّث وضيع به حقوقهم في التركة.

وقد إقتضت حكمة الله عز وجل ورحمته في التشريعات التي تهدف إلي منع وتحريم عادات راسخة متأصلة وموروثة في المجتمع المسلم من زمن الجاهلية أن تتم التوطئة لحكم المنع والتحريم كما هو واضح في تشريع تحريم التبني ، أو بالتدريج كما هو في حكم تحريم الخمر .

وتشريع تحريم التبني ورد في سورة الأحزاب علي ثلاث مراحل ، ورد أولا بآيات لتوطئة النفوس لتقبل الحكم وذلك في قوله تعالي في سورة الأحزاب {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ }(4) لَا يَكُونُ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ، وَلَا تَصِيرُ زَوْجَتُهُ الَّتِي يُظَاهِرُ مِنْهَا بِقَوْلِهِ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي أُمًّا لَهُ، كَذَلِكَ لَا يَصِيرُ الدَّعِيّ وَلَدًا لِلرَّجُلِ إِذَا تبنَّاه فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ.

وَقَوْلُهُ :{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} : هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالنَّفْيِ؛ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَبَنَّاهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ :"زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ" فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ يَقْطَعَ هَذَا الْإِلْحَاقَ وَهَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ :{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} كَمَا قَالَ فِي نفسِ السُّورَةِ : {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} الْأَحْزَاب:٤٠ وَقَالَ هَاهُنَا : {ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ} يَعْنِي: تَبَنِّيكُمْ لَهُمْ قَوْلٌ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقِيًّا، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ، فَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ، كَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ.

{وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَقُولُ الْحَقَّ أَيِ: الْعَدْلَ .وَقَالَ قَتَادَةُ : {وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}أَيِ: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.[٩٢]

وكانت المرحلة الثانية في التشريع تطبيقا عمليا للنص المحكم فكان زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش مُطلَّقة زيد بن حارثة تطبيقًا لهذا الإبطال.وذلك في قوله تعالي في سورة الأحزاب{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا} (37)

يقول إبن كثير في تفسير هذه الآيه [وَقَوْلُهُ : {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} : الْوَطَرُ: هُوَ الْحَاجَةُ وَالْأَرَبُ، أَيْ :لَمَّا فَرَغ مِنْهَا، وَفَارَقَهَا،

---

٩٢ تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

{زَوّجناكها} ، وَكَانَ الَّذِي وَلي تَزْوِيجَهَا مِنْهُ هُوَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، بِمَعْنَى :أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا بِلَا وَلِيٍّ وَلَا مَهْرٍ وَلَا عَقْدٍ وَلَا شُهُودٍ مِنَ الْبَشَرِ.
وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَقُولُ :زَوَّجَكُنَّ أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات (٩٣)
وقوله: {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} أَيْ: إِنَّمَا أَبَحْنَا لَكَ تَزْوِيجَهَا وَفَعَلْنَا ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيجِ مُطَلَّقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ" :زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ"، فَلَمَّا قَطَعَ اللَّهُ هَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ } ، ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آيَةِ التحريم {وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ} النِّسَاءِ:٢٣ لِيَحْتَرِزَ مِنَ الِابْنِ الدَّعِيِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ.
وَقَوْلُهُ :{ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا} أَيْ: وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وحَتَّمه، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، كَانَتْ زَيْنَبُ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ. إنتهي (٩٤)
وكان ختام آيات تشريع حكم تحريم التبني قول الله تعالي {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}
قَالَ الْبُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ :بسنده قَالَ:حَدَّثَنِي سَالِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ زَيدًا بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ :{ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} .وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ طُرُقٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، بِهِ (٩٥)
وفد نشأ عن تطبيق حكم تحريم التبني ظهور بعض الإشكاليات نتيجة تعارض الحكم الجديد مع بعض حالات التداخل الشديد لبعض الأبناء بالتبني مع أمهاتهم بالتبني ، مثل حالة رضاع الكبير التي وردت في الحديث الذي رواه مسلم قال : عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ :جَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ

---

٩٣ صحيح البخاري برقم (٧٤٢٠)
٩٤ تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
٩٥ صحيح البخاري برقم (٤٧٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٥) وسنن الترمذي برقم (٣٢٠٩) والنسائي في السنن

، فَقَالَتْ :يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ دُخُولِ سَالِمٍ وَهُوَ حَلِيفُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :(أَرْضِعِيهِ) ، قَالَتْ :وَكَيْفَ أُرْضِعُهُ؟ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَقَالَ :(قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ) ، زَادَ عَمْرٌو فِي حَدِيثِهِ :وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي عُمَرَ :فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (٩٦)

وهذا الحديث يتخذ منه أصحاب القلوب المريضة مدخلا للتشغيب علي سنة رسول الله ﷺ حيث لم تستطع عقولهم إستيعاب أن ترضع سهيلة بنت سهيل إمرأة أبي حذيفة ، أن ترضع سالما مولاه وقد بلغ مبلغ الرجال .

وقد أجاب الفقهاء وشراح الحديث علي هذه الأباطيل بكلام لايحتاج إلي مزيد بيان خلاصته أن هذه المسألة مما إختلف فيه العلماء ومما خالفت فيه السيدة عائشه رضي الله عنها قول جمهور العلماء والصحيح فيها هو قول الجمهور ، فقالت تثبت حرمة الرضاع برضاع البالغ كما تثبت برضاع الطفل لهذا الحديث ، وقال سائر العلماء من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار إلى الأن لا يثبت حكم الرضاع إلا بإرضاع من له دون سنتين إلا أبا حنيفة فقال سنتين ونصف.

واحتج الجمهور بقوله تعالى {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة} وبالحديث الذي ذكره مسلم بعد هذا (إنما الرضاعة من المجاعة) وحملوا حديث سهلة على أنه مختص بها وبسالم وقد روى مسلم عن أم سلمة وسائر أزواج رسول الله ﷺ أنهن خالفن عائشة في هذا .

وقد حاول بعض العلماء رفع الحرج في تفسير قول رسول الله ﷺ لسهلة (أرضعيه) ، بقولهم لعلها حلبته ثم شربه من غير أن يمس ثديها ولا التقت بشرتاهما .

وبقليل من التدبر لهذا الحديث يزول اللبس ولا نحتاج لهذا التكلف في تأويل الحديث ، وندرك حكمة تزويج الله تعالي نبيه ﷺ أمرأة متبناه وجعله مثلا لتطبيق الحكم لإستحالة وجود من يتقبل تطبيقه عليه من آحاد المسلمين .

وقد قدر الله تعالي ظهور مسألة سهلة بنت سهيل إمرأة أبي حذيفة و مولاه سالم لكي يدرك الناس صعوبة تطبيق الحكم الجديد ، فسالم كان بمثابة الإبن بالتبني لأبي حذيفة وأمرأته ، ففي بعض روايات الحديث أن سهيلة قالت يارسول الله ، كنا ندعو سالما إبنا " أي الخلوة مباحة له كإبن ، ويمكن أن يري مايراه الإبن من أمه " ثم قالت وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا ، أي ان التغير حدث في نفس أبي حذيفة بعد

---

٩٦ صحيح مسلم رقم ١٤٣٥

تحريم التبني ، فما الحل ؟ هل الأولي أن يتركهم رسول الله ﷺ فريسة للشيطان حتي يتفرقا ، أم يقدم لهما حلا خاصا بمسألتهما فقط وهو حل ممن لاينطق عن الهوي ، إن هو إلا وحي يوحي . حتي سهيله نفسها إستغربت ماقاله رسول الله ﷺ وقالت إنه رجل كبير ، فضحك من لاينطق عن الهوي وقال قد علمت أنه رجل كبير .

إذن رضاع الكبير حدث كحالة خاصة لحل مشكلة خاصة حدثت نتيجة التشريع الجديد بتحريم التبني الذي كان شائعا قبل الإسلام ، والذي كان رسول الله ﷺ هو أول نموذج لتطبيقه.

وسبحان من حرم التبني وفي نفس الوقت جعل الإبن من الرضاعة كالإبن من النسب وهو التشريع الذي كان فيه حلا لمسألة سهلة بنت سهيل إمرأة أبي حذيفة ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ (حرموا من الرضاعة مايحرم من النسب) [٩٧]

وتحريم التبني لايعني بحال من الأحوال ، تحريم أو منع دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّحْبِيبِ، فَلَيْسَ مِمَّا نُهِيَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا التِّرْمِذِيَّ، مِنْ حَدِيثِ سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عَنِ الْحَسَنِ الْعُرَنِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ : "قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُغَيْلِمَةَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى حُمُرَاتٍ لَنَا مِنْ جَمْعٍ، فَجَعَلَ يَلْطَخُ أَفْخَاذَنَا وَيَقُولُ: (أُبَيْنِيّ لَا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ) ([٩٨]). قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ: " "أُبَيْنِيّ" تَصْغِيرُ بَنِيَّ . وَهَذَا ظَاهِرُ الدَّلَالَةِ، فَإِنَّ هَذَا كَانَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ سَنَةَ عَشْرٍ،وَقَوْلُه: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ} فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَقَدْ قُتِلَ فِي يَوْمِ مُؤْتَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ.

وَأَيْضًا فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَوَانة الْوَضَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْيَشْكُرِي، عَنِ الْجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ الْبَصْرِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ :قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا بُنَي) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ[٩٩]

وقد جاء في فتوى لدار الإفتاء المصرية بتاريخ ٢٠ من ديسمبر ١٩٧٩ م ما خلاصته : أن التبنّي بمعنى استلحاق شخص معروف النسب أو مجهول النسب، ونسبته إلى مُلحِقه مع التصريح من هذا الأخير بأن يتخذه ولدًا له حال أنه ليس بولده حقيقة، وأن التبنّي بهذا المعنى أمر مُحَرَّم في الإسلام.

---

٩٧ صحيح البخاري برقم (٤٧٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٥) .

٩٨ المسند (١/٣١١) وسنن أبي داود برقم (١٩٤٠) وسنن النسائي (٥/٢٧٠) وسنن إبن ماجة رقم (٣٠٢٥)

٩٩ صحيح مسلم رقم (٢١٥١) وسنن أبي داود برقم (٤٩٦٤) وسنن الترمذي برقم (٤٨٣١)

والتبنِّي غير الإقرار بالنسب، إذ إنَّ المُقِرَّ يعترف ببنوة ولد مخلوق من مائه بنوةً حقيقية، كالبنوة الثابتة بفراش الزوجية، ولكي يقع الإقرار بالنسب صحيحًا يتعيَّن توافر شروط هي:

أن يكون الولد ذكرًا أو أنثى مجهول النسب لا يُعرف له أب، فإن كان معلوم النسب فلا يصح الإقرار به.

أن يكون من الممكن أن يُولد مثل هذا الولد للمُقِر، فلو كانت سن المُقِر ثلاثين سنة مثلاً وسن المُقَر له مثل هذا أو أكثر أو أقلَّ بقدر يسير كان كذب الإقرار ظاهرًا، فلا يَثبُت به النسب.

أن يُصدق الولد المُقِر في إقراره بالنسب إذا كان مُمَيِّزًا يُحسن التعبير عن نفسه، فإذا كذَّبه وأنكر نسبته إليه فلا يثبت نسبه منه، وإذا كان الولد لا يحسن التعبير عن نفسه، فإنه يَكفي إقرار المقر لثبوت النسب، مع مراعاة الشرطين السابقين.

وخلاصة ما تقدَّم: أن التبنِّي مُحَرَّمٌ بنص قطعي محكم في القرآن الكريم، وهو المصدر الأول للأحكام الشرعية الإسلامية، وأن الإقرار بالنسب جائز ويقع صحيحًا بالشروط الموضحة.

وينبغي التفرِقة بين التبني وبين الإقرار بالنسب حتى لا يَختلط أمرهما، والفرق بينهما واضح من تحديد كلٍّ منهما على الوجه السابق بيانه، إذ إن التبنِّي ادِّعاء نسب لا وجود له في الواقع، أما الإقرار بالنسب فهو ادِّعاء نسب واقع فعلاً، لكنه غير ثابت بمراعاة تلك الشروط .اهـ.

وجاء في فتوى للمفتي نفسه صدَرت في ٢٧ من مارس م١٩٧٩ بمناسبة المبادئ العامة الخاصة بالمولودين دون زواج شرعي، ردًا على كتاب من السيد المستشار وكيل وزارة العدل لشئون التشريع:

"أن الإسلام حريص في تشريعه على أن يكون الطفل الإنساني نتيجة صلةٍ مَشْرُوعَة هي عقد الزواج بين الرجل والمرأة ... وكان من القواعد التشريعية في هذا الصدد قول الرسول ـ ﷺ ـ : (الولد للفِرَاش [١٠٠]) أي أنه متى تمَّ عقد الزواج استتْبع ثبوت النسب دون حاجة إلى دليل آخر سوى ثبوت التلاقي بين الزوجين مع صلاحيتهما الجنسية، وأن تمضي بين العقد والولادة أقلُّ مدة الحمل وهي ستة أشهر ، كما أن نسب الطفل ثمرة الزنا لا يَثبُت للأب إلا باعترافه بنَسَبِه، وبشرط ألا يصرِّح بأنه ابنه من الزِّنا؛ لأن الشريعة لا تُقِر النَّسب بهذا الطريق.

---

١٠٠ جزء من حديث في صحيح البخاري رقم (٢٠٥٣) كتاب البيوع باب تفسير المشتبهات

وإذا كان الإسلامُ حَرَّم التبنِّيَ وأَبْطَلَه فإنَّه لم يَمْنَعْ أهلَ الاستطاعةِ مِنَ القيام على شئون اليتامى واللُّقَطاءِ أو الأطفالِ المجهولي النَّسَبِ وتربيتِهم والإحسانِ إليهم، بل نَدَبَ إلى التكفُّل بهم على وجهٍ يُصْلِح حالَهم برعايتهم صحيا وتربيتِهم دينيًّا وخُلُقيًّا حتَّى يَكْبَرُوا ويَرْشُدوا، وهو مأجورٌ على إحسانه إليه وتربيته له.

لكِنْ لا يجوز شرعًا أَنْ يُعْطِيَ له الكفيلُ لَقَبَ عائلته مهما كان عُذْرُ الكفيل أو أضَافَ إلى عُذْرِه حُجَّةَ الرحمةِ به والشفقةِ والعطفِ عليه وتربيتِه، أو لإشباع غريزةِ الأُبوَّة والأمومةِ إذا كان الكفيلُ عقيمًا أو زوجتُه عاقرًا؛ فهذه الأسبابُ أو غيرُها لا تجعل الدَّعِيَّ ولدًا، ولا يترتَّب على التبنِّي أحكامُ البُنُوَّةِ الحقيقيةِ لِما يُخَلِّفُه مِن آثارٍ سيِّئةٍ سبق بيانها .

تحريم التبني لايعني تحريم التراحم والتكافل بين المسلمين ، وقد يكون من المناسب في هذا المقام التذكير بأن الإسلام قد حث على كفالة اليتيم وتربيته والإحسان إليه والقيام بأمره ومصالحه حتى جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كافل اليتيم معه في الجنة فقال: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هكذا ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) ([١٠١])

وفي رواية مسلم: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ)، وأوجب الجنة لمن شارك اليتيم في طعامه وشرابه؛ فقال ﷺ: (مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ أَلْبَتَّةَ).. [رواه أحمد]، وقال ﷺ: (إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم) [رواه الطبراني] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -وَأَحْسِبُهُ قَالَ- وكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ)[متفق عليه]([١٠٢])

---

١٠١ صحيح البخاري رقم ٥٣٠٤ كتاب الطلاق باب اللعان ورقم ٦٠٠٥ كتاب الأدب

١٠٢ صحيح البخاري رقم ٥٣٥٣ كتاب النفقات ، صحيح مسلم رقم ٢٩٨٢ كتاب الزهد والرقائق

الفصل الثاني

المطلقة قبل الدخول

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا}(49)

أتت هذه الآية بعد الإنتهاء من قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد إنقضاء عدتها من زيد إبن حارثة لترسيخ حكم تحريم التبني

وهذه الآية الكريمة إشتملت علي أحكام كثيرة متعلقة بالطلاق ، والآية وغيرها من الآيات في القرآن الكريم تدل علي إباحة الطلاق ، والقرآن لايبيح شيئا محرما ، وفي المباحات لايترك القرآن فعلا محرما من غير أن يبين منعه وتحريمه .

والطلاق مباح لحاجة الناس أصحاب الفطر السليمة إليه ، فالطلاق عادة لايكون إلا بعد زواج ، والزواج يتطلب الجمع بين شخصان مختلفان في كل شيئ ، في الجنس إبتداءا ، أي لايكون الزواج إلا بين ذكر وأنثي ثم يأتي الإختلاف في الطباع وفي الميول الشخصية ، والنشأة ويمكن أن يصل الإختلاف حتي في اللغة .

والزواج يمكن أن يجمع بين شخصان لم تكن بينهما قبله صلة ولا نسب ولا جوار ولا تقارب في الأخلاق فتحدث بينهما بعد الزواج خلافات وسوء عشرة يستحيل معهما إستمرار الحياة الزوجية ، فيمل كل منهما الآخر ولايوجد سبيل لإراحة الطرفين إلا بالتفريق بينهما ، فأحل الله ذلك للحاجة الفطرية إليه لدفع الضرر.

والطلاق قد يكون هو الحل الأمثل في بعض الأحوال بعد إستنفاذ كل وسائل الإصلاح بين الزوجين والتي نالت قسطا كبيرا من آيات القرآن الكريم في سورة النساء وغيرها من السور ، ولاينبغي أن يجعل إباحته ذريعة للنكاية من أحد الزوجين بالآخر ، او من ذوي قرابتهما ، او لمجرد التغيير وتبديل المذاق ، فالطلاق هو خلاف الأصل في العلاقة بين الزوجين التي يجب أن تقوم علي الإستمرارية والمودة والرحمة كما قال الله تعالي في سورة الروم { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (21)) وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً :وَهِيَ الْمَحَبَّةُ، وَرَحْمَةً :وَهِيَ الرَّأْفَةُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمْسِكُ الْمَرْأَةَ إِمَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا، أَوْ لِرَحْمَةٍ بِهَا، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ وَلَدٌ، أَوْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ، أَوْ لِلْأُلْفَةِ بَيْنَهُمَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ

وإباحة الطلاق في الإسلام هو من حكمة وعظمة التشريع الإسلامي لأنه بهذا التشريع منع كثير من الجرائم والإنحرافات السلوكية التي يمكن أن تحدث

في حالة منع الطلاق كما هو عند النصاري فيما يسمي الزواج الكاثوليكي الذي يقوم علي مبدأ خاطئ وهو أن ماجمعه الله لايفرقه إنسان .
وكما رتب الشرع للزواج قواعد وأحكام وشروط لصحته كالمهر ، والولي ، والشهود ، والإشهار، كذلك رتب للطلاق قواعد وأحكام وشروط لصحته ولحفظ حقوق الطرفين بالإضافة إلي الغاية الكبري وهو سلامة وطهارة الأنساب وعدم إختلاطها ، بل سميت سورة كامله بإسم الطلاق ولم تسم سورة بإسم الزواج وذلك لأهمية الموضوع ، ومن هذه الأحكام التي تعنينا في هذا المقام أحكام العدة .
والعدة بكسر العين إصطلاحا تستخدم للتعبير عن حدث معين في فترة زمنية محدده ، كقول الله عز وجل في شأن الصيام في سورة البقرة {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} (184) وقوله تعالي في سورة التوبة {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ}(36) ، وفي آيات الطلاق يستخدم مصطلح العدة للدلالة علي الفترة اللازمة لإنتظار المرأة بعد الطلاق لإستبراء الرحم .
وأحكام العدة هي عامة للمسلمين جميعا ، وقد وردت أحكام العدة في ثلاث سور من سور القرآن الكريم أولها في سورة البقرة وهي الأسبق في النزول وذلك في قوله تعالي {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم } (228) وقوله تعالي {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ(236) } ثم قوله تعالي {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (237)
ثم الآية التي بين أيدينا في سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا} (49) ، وأخيرا الآيات من سورة الطلاق {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} (1) ثم قوله تعالي في نفس السورة {وَاللائِي يَئِسْنَ

مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) }

وعلي وجه الإجمال للعدة ثلاثة أحكام لا تخلو إمرأة أن تكون واقعة تحت واحد من هذه الأحكام كما يلي:

النوع الأول منها أن تكون العدة لإمرأة من ذوات الحيض وهؤلاء هن من يقعن تحت الحكم الأول وهن الأغلب في النساء وهؤلاء عدتهن ثلاثه قروء والقرء هو الطهر من الحيض وذلك دون الدخول في إختلاف العلماء في تعريف القرء ، في هذه المدة يحق لزوج المطلقة أن يراجعها إذا أراد دون مهر أو عقد جديد ، وإذا إنقضت هذه المدة دون مراجعة فتبين منه بينونة صغري أي لا يحق له أن يراجعها إلا بمهر وعقد جديدين ، وإذا لم يراجعها فلها حقوق المطلقة من متعة ونفقة كما هي مبينة في كتب الفقه .

وإذا بانت منه بينونة صغري أي إنقضت عدتها دون أن يراجعها ، ثم عقد عليها بعقد ومهر جديدين ، فلا يجوز له تطليق مرته إلا مرتان ثم تبين منه بعد الطلقة الثالثة بينونة كبري، فلا يجوز له إرجاعها بعد ذلك أبدا إلا إذا تزوجت غيره دون ترتيب او تواطؤ من أي منهم .

النوع الثاني أن تكون المرأة ليست من ذوات الحيض إما لمرض ، أو لكبر في السن أوببلوغ سن اليأس وإنقطاع حيضها ، أو لصغر سنها ، فكل هؤلاء عدتهن بعد الطلاق ثلاثة أشهر.وتجري عليهن نفس شروط المراجعه السابق شرحها في ذوات الحيض .

النوع الثالث هو أولات الأحمال ، فعدتهن للطلاق أن يضعن حملهن ، وتكون مراجعتها بنفس الشروط السابق ذكرها .

وهناك عدة خاصة للمتوفي عنها زوجها وهي أربعة أشهر وعشرا ، وقد تفشت بعض الأبحاث العلمية المرتبطه بدراسات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم التي تثبت حكمة عظيمة للفرق بين عدة المطلقة وعدة المتوفي عنها زوجها ، تشير هذه الأبحاث أن العلاقة بين الرجل والمرأة القائمة علي الزواج الشرعي الإسلامي التي تحرم الزنا وتجعل المرأة لرجل واحد هو زوجها ، هذه العلاقة تولد شفرة جينية في رحم المرأة تجعله لايتقبل أي علاقة جنسية جديدة لفترة محددة ، إكتشفوا أن هذه الفترة تساوي فترة العدة الشرعية للمطلقة وهي ثلاثة أشهر تقريبا ، تزيد إلي أربعة أشهر وعشرا للمتوفي عنها زوجها ربما للعوامل النفسيه بسبب الأحزان المترتبة علي مصيبة الموت والله أعلم . وقد تضمنت آية الأحزاب بعض أحكام الطلاق ، سنتعرض لها في معرض الحديث عن عدة النساء عند الطلاق قبل الدخول

وهن النوع الأخير من النساء اللاتي لاترتبط عدتهن بالحيض.
من هذه الأحكام، إِطْلَاقُ النِّكَاحِ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَصْرَحُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي النِّكَاحِ :هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ، أَوْ فِي الْوَطْءِ، أَوْ فِيهِمَا؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، وَاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْعَقْدِ وَالْوَطْءِ بَعْدَهُ، إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ اسْتُعْمِلَ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ :(إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ). وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طَلَاقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِها يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره [وَقَوْلُهُ : {الْمُؤْمِنَاتِ} خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ؛ إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكِتَابِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ. وَقَدِ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ المسَيَّب، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، زَيْنُ الْعَابِدِينَ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَهُ نِكَاحٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}، فَعَقَّبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَقَعُ قَبْلَهُ. وَهَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَطَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.]
ثم قال [وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِذَلِكَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(لَا طَلَاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ (١٠٣).
وَقَوْلُهُ : {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا} : هَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا فَتَذْهَبُ فَتَتَزَوَّجُ فِي فَوْرِهَا مَنْ شَاءَتْ، وَلَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا بِالْإِجْمَاعِ أَيْضًا.
وَقَوْلُهُ : {فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا } الْمُتْعَةُ هَاهُنَا أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصَّدَاقِ الْمُسَمَّى، أَوِ الْمُتْعَةَ الْخَاصَّةَ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمَّى لَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} الْبَقَرَةِ: ٢٣٧ وَقَالَ{لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} الْبَقَرَةِ: ٢٣٦
وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أن رسول الله ﷺ تَزَوَّجَ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَاحِيل، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا أَسِيدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رازقيَّين(١٠٤)

---

١٠٣ المسند (١٨٩/٢) وسنن الترمذي برقم (١١٨١) وسنن أبي داود برقم (٢١٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٧)
١٠٤ صحيح البخاري برقم (٥٢٥٦، ٥٢٥٧)

قالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :إِنْ كَانَ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا فَأَمْتِعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَهُوَ السَّرَاحُ الْجَمِيلُ. إنتهي [١٠٥]

قال القرطبي في تفسيره [اسْتَدَلَّ دَاوُدُ- وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ- إِنَّ الْمُطَلَّقَةَ الرَّجْعِيَّةَ إِذَا رَاجَعَهَا زَوْجُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا ثُمَّ فَارَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تُتِمَّ عِدَّتَهَا وَلَا عِدَّةَ مُسْتَقْبَلَةً، لِأَنَّهَا مُطَلَّقَةٌ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا .وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَفِرْقَةٌ :تَمْضِي فِي عِدَّتِهَا مِنْ طَلَاقِهَا الْأَوَّلِ- وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيِ الشَّافِعِيِّ-، لِأَنَّ طَلَاقَهُ لَهَا إِذَا لَمْ يَمَسَّهَا فِي حُكْمِ مَنْ طَلَّقَهَا فِي عِدَّتِهَا قَبْلَ أَنْ يُرَاجِعَهَا. وَمَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي كُلِّ طُهْرٍ مَرَّةً بَنَتْ وَلَمْ تَسْتَأْنِفْ .وَقَالَ مَالِكٌ :إِذَا فَارَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا إِنَّهَا لَا تَبْنِي عَلَى مَا مَضَى مِنْ عِدَّتِهَا، وَإِنَّهَا تُنْشِئُ مِنْ يَوْمِ طَلَّقَهَا عِدَّةً مُسْتَقْبَلَةً. وَقَدْ ظَلَمَ زَوْجُهَا نَفْسَهُ وَأَخْطَأَ إِنْ كَانَ ارْتَجَعَهَا وَلَا حَاجَةَ لَهُ بِهَا. وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ، لِأَنَّهَا فِي حُكْمِ الزَّوْجَاتِ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ فِي النَّفَقَةِ وَالسُّكْنَى وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ تَسْتَأْنِفُ الْعِدَّةَ مِنْ يَوْمِ طَلُقَتْ، وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ فُقَهَاءِ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالشَّامِ .وَقَالَ الثَّوْرِيُّ :أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عِنْدَنَا عَلَى ذَلِكَ ، فَلَوْ كَانَتْ بَائِنَةً غَيْرَ مَبْتُوتَةٍ (بينونة صغري) فَتَزَوَّجَهَا فِي الْعِدَّةِ ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ أَيْضًا، فَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَزُفَرُ وَعُثْمَانُ الْبَتِّيُّ :لَهَا نِصْفُ الصَّدَاقِ وَتُتِمُّ بَقِيَّةَ الْعِدَّةِ الْأُولَى. وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَابْنِ شِهَابٍ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ،: لَهَا مَهْرٌ كَامِلٌ لِلنِّكَاحِ الثَّانِي وَعِدَّةٌ مُسْتَقْبَلَةٌ. جَعَلُوهَا فِي حُكْمِ الْمَدْخُولِ بِهَا لِاعْتِدَادِهَا مِنْ مَائِهِ .وَقَالَ دَاوُدُ :لَهَا نِصْفُ الصَّدَاقِ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا بَقِيَّةُ الْعِدَّةِ الْأُولَى وَلَا عِدَّةٌ مُسْتَقْبَلَةٌ. وَالْأَوْلَى مَا قَالَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .هَذِهِ الْآيَةُ مُخَصِّصَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى{ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} البقرة: ٢٢٨، وَلِقَوْلِهِ{ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} الطلاق: ٤ .وَقَدْ مَضَى فِي الْبَقَرَةِ وَمَضَى فِيهَا الْكَلَامُ فِي الْمُتْعَةِ ، فَأَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ هُنَا{ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا} فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ دَفْعُ المتعة بحسب الميسرة والعسرة، قاله ابْنُ عَبَّاسٍ

الثَّانِي- أَنَّهُ طَلَاقُهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَقِيلَ :فَسَرِّحُوهُنَّ بَعْدَ الطَّلَاقِ إِلَى أَهْلِهِنَّ، فَلَا يَجْتَمِعُ الرَّجُلُ وَالْمُطَلَّقَةُ في موضع واحد . إنتهي [١٠٦]

---

١٠٥ تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي

١٠٦ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي

الفصل الثالث

حكم الحجاب

نبذة تاريخية

هذه النبذة التاريخية لا غني عنها لبيان أن الحديث عن حكم الحجاب ليس بجديد ، وأن هذا الموضوع قتل بحثا منذ أكثر من عام ، وتناولته أقلام تفوق الحصر بين موييد ومعارض ، بين دعاة الحق ومروجو الباطل ، وعلي ذلك فالحديث عن الحكم نفسه قد لايضيف جديدا بدون هذه المقدمه .

وقد إقتبست هذه المقدمه من كتاب (عودة الحجاب) [١٠٧] للدكتور محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم [١٠٨] .

في المقدمة نقول أن الصراع بين الحجاب والسفور قديم ، تعود بدايته إلي أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، عندما إجتاح طوفان الإستعمار الغربي الممالك الإسلامية ، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الصراع تحول إلي معركة فكرية بين دعاة الحق من أنصار الحجاب والفضيلة بشكل خاص وعلماء الشريعه بشكل عام وبين دعاة التغريب والتحلل الأخلاقي ، ولا أظن أن حكما شرعيا من أحكام الإسلام قد نال جدلا كالذي ناله حكم حجاب المرأة المسلمه .

والحجاب لايجب حصره في مجرد اللباس الشرعي للمرأة ، وإنما هو في الحقيقة هو جملة من الأحكام التي تشتمل علي أهم أجزاء النظام الإجتماعي في الإسلام ، فإذا وضعت هذه الأحكام في موضعها الصحيح في المجتمع الإسلامي حينئذ لن يجد أصحاب البصيرة والفطرة السليمة صعوبة في فرض اللباس الشرعي للمرأة والذي يطلق عليه مجازا الحجاب ، ولن نكون في حاجة لكل هذا الجدل .

خصوم الإسلام والكارهين لتطبيق شرع الله يدركون أن الحجاب ليس مجرد اللباس الشرعي للمرأة وإنما هم يتخذونه (اللباس الشرعي) مدخلا لمعركتهم الكبري مع منظومة الأحكام الشرعيه للحجاب وإن شئت فسمها منظومة أحكام الأسرة المسلمة في الإسلام وذلك لأن حكم اللباس الشرعي هو أظهر

---

١٠٧ كتاب عودة الحجاب للدكتور محمد إسماعيل المقدم – الطبعة السادسة -القاهرة (١٤١٢ه)-دار الصفوة – القسم الأول (معركة الحجاب والسفور) (قضية المرأة بين المنهزمين والمتآمرين) ص ١٥-٩١

١٠٨ محمد بن أحمد بن إسماعيل بن مصطفي بن المُقدَم، يكنى "أبا الفرج".. ولد بالأسكندرية في غرة ذى القعدة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٢٦ يوليو ١٩٥٢ م. طبيب حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة، ومن مشايخ الدعوة السلفية بمصر والعالم الإسلامي نشأ لأول مرة في جماعةأنصار السنة المحمدية، وعمل بالدعوة السلفية لأول مرة سنة ١٩٧٢ م، ثم كان تأسيس المدرسة السلفية بالإسكندرية سنة ١٩٧٧ م إذ ضم لها بعد ذلك كثيرا من علماء الدعوة آنذاك.

هذه الأحكام وعنوانها ، وترتبط به أحكام أخري أهمها مايلي :
أولا : تعليم وعمل المرأة المسلمة
ثانيا : إختلاط المرأة المسلمة بغير محارمها
ثالثا : نظام الزواج في الإسلام
رابعا : حكم تعدد الزوجات
خامسا : نظام الطلاق في الإسلام
هذه المنظومة كاملة هي الهدف الرئيسي من معركة الحجاب والسفور والتي بدأت مع الإستعمار الغربي للممالك الإسلامية ، وقد كانت مصر بلد الأزهر هي الساحة التي دارت علي أرضها هذه المعركة .
كانت منظومة أحكام الأسرة المسلمة بما فيها الحجاب أمنة مستقرة لا يجرؤ أحد من المسلمين علي المساس بها حتي بداية حكم محمد علي لمصر ، وبدأ في إرسال البعوث إلي أوروبا لنقل النهضة الأوروبية إلي مصر لتحديثها وتطويرها علي النظام الأوروبي ، وكان في مقدمة هذه البعثات بعثه لفرنسا ، جعل من أعضائها شيخا أزهريا هو الشيخ رفاعة الطهطاوي [١٠٩] كإمام وواعظ للمبعوثين ليؤمهم في الصلاة ويقوم علي أمور دينهم حماية لأعضاء البعثة من التأثر بنمط الحياة الغربية المتحللة من القيم الدينية .

---

١٠٩ رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ هـ/١٨٠١ - ١٢٩٠ هـ)١٨٧٣)وُلد رفاعة رافع الطهطاوي في ١٥ أكتوبر ١٨٠١، بمدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر ، نشأ في عائلة ملحوظة من القضاة ورجال الدين فلقي رفاعة عناية من أبيه، فحفظ القرآن الكريم، وبعد وفاة والده رجع إلى موطنه طهطا، ووجد من أخواله اهتماماً كبيراً حيث كانت زاخرة بالشيوخ والعلماء فحفظ على أيديهم المتون التي كانت متداولة في هذا العصر، وقرأ عليهم شيئا من الفقه والنحو. التحق رفاعة وهو في السادسة عشرة من عمره بالأزهر في عام ١٨١٧ وشملت دراسته في الأزهر الحديث والفقه والتفسير والنحو والصرف، وغير ذلك. خدم بعدها كإمام في الجيش النظامي الجديد عام ١٨٢٤. يبدأ المنعطفُ الكبير في سيرة رفاعة الطهطاوي مع سفره خارج مصر لأول مرة سنة ١٢٤٢هـ /١٨٢٦م إلى فرنسا ضمن بعثة عددها أربعين طالبًا أرسلها محمد علي على متن السفينة الحربية الفرنسية (لاترويت(بالفرنسية: La truite)) في ١٣ أبريل ١٨٢٦ لدراسة اللغات والعلوم الأوروبية الحديثة، وكان عمره حينها ٢٤ عامًا.كان الشيخ حسن العطار وراء ترشيح رفاعة للسفر مع البعثة كإمامٍ لها وواعظٍ لطلابها، وكان بينهم ١٨ فقط من المتحدثين بالعربية، بينما كان البقية يتحدثُون التركية، وذهب بصفته إمامًا للبعثة ولكنه إلى جانب كونه إمام الجيش اجتهد ودرس اللغة الفرنسية هناك وبدأ بممارسة علم، وبعد خمس سنواتٍ حافلة أدى رفاعة امتحان الترجمة، وقدَّم مخطوطة كتابه الذي نال بعد ذلك شهرة واسعة(تخليص الإبريز في تلخيص باريز)

وكما يقول القائل (من للشاة إذا كان راعيها الذئب) ، فالشيخ رفاعة الطهطاوي المبعوث مع البعثة إماما وواعظا للمحافظة علي دينهم من التلوث بجراثيم الحياة الغربية ، إذا به يعود وهو الذي أصيب بجراثيمها وعاد ليضع أول بذرة لدعوات دخيلة علي البيئة المصرية المسلمة مثل الدعوة إلي فكرة (الوطنية القومية) بمفهومها المادي المحدود الذي يصطدم مع الرابطة الإسلامية بين المسلمين مهما تباعدت أوطانهم ، وكذلك إستوحي أفكارا عن المرأة هي أبعد مايكون عن شرائع الإسلام وآدابه ، وقد تجلي ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم المرأة ، وتعدد الزوجات ، وتحديد الطلاق ، وإختلاط الجنسين .

وقد حوي كتابه (تخليص الأبريز في تلخيص باريز) الذي كتبه أثناء إقامته في فرنسا وعرضه علي أستاذ له أسمه (جوبار) قبل أن ينشره بعد عودته ، حوي هذا الكتاب في صفحة ٣٠٥ مانصه (أن السفور والإختلاط بين الجنسين ليسا داعيا للفساد) وذلك ليجد مسوغ لدعوته إلي الإقتداء بالفرنسيين حتي في إنشاء المسارح والمراقص ، مدعيا ما معناه أن الرقص علي الطريقة الأوروبية ليس من الفسق في شيئ وإنما هو أناقة وفتوة .

وكان هذا الكتاب دعوة جريئة من "رفاعة" لم يجد لها معارضا ، خاصة وأن حاكم البلاد بارك هذه الدعوة ، وبارك أول كتاب وضعه رفاعة وهو (تخليص الأبريز في تلخيص باريز) والذي يبرز فيه تقدم الغرب ، ويحسن لمواطنيه الإنتفاع بتقدمه ، وأكثر من هذا فقد قرأ (محمد علي) الكتاب قبل نشره بناءا علي تزكية من الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر (وهو من رشح الطهطاوي للبعثه) ، فأمر بطبعه وأصدر الأوامر بقرائته في قصوره وتوزيعه علي الدواوين والمواظبة علي تلاوته والإنتفاع به في المدارس المصرية ، بل أمر بترجمته إلي التركيه .

عندما تولي الخديوي إسماعيل الحكم سار علي نهج أسلافه بخطي أوسع وأسرع ، وتوسع في تحول نمط حياة المصريين الشرقي إلي النمط الأوروبي الغربي ، وقد ألف (رفاعة الطهطاوي) كتابا جديدا بناءا علي أمر من الخديوي إسماعيل أسماه (المرشد الأمين) قبل إفتتاح أول مدرسة للبنات ترعاها الحكومة بعام واحد وقبل موت رفاعة بأعوام قليلة .

ولما كان الخديوي إسماعيل يقود في بداية تلك المرحلة حركة التحديث الكبري في كل الميادين السياسية والفكرية والإجتماعية ، فقد حاول أن يقنع أهل الرأي بتأليف كتاب في الحقوق والواجبات يطبقه في المحاكم ، بحيث يكون سهل العبارة ، مرتب المسائل علي نحو ترتيب القوانين الأوروبية ، ولكن رفض أهل الرأي من مشايخ الأزهر هذه الدعوة ، فطلب الخديوي من

(رفاعة) إقناعهم بذلك ولكنه إعتذر قائلا "إنني يامولاي قد شخت ، ولم يطعن أحد في ديني ، فلا تعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي ، وأقلني من هذا الأمر فأقاله) ، وكان أن إنزوي (الطهطاوي) بعيدا عن الصدارة وإنتأي بعيدا ليحتل مكانه الشيخ "محمد عبده" الذي كان في ذلك الوقت في شرخ الشباب ، يحدوه جرأة الشباب وإقدامه ، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل مايسمي بـ"تحرير المرأة".

بدأت المرحلة الجديدة بعزل الخديوي إسماعيل بعد أن أثقل مصر بالديون لأوروبا ، وذلك نتيجة فتح أبواب هائلة للإنفاق علي الحفلات الصاخبة ، والإهتمام بالغناء والموسيقي ، وتقريب المغنين الذين كانوا لاذكر لهم في الأوساط الراقية أمثال ألمظ وعبده الحامولي ، وأدخل التمثيل والمسارح ، وفي النهاية عجزت مصر عن سداد ديونها لأوروبا بقيادة فرنسا وإنجلترا ، فقرروا عزل إسماعيل وتولية إبنه توفيق تجنبا لإعلان إفلاس مصر .

وكانت مشكلة الديون أكبر من أن يقدر علي حلها شاب قليل الخبرة مثل توفيق ، وانتهي به الحال إلي تسهيل إحتلال إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢ ومحاكمة عرابي بتهمة الخيانة لمقاومته الإحتلال.

مرقص فهمي : القذيفة الأولي

كان الإحتلال الإنجليزي لمصر هو تدشين لمرحلة جديدة من الهجوم علي الثوابت الإسلامية ، ففي سنة ١٨٩٤ أي بعد الإحتلال الإنجليزي لمصر بحوالي إثنتي عشرة سنة ، ظهر أول كتاب في مصر أصدره صليبي حقود من أولياء (كرومر) الملقب باللورد وهو المندوب البريطاني لحكم مصر ، ظهر هذا الكتاب بإسم (المرأة في الشرق) لمؤلف إسمه (مرقص فهمي) المحامي [١١٠] محتميا بالنفوذ البريطاني الذي أمن له الطريق نحو الطعن في الإسلام

---

١١٠ مرقس فهمى ولد عام ١٨٧٠ فى إحدى محافظات الصعيد، وانتظم فى مراحل الدراسة والتحق بمدرسة الحقوق فى القاهرة وتخرج عام ١٨٩١ وانخرط فى الحركة الوطنية وشارك فى ثورة ١٩١٩ وكان واحدا من الذين أسسوا نقابة المحامين وهى أول نقابة مهنية فى مصر، كما شارك فى الدعوة لتحرير المرأة وسبق قاسم أمين فى هذه الدعوة إذ أصدر كتابه «المرأة فى الشرق» عام ١٨٩٤ قبل أن يصدر قاسم أمين كتابه الأول «تحرير المرأة» بخمس سنوات، وفيه يدعو للسفور لأن الحجاب يمنع المرأة من أن تتعلم وتشارك فى الحياة الوطنية وتختلط بغيرها من المواطنين. كما يدعو مرقس فهمى لتقييد الطلاق حماية للأسرة ومنع تعدد الزوجات، وأن يسوى بين المرأة والرجل فى الزواج من أصحاب الديانات الأخرى، لأن الزواج تتويج لعاطفة مشتركة لايمنعها اختلاف الدين. (من مقال لأحمد عبد المعطي حجازي في جريدة الهرام بتاريخ ٢٩ من ذي الحجة ١٤٣٨ هـ ٢٠ سبتمبر ٢٠١٧ السنة ١٤٢ العدد ٤٧٧٧٠

وأهله ، ودعا فيه صراحة ، وللمرة الأولي في تاريخ المرأة المسلمة إلي تحقيق أهداف محددة تمس ثوابت منظومة أحكام النظام الإجتماعي في الإسلام وهي :

أولا : القضاء علي الحجاب الإسلامي

ثانيا : إباحة إختلاط المسلمة بالأجانب عنها

ثالثا : تقييد الطلاق وإيجاب وقوعه أمام المحاكم

رابعا : منع الزواج بأكثر من واحدة

خامسا : إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط .

وقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة ، ولم يلبث المسلمون حين صدموا به حتي إنطلقت في غمرات هذه الضجة قذيفة أخري تفجرت في الوسط الإسلامي .

عندما حدثت الضجة العنيفة علي كتاب النصراني (مرقص فهمي) بدأ الإستعمار الإنجليزي إثر هذه الضجة البحث عن وسيلة لشد أزره فلجأ إلي الأميره (نازلي فاضل) [١١١] . كان لهذه المرأة (نازلي فاضل) دورا خطيرا

---

١١١ الأميرة نازلي فاضل هي نازلي بنت مصطفى فاضل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا (١٨٥٣ - ١٩١٤). اميرة من الاسرة العلوية تميزت بصالونها الثقافي الذي كان يضم العديد من المثقفين والكتاب ، ولدت الأميرة نازلي زينب عام ١٨٥٣ م (و قد كانت الأسماء المركبة عادة شائعة لدى أبناء الأسرة العلوية)، وهي ابنة الأمير مصطفى بهجت فاضل ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير مؤسس الأسرة العلوية. كان لديها ١٠ أشقاء و٥ شقيقات (هي أكبرهم سنا)، لكنها كانت الابنة الوحيدة لوالدتها "دال أزاد هانم"، إحدى زوجات مصطفى فاضل. والدها هو مصطفى فاضل باشا الأبن الأكبر لإبراهيم باشا والذي كان سيخلفه لولا اتفاق بين الخديوي إسماعيل مع الباب العالي لتنصيبه بدلا من اخيه. مما وقع خلاف نتج علي اثره مغادرة مصطفي فاضل واسرته مصر الي الاستانة ولم يعود الا بعد وفاة الخديوي إسماعيل، قد ورث الأخوان العداوة لبعضهما من أميهما زوجتي إبراهيم باشا، وساعد على ذلك فوز إسماعيل بالعرش وجعله انتقال العرش بالوراثة حتى يؤول لابناؤه من بعده؛ مما أوقع خلافًا نتج علي اثره مغادرة مصطفي فاضل واسرته مصر والانتقال للإقامة الدائمة ما بين الآستانة و أوروبا ولم يعد إلا بعد وفاة الخديوي إسماعيل، الأمر الذي كان له بالغ الأثر على حياة الاميرة التي كانت في الثالثة عشر من عمرها، فاحتفظت بالعادات الشرقية نظرًا لإقامتها وقت طويل بالأستانة، وامتزجت هذه العادات بالثقافة الغربية التي نهلت منها في تلك المرحلة ، عين زوجها خليل باشا لأول مرة وزيرًا للعدل عام ١٨٧٦ ثم سفيرًا إلى باريس عام ١٨٧٧.وقد سافرت نازلي مع زوجها لتبدأ هناك واحدة من أهم مراحل حياتها. فتفاعلت نازلي مع البيئة الثقافية من خلال القراءة والتعلم وكذلك التواصل والإنفتاح على الآخرين. وقد كانت الصالونات الأدبية تلقى رواجًا كبيرًا في باريس. خلال تلك الفترة، شهدت نازلي هذه الصالونات وفهمت الدور الحيوي الذي لعبته في التنمية الثقافية في المجتمع.اختلفت المراجع في سبب انفصالها عن زوجها .

في هذا الصراع بين المتآمرين علي شرائع الإسلام ودعاة الحق المدافعين عن الإسلام ، وذلك بما لها من نفوذ وعلاقات بالخديوي توفيق ، وبما لها من تأثير علي رواد صالونها الثقافي الذي عادت به من باريس.

نازلي فاضل : أميرة المؤامرة

وفى هذا الصالون إنتقلت روح عصر النهضة والتنوير والحداثة من صاحبة الصالون الأميرة الشابة إلى جمهور صالونها وأهمهم محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين والأديب السوري عبدالرحمن الكواكبي .وفى مرحلة لاحقة هدي سلطان التى ستعرف فى تاريخ مصر بإسم هدي شعراوي.

و بسبب هذا الصالون تزوج "الفلاح" سعد زغلول (بعد أن خلع ملابسه الأزهرية وارتدي الزي العصري) من صفية ابنة مصطفي باشا فهمي الذى رأس الحكومة المصرية من ١٨٩٥ الى ١٩٠٨. ومن خلال هذا الصالون ظهر التأثير الخطير لهذه المرأة في ظهور فتنة قاسم أمين

كان قاسم أمين من تلاميذ مدرسة الشيخ محمد عبده [١١٢] التنويرية التي كان هدفها الرئيسي إقامة سد في وجه التيار العلماني اللاديني ليحمي المجتمع العلماني من طوفانه ، وذلك بقطع الطريق علي هذا التيار بإنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري و إعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر.

ومع وجود بعض الجوانب المشرقه في منهاج (محمد عبده) إلا أننا لانستطيع أن نتجاهل نشاطه حيث كان له أخطر الأثر في عملية التغريب وتقريب الأمة الإسلامية من القيم الغربية ، مما جعل اللورد كرومر يشيد بدعوته وبتلامذته ، ودعوة (تحرير المرأة) كانت جزءا من منهج كلي شمل كافة اتجاهات الحياة في المجتمع المصري ، وقاسم أمين الذي تولي زعامة هذه الدعوة كان أحد تلامذة (محمد عبده) ، بل كان مترجمه الخاص عندما إلتقيا في فرنسا .

---

١١٢ محمد عبده (١٢٦٦هـ – ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩م – ١٩٠٥م) عالم دين وفقيه ومجدد إسلامي مصري، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، ساهم بعد التقائه بأستاذه جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري و إعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر

قاسم أمين الصدمة الكبري

تزامن مع صدور كتاب (مرقص فهمي) صدور كتاب آخر لسائح إنجليزي (الدوق داركير) بإسم (المصريون) بعد عدة زيارات لمصر ، حمل فيه علي نساء مصر ، وهاجم المصريون ، وتعدي علي الإسلام ، ونال من الحجاب الإسلامي ، وقرار المرأة المسلمة في البيت ، وإقتصار وظيفتها علي تربية النشء ورعاية الزوج ، وهاجم المثقفين المصريين بصفة خاصة لسكوتهم وعدم تمردهم علي هذه الأوضاع .

عندما قرأ قاسم أمين[١١٣] هذا الكتاب تألم أشد الألم ، فحاول أن يدافع عن المصريين والإسلام فألف كتابا بالفرنسية بنفس الإسم ، حاول فيه الدفاع عن المصريين وتفنيد إتهامات (داركير) ، وبين فضائل الإسلام علي المرأة المصرية ، ورفع من شأن الحجاب ، وحاول شرح الحكمة الإيجابية من قوانين الشرع الإسلامي ، إلا أن دفاعه بدا متهافتا لأنه كان تبريريا ، وشرحه أتسم بالخنوع والتذلل وكأنه يناشد (داركير) أن يعتبر الإسلام في مرتبة النصرانية أو المجوسية في الجانب الأخلاقي .

---

١١٣ قاسم محمد أمين (١٢٨٠ هـ - ١٣٢٦ هـ) (١ ديسمبر ١٨٦٣م - ٢٣ أبريل ١٩٠٨م). كاتب وأديب ومصلح اجتماعي مصري وأحد مؤسسي الحركة الوطنية في مصر وجامعة القاهرة كما يعد رائد حركة تحرير المرأة. ولد في بلدة طرّة بمصر في أول ديسمبر ١٨٦٣م من أب تركى وأم مصرية من صعيد مصر وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة طارق بن زياد التي كانت تضم أبناء الطبقة الارستقراطية. انتقل مع أسرته إلى القاهرة وأقام في حي الحلمية الأرستقراطي وحصل على الثانوية العامة فالتحق بمدرسة الحقوق والإدارة ومنها حصل على الليسانس عام١٨٨١، وقد كان أول متخرج. عمل بعد تخرجه بفترة قصيرة بالمحاماة ثم سافر في بعثة دراسية إلى فرنسا وانضم لجامعة مونبلييه. بعد دراسة دامت أربع سنوات، أنهى دراسته القانونية بتفوق عام ١٨٨٥، وأثناء دراسته بفرنسا جدد صلاته مع جمال الدين الأفغاني ومدرسته حيث كان المترجم الخاص بالإمام محمد عبده في باريس.

نشرت جريدة " الطاهر " عام ١٩٠٦ اعترافات له حيث قال " لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفرنج في (تحرير نسائهم) وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق الحجاب وإشراك المرأة في كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم ولكن ... أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس، فلقد تتبعت خطوات النساء من أحياء العاصمة والإسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات، فرأيت من فساد أخلاق الرجال وأخلاقهن بكل أسف ما جعلني أحمد الله ما خذل دعوتي واستنفر الناس إلى معارضتي ... رأيتهم ما مرت بهم امرأة او فتاة إلا تطاولوا عليها بألسنة البذاءة، وما وجدت زحاماً فمرت به امرأة إلا تعرضوا لها بالأيدي والألسن

وأستنكر قاسم أمين في كتابه (المصريون) خطة بعض السيدات المصريات اللاتي يتشبهن بالأوربيات ، فأقتنص بعض خصومه الفرصة ، ووشوا به إلي الأميرة نازلي بأنه يعنيها بهذا الذم والإستنكار ، لأنه لم يكن غيرها في نساء مصر آنذاك من يتشبه بالأوربيات غيرها ، فقد كانت الوحيدة التي تختلط بالرجال وتجالسهم في صالونها .

عندئذ غضبت الأميرة غضبا شديدا ، وقالت للشيخ (محمد عبده) قولا شديدا بعد أن هددت ، وتوعدت ، وأشير علي جريدة المقطم لسان حال الإنجليز وقتها بكتابة ستة مقالات لتعقب آراء قاسم أمين .

ثم ألغيت هذه الحملة بعد أن تدخل (محمد عبده) و (سعد زغلول) بإقناع قاسم أمين بضرورة الإعتذار للأميرة وتصحيح خطؤه بنشر كتاب يصحح فيه خطؤه ، ويؤيد فيه الدوق (داركير) ويواصل مناصرته لكتاب (مرقص فهمي) (المرأة في الشرق) ، فقبلت إعتذاره ، وأخذ يتردد علي صالونها ، وإرتفع مقامها عنده ، وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة، الذي كان الفضل فيه للأميرة نازلي ، والذي أقام الدنيا وأقعدها ، بعد أن كان قاسم أمين أكثر الناس دفاعا عن الحجاب .

وهكذا خرج "قاسم أمين" علي البلاد بكتابه "تحرير المرأة" سنة (١٨٩٩م)ودعا فيه إلي نفس ماسبق أن دعا إليه ذلك الصليبي بحذافيره ، اللهم إلا أنه لم يتعرض لمسألة زواج المسلمات من الأقباط .

كان الشيخ (محمد عبده) مقربا من الأميرة نازلي وقد سعي لأستاذه (الأفغاني) كي يتوسط لها لدي السلطان في الآستانه في تركيا ، لكي يمنحها وساما سلطانيا ،

في المقابل سعت الأميرة (نازلي) لدي الخديوي (توفيق) ، ولدي اللورد للعفو عن الشيخ (محمد عبده) عقب عودته من منفاه بسبب مشاركته في ثورة عرابي في شبابه ، وتم المراد وعفا عنه الخديوي .

وكما ظهر تأثيرها علي (قاسم أمين) في كتابه (تحرير المرأة) ، فقد ظهر تأثيرها أيضا علي موقف الشيخ (محمد عبده) من الإنجليز الذين كان يشتد عليهم قبل التعرف علي الأميرة ، أثناء صحبة الأفغاني وعقب الثورة العرابية ، أما بعد إتصال الشيخ بها ، وكانت صديقة لبعض الإنجليز ، فقد خفت حملته ضد إنجلترا ، وسمح بمصادقة اللورد كرومر صديق الأميرة ، وكذلك خفوت صوته تماما في الرد علي قاسم أمين .

كان من المعروف عن قاسم أمين أنه ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية بحيث يتمكن من إضفاء الصبغة الفقهية علي كتابه ، ومن هنا شاع بين الناس وقتها أن مؤلفه في الحقيقة هو أستاذه (محمد عبده) .

قال الدكتور "محمد محمد حسين" (جاء كتابه –تحرير المرأة- مملوءا بالمغالطات سواء في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الأدلة العقلية ، وهذا الإتجاه الذي يفسر النصوص تفسيرا جديدا مخالفا لكل ماهو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من إتجاه عام تزعمه الشيخ "محمد عبده" متذرعا إليه بالدعوة إلي فتح باب الإجتهاد والتجديد ، الذي زعم أن الفقهاء أغلقوا بابه ، وهو يدعو إلي الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية) (١١٤)

ومما أورده أحمد لطفي السيد في مذكراته (أنه إجتمع في جنيف عام ١٨٩٧م بالشيخ (محمد عبده) و "قاسم أمين" و"سعد زغلول" وأن قاسم أمين أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب (تحرير المرأة) وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ "محمد عبده"

وقال الدكتور "محمد عمارة " جامع الأعمال الكاملة لـ(محمد عبده) و(قاسم أمين) ومحققها (...ففي تحرير المرأة وبالذات في الفصول التي تتناول وجهة نظر الشريعة والدين في هذه القضية ، نلتقي بمجموعة من الآراء الفقهية لايستطيع أن يبحثها ، ولا أن يستخلصها كاتب مثل قاسم أمين ، وأهم من ذلك نجد أحكاما كلية تدل علي أن صاحبها ومصدرها قد استقصي بحث هذا الأمر في جميع مصادره الرئيسية في الفكر الإسلامي ، علي إختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية وهو الأمر الذي لانعتقد أنه قد توافر في ذلك العصر سوي لقلة قليلة في مقدمتهم جميعا الأستاذ الإمام (محمد عبده).

بينما يجزم د.محمد عمارة في موضع آخر بهذه النسبة المشار إليها آنفا بقوله –وهويعدد إنجازات الشيخ "محمد عبده" (ومن أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة ، الفصول التي شارك بها في كتاب "تحرير المرأة" لقاسم أمين سنة ١٨٩٩م.

وقد بالغ بعض الكتاب فرأي أن فصولا كاملة بنصوصها في كتاب "تحرير المرأة" كتبها الشيخ "محمد عبده"من إنشائه ، وهي الفصول التالية :

١- حجاب النساء من الجهة الدينية ص(٥٩-٧٢)
٢- الزواج ص(١٢٣-١٣٢)
٣- تعدد الزوجات ص (١٣٣ – ١٤٠)
٤- الطلاق ص (١٤١ – ١٦٤)

والأرجح أنه من فكر الشيخ "محمد عبده" وإنشاء كاتبها ، فالشيخ هو الذي

---

١١٤ "الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢٨١/١ – ٢٨٢) للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله

وجه الأفكار ، وأرشد إلي مايحتاجه الكاتب من نصوص الكتاب والسنة وكتب الفقه الإسلامي ، وهو الذي أرشده بتوجيهاته أثناء الكتابة أو قراءة أصول الكتاب قبل طبعه ، كما جاء في مذكرات "أحمد لطفي السيد".
والمعروف عن الشيخ "محمد عبده" أنه كان يملي الأفكار ، ويوجه إليها أكثر مما يكتب ، هكذا فعل مع "قاسم أمين" ومع أشهر تلاميذه في مجال الإصلاح الإسلامي السيد "محمد رشيد رضا "

دور سعد زغلول

قال الصحافي "مصطفي أمين" : (كان "قاسم أمين" لايفترق عن "سعد زغلول" وكان "قاسم أمين" هو الذي توسط في زواج "سعد زغلول " بصفية زغلول ، وكان سعد زغلول هو الذي وقف إلي جوار "قاسم أمين" عندما أصدر كتاب "تحرير المرأة" ، وهوجم بعنف وضراوة، وأتهم بالكفر والدعارة ، ومنع من دخول قصر الخديوي بدعوي أنه يدعو إلي الأباحيه ، وأغلق الناس بيوتهم في وجهه ، وذهب عدد من الشباب المتحمسين إلي بيته في شارع الهرم ، وأقتحموا بيته ، وطالبوا "قاسم أمين" أن يسمح لهم بأن يجتمعوا بزوجته علي إنفراد تطبيقا لدعوته إلي سفور المرأة.
عندما أغلق كبار المصريين بيوتهم في وجه "قاسم أمين" فتح "سعد " له بيته ودعاه هو وزوجته لتناول الغداء والعشاء علي مائدته ومائدة "صفية زغلول" ، وأصر أن يخرج في سيارته مع "قاسم أمين" ويطوف شوارع العاصمة متحديا للأصدقاء الذين نصحوه بأن لايظهر مع "قاسم أمين " في مكان عام وإلا ضربه الناس بالطوب ، وعندما وضع "قاسم أمين" كتابه الثاني "المرأة الجديدة" متحديا العاصفة الهوجاء ، ومطالبا بأن تحضر المرأة مجالس الرجال ، وتمارس الأعمال الحرة ، أهدي كتابه الجديد إلي "سعد زغلول" صديقه الحميم ونصيره الأول) إنتهي [١١٥]
قال العقاد (وكان –أي "سعد زغلول" – رجلا له رأي في المرأة ، وفيما ينبغي أن تكون عليه شريكة الحياة ، يخالف رأي السواد الأعظم في تلك الأوقات ، وفي جميع الأوقات ، وحسبه في ذلك أنه هو الذي أعان "قاسم أمين" زميله وصديقه الحميم علي إظهار كتابه "تحرير المرأة " وتشجيعه علي إحتمال مالقي في سبيله من سخط وعناء) [١١٦]
وسعد زغلول – في الواقع – هو الذي ضمن تنفيذ أفكار "قاسم أمين " تنفيذا

---

١١٥ نقلا عن "جريدة المساء" الخميس ٤أغسطس ١٩٨٣ مقالة بعنوان (هل إنتحر محرر المرأة)
١١٦ (سعد زغلول) تأليف "عباس محمود العقاد" ص ٥٢٧

عمليا ، فقد رحل الشيخ (محمد عبده) سنة ١٩٠٥ ، ورحل تلميذه "قاسم أمين " بعده بسنوات قليلة ، وكان في ميعة شبابه (الأربعينيات)
ولم يري كل منهما أثرا لأفكاره ، وبقي سعد زغول ، وقد أهلته مواهبه الفذه أن يقود المجتمع ويكيفه كما يريد ، وكانت الظروف الإجتماعية والفورة الوطنيه قد هيأتا الناس لتقبل الأفكار الجديدة ووضعها موضع التنفيذ العملي .
لم يلبث مؤلف (تحرير ألمرأة) حين واجه هذه المعارضة التي أحرجته أن أسفر عن وجهه الحقيقي وخلع ثوب الحياء وقناع التدين وكشف في جرأة وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي ، وهو كتاب " المرأة الجديدة" الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحا ، فالتزم مناهج البحث الأوروبية الحديثه ، التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة ، سواء منها ماجاء من طريق الدين ، وما جاء من طرق أخري ، ولا تقبل إلا مايقوم عليه دليل من التجربة والواقع .
والمرأة الجديدة التي أرادها "قاسم أمين " هي المرأة الأوربية التي أراد من المصرية أن تتحول إليها وتتخذها مثلا أعلي ، قال (هذا التحول هو كل مانقصد ، وغاية مانسعي إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلي هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة علي سلم الكمال ، وأن تكون مثلها تحررا ، فالبنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن ، ويسافرن من أمريكا إلي أبعد مكان في الأرض وحدهن، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة ، متنقلات من بلد إلي أخري ، ولم يخطر علي بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلي خطر ، وكان من تحررها أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، والرجل يري أن زوجته لها أن تميل إلي مايوافق ذوقها وعقلها وإحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها)
ويقول في موضع آخر : (إن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل قي الملكات) ، ويستشهد في معرض كلامه عن أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة بكلام كاتب إيطالي يقول : (إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وإن إختلاف الأجواء لاأثر له في ذلك) ثم يقول في موضع آخر :(لما تخلصت المرأة المصرية من الإستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لاتدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة ، وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء ، أول جيل يظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوي منها ، ويظن الناس أن بلاءا عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون في طور التمرين علي الحرية ، ومع مرور الزمن تتعود المرأة علي إستعمال حريتها ، وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا ، وترتقي ملكاتها

العقلية والأدبية، وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوي بالتربية ، حتي تصير إنسانا شاعرا بنفسه) إنتهي [١١٧] .

ردود الأفعال

تجلت ردود الفعل في موجة عارمة من المعارضة ، كان أكثرها مقالات صحافية ، وقد إتهمه المعارضون بالهذيان ، وبأنه ممن تخطفت زخارف التمدن الغربي بصائرهم ، يري المحاسن ، ولايري المساوئ ، وهاجمه علماء الدين هجوما عنيفا ، وحكم الفقهاء بأنه خرق في الإسلام ومروق من الدين ، وعدها الكثيرون ضربا من المبالغة في تقليد الغربيين ، وأتهمه آخرون بالجناية علي الدين ثم الوطن ، وأنه يرمي إلي قلب الهيأة الإجتماعية المصرية ، ومماألأة الإنجليزعلي ضياع البلاد ، وأنه ينفذ أمنية من أماني الأمم الصليبية التي تريد بها هدم الإسلام ، وتقويض الآداب والأخلاق ، وتحريض النساء علي الفساد ، وأتهموا من يعضد هذه الدعوة بأنه ليس من المسلمين .

وفي المقابل بادر حفنة من الكتاب إلي مناصرة (قاسم) ، وألف بعضهم كتبا لمناصرته ولم يكتف دعاة الحق وأنصار الحجاب بالمقالات العنيفة ، بل ألفوا الكتب العديدة التي بلغت (مائة كتاب) تبطل شبهات "قاسم" وتقيم الحجة عليه من أدلة الشريعة المطهرة .

وكان أول كتاب ألف للرد علي "قاسم أمين" هو كتاب " تربية المرأة والحجاب" وهو أهم ماألف وأعمقها أثرا في الرد عليه ، ألفه "محمد طلعت حرب " الإقتصادي المعروف (طبع سنة ١٨٩٩) .

ونشر " محمد فريد وجدي " الكاتب الإسلامي المعروف عدة مقالات في صحيفتي " المؤيد" و "اللواء" قال في يعضها (إذا أشرنا اليوم بوجوب كشف الوجه والكفين ، سوف ندفع المرأة إلي خلع العذار للنهاية في الغد القريب كما فعلت المرأة الأوربية ، التي بلغت بها حالة التبذل درجة ضج منها الأوربيون أنفسهم .

وهناك من عارض الكتاب من منطلق وطني مثل "مصطفي كامل " الذي تحسس أن وراءه الأصابع البريطانية فوقف منه موقف المقاومة والعناد، وقد بلغ به الحد الذي جعله يفتح صدر صحيفة " اللواء " لكل طاعن علي قاسم أمين وأفكاره ، وقد أبرز موقف الخديوي (عباس حلمي) من هذه الحركة في جريدة اللواء بتاريخ (٢٢ أبريل سنة ١٩٠١ م) بأنه يري في

---

[١١٧] ألمرأة الجديدة – قاسم أمين ص (٧٠ – ٧١)

مسألة الحجاب مايراه الشرع الشريف ويأمر به ، وأصدر أمرا بمنع قاسم أمين من دخول القصر مع أنه مستشار في الدولة.

عود علي بدء

بعد هذا العرض الذي إجتهدت في إختصاره ، وبعد أن أصبحت الأفكار التي فجرت هذا الصراع منذ أكثر من قرن من الزمان ، أصبحت واقعا نعيشه ، لم يتخيل قاسم أمين نفسه أننا يمكن أن نصل إلي ماوصلنا إليه اليوم ، نعود إلي بداية المعركة لنتساءل – ماالذي أوصلنا إلي هذا الحال ؟

الذي أوصلنا لهذا الحال ، أنه بعد أن أفاق المسلمون من صدمة الإستعمار الغربي لبلادهم ، فتحوا أعينهم علي الحال التي قد صاروا إليها ، وقد ذهبت ريحهم ، وزال عنهم فجأة الفخار والإعتزاز الذي طالما تأصل فيهم لبقائهم في عز الغلبة ومجد السيادة قرونا متوالية ، فعادوا يفكرون في أنفسهم كالسكران يفيقه توالي الضربات من عدو شديد ، ويبحثون عن الأسباب التي هبطت بهم إلي هذه الهوة ، غير أن عقولهم لم تكن قد ثابت بعد إلي رشدها ، إذ كان السكر لاريب قد زال عنهم ، ولكن ميزان الفكر مازال مختلا .

فجانب منهم كان يلح بهم الشعور بالذلة والهوان ، ويؤزهم علي تبديل ماهم فيه من الأحوال ، وجانب آخر يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والإرتخاء علي توخي أقرب الطرق وأسهلها لتغيير تلك الحالة ، وقد صدق فيهم قول الله تعالي في سورة الأنفال (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّـهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّـهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾)

ومن جهة ثالثة خارت فيهم قوي الفكر والعقل ، وصدئت ملكات الفكر والذكاء بطول تعطلها عن العمل ، زد علي ذلك كله ما أصابهم من الدهشة والروعة والإنبهار التي تعتري بالطبع أي أمة مهزومة مستعبدة.

وتغلغلت هذه العوامل في محبي الإصلاح من المسلمين واوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية ، وأما الذين فهموها منهم وأدركوها ، فأوعزهم من بعد الهمة والعزيمة مايتشجعون به علي إختيار الطريق الوعرة للرقي والتقدم ، وكان من وراء ذلك كله حالة الروعة والدهشة التي أصابت الطائفتين علي السواء. فلما مضوا بهذه العقلية المريضه الزائفة يريدون الإصلاح ، لم يروا أضمن للرقي ولا أدني للوصول إليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية ، حتي لو كان ثمن ذلك التنازل عن بعض الواجبات الشرعية وصدق رسول الله إذ قال (لتتبعن سنن

من كان قبلكم) [١١٨]
هذه هي الفترة الإنهزامية التي غدت الأمم الإسلامية فيها تحاكي أمم الغرب في كل شيئ ، في الزي واللباس ، وسائر المظاهر الإجتماعية ، في آداب المجالس ، وفي الحركة والمشي ، وفي النطق والتكلم ، حاولوا إعادة تشكيل المسلم علي الصيغة الغربية ، وقبلوا الإلحاد والدهرية والمادية في نشوة ما أسموه التجديد ، بدون حيطة أو شعور بالعواقب ، وعدوا من لوازم التنور والتقدم الفكري إيمان المرء بكل مايصله من الغرب من أفكار ، والإفاضة فيه في مجالسه ، رحبوا بالخمر والقمار والربا ووالتهتك والرقص ، وما إلي ذلك من ثمرات الحضارة الغربية ، ثم سلموا بكل معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والإجتماع والإقتصاد والسياسة والقانون ، حتي في العقائد والإيمانيات .
سلموا حتي بنقد الغرب للإسلام ، وأصبح المسلمون أنفسهم يستحيون من كل مانظر إليه أعداء الإسلام بالتحقير والتعيير ولو كان هذا الشيئ من الثوابت في الشرع الحنيف ، وبدلا من أن يدافع المسلم عن ثوابته ويصحح المفاهيم ، فإذا به يتراجع ويتبرأ مما يستحقره أعداء الإسلام منه.
فإذا إعتبر الغرب جهاد المسلمين في فلسطين إرهابا ، قالوا مالنا وفلسطين ، ومالنا والجهاد ، وإذا إعترض الغرب علي آيات الجزية ، أولوها وقالوا ليست لزماننا ، وإذا تهكم الغرب من حجاب المسلمة قالوا ليس من الإسلام ، بل هو عادة بدوية ، وإذا إنتقد الغرب تعدد الزوجات حاربوه ، حتي الميراث الذي تكفل الله تعالي بتقسيمه ، عدلوه لمساواة الذكر بالأنثي مراعاة لمنظمات حقوق المرأة .
الغريب ، اننا في أيامنا هذه ، وبعد مرور أكثر من مائة سنة علي هذه الدعاوي الباطلة ، يطلع علينا من وقت لآخر من يكرر نفس الكلام من أن الحجاب عادة بدوية ، أو أنه ليس من الإسلام بل مأخوذ من اليهودية ، وآخر يطالب بمنع الحجاب بحجة التأثير النفسي والصحي ، فالكلام قديم يتم تجديده من وقت لآخر .

---

١١٨ صدر حديث رواه الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

منشأ الخلاف في الحجاب

لم يدرك "رفاعة الطهطاوي" وخليفته "محمد عبده" ، أول من أثاروا قضية (تحرير المرأة) في مصر في القرن التاسع عشر الميلادي ، فسنوا بذلك أسوأ السنن ، لم يدركوا هم ومن أيدهم في نقل هذه الآراء الخاصة بمدلول الحرية إلي المجتمع الإسلامي ، يمكن أن ينتهي إلي نفس النتيجة التي إنتهت إليها أوروبا وهي نبذ الدين بالكلية ، وتسفيه رجاله ، والخروج علي حدوده ، لم يدركوا ذلك ، ولم يلاحظوا إلا الجانب البراق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية.

لو قدر الله لأي منهما أن يعش إلي أيامنا هذه بعد حوالي مائة وعشرون سنة من بداية دعوتهما لتحرير المرأة ، ورأوا ماآل إليه حال غالب نساء المسلمين ، لأدركوا حجم الجرم الذي إرتكبوه في حق دينهم وحق أمتهم ، ولأدركوا حجم الإثم الذي إقترفته أيديهم بما كتبوه .

ففي سبيل دفع تهم الجمود التي يلصقها الغربيون بالشريعة رأينا هؤلاء المنهزمين ينجرفون إلي أقصي الطرف المناقض في بيان ماتنطوي عليه الشريعة من مرونة التطبيق ، حتي يبلغوا بهذه المرونة حد الميوعة ، وإنعدام الذات والمقومات ، تلك الميوعة التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلا لأي نظام ، وبذلك ينتهون إلي إلغاء وظيفة الدين ، لأنهم بدلا من تقويم الحياة بنصوص الشريعة يحتالون علي نصوص الشريعة حتي يبرروا بها عوج الحياة المعاصرة.

لو كان البحث في مسألة الحجاب مقصورا علي تعيين الحد الذي وضعه الإسلام لحرية المرأة ، لهان الأمر، ولسهل الحل ، لأن أكثر ما هنالك من الإختلاف بين المسلمين في هذا الباب هو منحصر في وجه المرأة ويديها : هل يجوز إبداؤهما أم لا؟ وليس في هذا كبير خطورة ولكن الواقع غير ذلك .

الواقع في الحقيقة أن هذه المسألة نشات في المسلمين لكون الغرب قد نظر إلي الحجاب والنقاب بعين المقت والإزدراء وعده حبس للمرأة ، وأعتبار ذلك من أبرز عيوب الإسلام .

ثم فعل المنهزمون في هذه المسألة – الحجاب – مثل مافعلوا في مسائل الجهاد ، والرق ، وتعدد الزوجات وماشاكلها من المسائل ، فما كان منهم إلا أن عمدوا إلي الكتاب والسنة يتصفحون أوراقهما ، وإلي كتب الفقه والأحكام ينقبون عن إجتهادات الأئمة فيها ، وأقوال الفقهاء ، لعلهم يجدون في ثناياها مايغنيهم علي أن يغسلوا عن أنفسهم هذا العار الذميم الذي عيرهم به الغربيون .

فإذا بهم يقعون علي أقوال لبعض الأئمة تجيز للمرأة أن تبدي وجهها وكفيها ، وكذلك تخرج من بيتها لحوائجها ، ويؤخذ منها أيضا أن المرأة يجوز لها أن تشارك في الحرب لسقي المجاهدين ومداواة الجرحي ، ووجدوا في تلك الأقوال إذنا بخروج المرأة إلي المسجد للصلاة ، وجلوسها للتعلم والتعليم ، فكفاهم هذا القدر من المعلومات لأن يدعوا أن الإسلام قد أعطي للمرأة حرية مطلقة ، وأن الحجاب من تقاليد الجهلاء ، إتخذه المتأخرون من المسلمين الجامدين المتشددين ، ولا أثر له في آية ولا حديث.

ومن الضعف الطبيعي في الإنسان أنه إذا كون رأيا ما ، أو إتبع مذهبا بنزعة عاطفية غير عقلية ، ثم يأتي بعد ذلك فيستعين بالمنطق والعقل ليثبت كون نزعته العاطفية صحيحة معقولة ، علي طريقة مشجعي كرة القدم ، يتعصبون لفريق ثم يبحثون عن مسوغات لهذا التعصب في طريقة اللعب ، أو مهارة وهمية للاعب.

فتعرضهم لمسألة الحجاب لم يكن لشعورهم بضرورة عقلية أو شرعية ، وإنما أتي من ميلهم ونزوعهم الذي نشأ من تأثرهم ببريق الحضارة الغربية وذلك أن الذين تسموا (بالمصلحين) لما رأوا المرأة الغربية وماهي عليه من زينة وحرية ونشاط في المجتمع الغربي – لما رأوه بعيون منبهرة مسحورة وعقول مندهشة ، تمنوا أن يجدوا ذلك في نسائهم أيضا ، ثم أثرت فيهم الدعوات الجديدة إلي تحرير المرأة وتعليم النساء ومساواتهن بالرجال ، فاستقر في نفوسهم أنه لابد لكل من يرغب أن يكون من (المتنورين التقدميين) ويدفع عن نفسه (الرجعية والتخلف) أن يؤمن بتلك النظريات إيمانه بالغيب.

هذه النزعات والعواطف هي التي دفعت المنهزمين إلي أن يقوموا بحركة مايسمي "تحرير المرأة" ، فمنهم من كانت هذه النزعات كامنة في شعورهم الخفي ، فلا يدرون مالذي يجرهم ، ويدفعهم إلي تلك الحركة ، فكانوا كالمخدوعين ، وآخرين كانوا يشعرون بنزعاتهم تماما ويدركون مايفعلون ، ولكنهم يستحيون ، ويحجمون عن إبداء نزعاتهم الحقيقية ، فهؤلاء لم يكونوا مخدوعين بل دهاة خادعين ، وأيا كان الأمر فقد قام الفريقان بمحاولة إظهار حركته بمظهر العقلية بدلا من العاطفية ، وساق في تأييدها جميع الأدلة التي تلقاها من الغرب مباشرة ، كالقلق علي صحة النساء ، والحالة النفسية للمتعاملين معهن ، وإرتقائهن في مجال الفكر والعمل ، وحقوقهن الفطرية، وإستقلالهن الإقتصادي ، وتخلصهن من ظلم الرجال ، وإستغلوا في ذلك بعض الحالات الفردية التي يمكن أن تحدث في أي مجتمع من ظلم رجل لأمرأة ، ولكن الأدهي والأخبث أنهم عادوا يخدعون الناس في هذا الصدد

بنصوص واستنباطات من الكتاب والسنة في غير موضعها ، بالرغم من وجود البون الشاسع بين المنهج الإسلامي الرباني بمقاصد شريعته العليا ، والمنهج الأوروبي الوضعي بمقاصده البشرية.

فالمقصد الذي يريد أن يحققه المنهج الرباني الإسلامي من خلال نظامه الإجتماعي هو صون الأعراض ، وكبح جماح الشهوات وترويضها وضبطها بضوابط أخلاقية ربانية تضمن إستعمالها في خير الإنسان في كل طبقات المجتمع ، غنيه وفقيره ، عظيمه وحقيره ، بلا تفريق بين الناس ، بدلا من إهمالها أو تضييعها في الفوضي والهمجية ، وهذا المنهج الرباني يقوم علي معرفة الصانع بصنعته "ألا يعلم من خلق " ويعرف مايصلحهم مما يفسدهم دون الحاجة إلي تجربة والتطوير ، فهو كامل في ذاته.

أما المنهج الغربي فعلي العكس من ذلك ، فهو منهج مادي تجريبي ، يقوم علي حسابات المكسب والخسارة ، ولا يقيم للأعراض وزنا إذا كانت عقبة في تحقيق غايات أصحاب المنهج "فالغاية تبرر الوسيلة" حتي ولو كانت الوسيلة هي إشراك المرأة والرجل في تدبير شئون الحياة لتحقيق غاية التمدن والرقي المادي ، وإستعمال الشهوات في فنون ووسائل تحول متاعب الحياة إلي لذات ومسرات ومكاسب مادية.

ولأن المنهج الغربي منهج بشري لا ديني فهو تجريبي ، متغير ، بتغير المصالح ، لذلك من تصله منه أفكار المنهج الرباني الإسلامي صافية بلا تشويه ، سرعان مايعلن إسلامه ، وتسليمه للمنهج الرباني ، ولكن يظل السادة الكبار حائلا بين وصول الفكرة الإسلامية صافية للعوام في أوروبا ، بل يسعون لبقائها مشوهة منبوذة. ومن هنا يظهر الفرق بين المنهجين ، إذ أن الإسلام يضع نظاما إجتماعيا يخدم مقاصده ، ففصل بين دائرتي عمل الرجل والمرأة ، وحظر إختلاط الذكور بالإناث بدون داعي وبدون قيود أخلاقية، حسمت فيها جميع ألأسباب التي تخل بهذا القيد بدءا من غض البصر ، وشكل اللباس ، وطريقة الكلام ، وإنتهاءا بوجود محرم شرعي كلما أمكن ، وبذلك تجف منابع الفتنة ، وتسد الزرائع إليها ، وتراعي حرمات الله وتؤدي حقوقه سبحانه وتعالي .

وهذا بخلاف النظام الغربي الذي يدفع الجنسين إلي ميدان مشترك في الحياة ، مع رفع جميع الحجب بينهما ، تلك الحجب التي تحول دون إختلاطهما الحر ، ومعاملتهما المطلقة التي لاتحدها حدود مهما كانت النتائج ، بشرط ألا تعوق هذه النتائج منظومة المجتمع .

إن أقصي ما أوتيت المرأة من الحريه في النظام الإسلامي هو أن تبدي وجهها وكفيها إذا دعت الضرورة ، وأن تخرج من بيتها لحاجتها ، ولكن

هؤلاء يجعلون هذا الحد الأقصي من حريتها هو نقطة البدء وبداية المسير ، فيقومون إلي آخر حدود الإسلام ، ويتقدمون في سبيل الحرية ، ويتمادون إلي أن يخلعوا عن أنفسهم الحياء والإحتشام ، فلا يقف الأمر بإنائهم عند إبداء الوجه والكفين ، بل يجاوزه إلي التعري شبه الكامل كما نري في أيامنا هذه في مهرجانات الممثلين والفنانين.

ثم يأتي القوم فيحملون رخصة الإسلام للمرأة في الخروج من البيت للحاجة ، وهي الرخصة المشروطة بالتستر والتعفف علي أنها يحل لها التسكع في الطرقات والتريض في المنتزهات والملاعب والسينما في أبهي زينة وأفتنها للناظرين ، ويتخذ من إذن الإسلام لها في ممارسة أمور غير الشئون المنزليه المقيد بشروط كإذن عام في ممارسة المرأة نشاطا سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا تماما كالمرأة الأوروبية ، ولاندري أي قرآن وسنة يستخرج منها هذا النمط المبتذل من الحياة.] إنتهي الإقتباس

مناقشة أدلة الحجاب في سورة الأحزاب

ليس من الضرورة أن تظهر للمسلم الحكمة من فرض ووجوب حكم شرعي معين لكي يعمل به، لأنه من المفترض أن إيمانه بالله وحده يكفيه للعمل بموجب هذا الحكم سواءا علم الحكمة من وجوبه أم لم يعلم .
كذلك ليس المسلم في حاجة لإنتظار نتائج تجريبية لتطبيق حكم معين لكي يؤمن به ، لأن ذلك يتعارض مع إيمانه بأن الله عليم خبير ، وأنه سبحانه يعلم بما خلق وهو اللطيف الخبير وأن له "الخلق والأمر".
ومع ذلك فالحكمة من وجوب وفرضية الحجاب الشرعي أوضح من أن يتساءل عنها المسلم ، او أن ينتظر أكثر من مائة سنة من أكذوبة "تحرير المرأة" ليري ما آل إليه حال المسلمات الآن لكي يؤمن بوجوب الحجاب .
من حكمة الله سبحانه وتعالي أن ركب في الإنسان "ذكرا وأنثي " شهوة الفرج تركيبا قويا، وجعل لها عليه سلطانا شديدا ، فإذا ثارت كانت أشد الشهوات عصيانا علي العقل ، فلا تقبل منه صرفا ولا عدلا ، إلا من تحجزه تقوي الله تعالي ، ويعصمه الله تعالي بتوفيقه ، وخير مثال علي ذلك من كتاب الله قصة يوسف عليه السلام مع إمرأة العزيز ، فسلطان الشهوة حركة سيدة من سيدات القصور لتراود فتاها عن نفسه ، ولولا أن إستعصم يوسف عليه السلام بالله تعالي لصبا إليهن .
والدليل علي شدة هذا الميل أن الإنسان يتحمل بكل الرضا مشاق وتكاليف الزوجية وتربية الأولاد ، والكد والتعب من أجلهم ، بحيث صار الإنسان مسوقا عن طريق تسليط هذه الشهوة إلي التناسل وعمارة الدنيا ليقضي الله أمرا كان مفعولا . والمرأة من طبعها وفي خلقتها إستهواء للرجل ، والسيطرة علي مشاعره ، وإمتلاك حسه ولبه ، وفي سبيل إغوائه ، ولفت نظره قد تصنع من ألوان الفتن مايجر إلي المنكر .
والإسلام يقدر ماركب في النوعين من التجاذب الذي يؤدي إلي الإفتتان والفساد لو ترك هذا التجاذب بلا ضوابط وقيود أقل هذه المفاسد إختلاط الأنساب ، فإذا ترك الناس لدواعي أهوائهم فسدت الأعراض ، وفشت الأباحية ، وإختلطت الأنساب ، وقل النسل ، وفي النهاية هلاك الأمم وفناء الشعوب .
والله سبحانه وتعالي عليم بخلقه سواء منهم الرجل أو المرأة أو الشيطان ، قال تعالي في سورة الملك {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ﴿١٤﴾ ، وقد نبهنا الله تعالي أن غاية الشيطان في هذا الباب أن يوقع النوعين في حضيض الفحشاء ، لكنه يسلك في تزيينها ، والإغراء بها مسلك التدرج

والإستدراج عن طريق خطوات يقود بعضها إلي بعض ، تبدأ بالنظرة وتنتهي بفعل الفاحشة والعياذ بالله منها ، ولذلك يقول الله تعالي في سورة النور {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ} ﴿٢١﴾

وقد تواترت النصوص من كتاب الله وسنة رسوله في التنبيه علي خطر الفتنة بالمرأة ، منها قوله تعالي في سورة آل عمران {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} ﴿١٤﴾ حيث جعل فتنة النساء في مقدمة فتن الحياة الدنيا لخطورتهن في هذا الباب ، وقدم الله تعالي المرأة علي الرجل في حد الزنا في قوله تعالي في سورة النور {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} ﴿٢﴾ وقدم الرجل علي المرأة في حد السرقة في قوله تعالي في سورة المائدة {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ﴿٣٨﴾ وذلك لدور المرأة الخطير في جريمة الزنا ، مقابل دور الرجل في جريمة السرقة ، ولذلك قال سبحانه وتعالي حاكيا عن عزيز مصر في سورة يوسف {قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} ﴿٢٨﴾

وحذر النبي صلي عليه وسلم من فتنة المرأة ، فعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ" [١١٩]

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ» :إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ «وَفِي حَدِيثِ ابْنِ بَشَّارٍ» :لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[١٢٠] . والنصوص في هذه الباب متواترة تواترا أكثر من أن يحصر في هذا المجال ، والغرض من إيراد هذه النصوص العامة ، أن فيها ما يعين المسلم علي الإستسلام لفرضية ووجوب حكم الحجاب ، دون تردد أو النظر فيما إذا كان الحكم خاص بنساء النبي أو لعموم المسلمات ، فالنصوص العامة في فتنة النساء تكاد تطلب بما طالب به عمر رضي الله عنه في إحتجاب النساء قبل نزول آيات الحجاب في سورة الأحزاب .

---

١١٩ صحيح البخاري حديث رقم ٥٠٩٦ كتاب النكاح باب مايتقي من شوؤم المرأة ، أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة.(الرقاق) باب أكثر أهل الجنة الفقراء رقم ٢٧٤٠

١٢٠ صحيح مسلم ف رقم ٢٧٤٠ي الرقاق والدعاء والتوبة. (الرقاق) باب أكثر أهل الجنة الفقراء. وأكثر أهل النار النساء وبيان فتنة النساء. والترمذي رقم ٢١٩٢

ونتصور أنه بعد هذا العرض المطول في منشأ مسالة الحجاب لن نكون في حاجة الي التوسع في مناقشة أدلة وجوب الحجاب وشكل الحجاب كما أورده المفسرون .
وقد ورد حكم الحجاب في الآيات ٣٢،٣٣، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٩ من سورة الأحزاب والآيات: ٥٨،٣١،٣٠، ٥٩،٦٠ من سورة النور، وبما أن سورة الأحزاب هي الأسبق في النزول ، فقد جاءت الآيات فيها بفرض الحجاب أولا علي نساء النبي صلي الله عليه وسلم ثم علي كل نساء المؤمنين في الآية الأخيرة ، وكان الحديث في هذه الآيات شاملا وصريحا ومباشرا عن الحجاب الشرعي من حيث الشكل والمضمون .
أما آيات سورة النور فتحدثت آداب متعلقة بالحجاب كغض البصر ، وأحكام دخول الأطفال علي النساء ، وحكم الزينة في الحجاب ، ومحارم النساء الذين يجوز كشف الحجاب أمامهم .
وبما أننا بصدد الحديث عن سورة الأحزاب، فسيقتصر حديثنا هنا عن آيات الحجاب في سورة الأحزاب
في الآية (٣٢) و(٣٣) من سورة الأحزاب يقول الله تعالي {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴿٣٣﴾ }
يقول الحافظ إبن كثير في تفسير هذه الآيات [هَذِهِ آدَابٌ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنِسَاءُ الْأُمَّةِ تَبَعٌ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ اللَّهَ كَمَا أَمَرَهُنَّ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِهُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا يَلْحَقُهُنَّ فِي الفضيلة والمنزلة]
فإذا كان هذا الخطاب موجه لنساء النبي ﷺ وهن أطهر النساء ، وهن من أختارهن الله لصحبة نبيه ، فنساء المؤمنين بصفة عامة أولي بهذا الخطاب
ثُمَّ قَالَ: "فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ" قَالَ السُّدِّي وَغَيْرُهُ :يَعْنِي بِذَلِكَ: تَرْقِيقَ الْكَلَامِ إِذَا خَاطَبْنَ الرِّجَالَ؛ وَلِهَذَا قَالَ :{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } [أَيْ: دَغَل،] {وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا } قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الْخَيْرِ. وَمَعْنَى هَذَا :أَنَّهَا تُخَاطِبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ، أَيْ :لَا تُخَاطِبِ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطِبُ زَوْجَهَا ، ولا يحتمل إلا المعني المقصود منه .
وَقَوْلُهُ : {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} أَيِ: الْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ. وَمِنَ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِشَرْطِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلات)وَفِي رِوَايَةٍ:وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ

لَهُنَّ [١٢١] ، وَقَالَ الْبَزَّارُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ مُوَرِّقٍ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ" :إِنِ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بروْحَةَ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ بُنْدَار، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَاصِمٍ، بِهِ نَحْوَهُ [١٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ تَمْشِي بَيْنَ يَدَيِ الرِّجَالِ، فَذَلِكَ تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ :{ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} يَقُولُ: إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتِكُنَّ -وَكَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَةٌ وَتَكَسُّرٌ وتغنُّج -فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} وَالتَّبَرُّجُ: أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ، ثُمَّ عُمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّجِ .[١٢٣]

ويقول القرطبي في تفسير قَوْلُهُ تَعَالَى : {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِلُزُومِ الْبَيْتِ، وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ دَخَلَ غَيْرُهُنَّ فِيهِ بِالْمَعْنَى. هَذَا لَوْ لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ يَخُصُّ جَمِيعَ النِّسَاءِ، كَيْفَ وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِلُزُومِ النِّسَاءِ بُيُوتَهُنَّ، وَالِانْكِفَافِ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِمُلَازَمَةِ بُيُوتِهِنَّ، وَخَاطَبَهُنَّ بِذَلِكَ تَشْرِيفًا لَهُنَّ، وَنَهَاهُنَّ عَنِ التَّبَرُّجِ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ فِعْلُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى فَقَالَ{ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى } وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى التَّبَرُّجِ فِي "النُّورِ" .وَحَقِيقَتُهُ إِظْهَارُ مَا سَتْرُهُ أَحْسَنُ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ السَّعَةِ، يُقَالُ :فِي أَسْنَانِهِ بَرَجٌ إِذَا كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً].[١٢٤]

---

١٢١ رواه بهذا اللفظ أبو داود في السنن برقم (٥٦٥) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، وبالرواية الثانية برقم (٥٦٧) من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، وَأَصْلُهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ.

١٢٢ سنن الترمذي برقم (١١٧٣) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب". ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (١٦٨٥) ومن طريقه ابن حبان في صحيحه برقم (٣٢٩) "موارد" عن عمرو بن عاصم، به، وشك ابن خزيمة في سماع قتادة هذا الحديث من مورق.

١٢٣ تفسير إبن كثير

١٢٤ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

الآية (٥٣) من سورة الأحزاب {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً}(53)

قال الحافظ إبن كثير في تفسير هذه الآية [هَذِهِ آيَةُ الْحِجَابِ، وَفِيهَا أَحْكَامٌ وَآدَابٌ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فَقُلْتُ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} الْبَقَرَةِ: ١٢٥ وَقُلْتُ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ نِسَاءَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ حَجَبْتَهُنَّ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ .وَقُلْتُ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا تَمَالَأْنَ عَلَيْهِ فِي الْغَيْرَةِ : {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ } التَّحْرِيمِ:٥، فَنَزَلَتْ كَذَلِكَ [١٢٥] .وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ [١٢٦] ذِكْرُ أُسَارَى بَدْرٍ، وَهِيَ قَضِيَّةٌ رَابِعَةٌ.

وَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ: بسنده :قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخِطَابِ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ وَكَانَ وَقْتُ نُزُولِهَا فِي صَبِيحَةِ عُرْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، الَّتِي تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى تَزْوِيجَهَا بِنَفْسِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ذِي الْقِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ، فِي قَوْلِ قَتَادَةَ وَالْوَاقِدِيِّ وَغَيْرِهِمَا. وَزَعَمَ أَبُو عُبَيدة مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَخَلِيفَةُ بْنُ خَيَّاطٍ :أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ

قَالَ الْبُخَارِيُّ: بسنده ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ :لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِموا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَإِذَا هُوَكَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ ، قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا، فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا. فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ، فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} الْآيَةَ ،وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ

---

١٢٥ صحيح البخاري برقم (٤٠٢)

١٢٦ صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩)

طُرُقٍ، عَنْ مُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، بِهِ[١٢٧] إنتهي] [١٢٨]
ويقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية [فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذِنَ فِي مَسْأَلَتِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فِي حَاجَةٍ تَعْرِضُ، أَوْ مَسْأَلَةٍ يُسْتَفْتَيْنَ فِيهَا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ النِّسَاءِ بِالْمَعْنَى، وَبِمَا تَضَمَّنَتْهُ أُصُولُ الشَّرِيعَةِ مِنْ أَنَّ الْمَرْأَةَ كُلَّهَا عَوْرَةٌ، بَدَنُهَا وَصَوْتُهَا، كَمَا تَقَدَّمَ، فَلَا يَجُوزُ كَشْفُ ذَلِكَ إِلَّا لِحَاجَةٍ كَالشَّهَادَةِ عَلَيْهَا، أَوْ دَاءٍ يَكُونُ بِبَدَنِهَا، أَوْ سُؤَالِهَا عَمَّا يَعْرِضُ وَتَعَيَّنَ عندها. ثم يقول (قَوْلُهُ تَعَالَى) :ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (يُرِيدُ مِنَ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلرِّجَالِ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، وَلِلنِّسَاءِ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ، أَيْ ذَلِكَ أَنْفَى لِلرِّيبَةِ وَأَبْعَدُ لِلتُّهْمَةِ وَأَقْوَى فِي الْحِمَايَةِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَثِقَ بِنَفْسِهِ فِي الْخَلْوَةِ مَعَ مَنْ لَا تَحِلُّ لَهُ فَإِنَّ مُجَانَبَةَ ذَلِكَ أَحْسَنُ لِحَالِهِ وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.]
ثم قال [قَدْ بَيَّنَّا سَبَبَ نُزُولِ الْحِجَابِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَقَوْلِ عُمَرَ، وَكَانَ يَقُولُ لِسَوْدَةَ إِذَا خَرَجَتْ وَكَانَتِ امْرَأَةً طَوِيلَةً:قَدْ رَأَيْنَاكِ يَا سَوْدَةَ، حِرْصًا عَلَى أَنْ يَنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ. وَلَا بُعْدَ فِي نُزُولِ الْآيَةِ عِنْدَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا- وَاللَّهُ أَعْلَمُ -بَيْدَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ قَالَ :لَا يَشْهَدُ جِنَازَتَهَا إِلَّا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا، مُرَاعَاةً لِلْحِجَابِ الَّذِي نَزَلَ بِسَبَبِهَا] إنتهي [١٢٩]
يقول تعالي {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(59) } .
يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية [يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ :يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين: لا يتشبهن بالإماء في لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن، فكشفن شعورهن ووجوههن. ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهنّ؛ لئلا يعرض لهن فاسق، إذا علم أنهن حرائر، بأذى من قول.

---

١٢٧ صحيح البخاري برقم (٤٧٩١) وبرقم (٦٢٣٩، ٦٢٧١) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٢٠)
١٢٨ تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
١٢٩ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

ثم اختلف أهل التأويل في صفة الإدناء الذي أمرهن الله به فقال بعضهم :هو أن يغطين وجوههن ورءوسهن فلا يبدين منهن إلا عينا واحدة. ذكر من قال ذلك :

حدثني عليّ، قال :ثنا أَبو صالح قال ثني معاوية عن علي عن ابن عباس، قوله {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة.

حدثني يعقوب قال ثنا ابن علية عن ابن عون عن محمد عن عبيدة في قوله {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} فلبسها عندنا ابن عون قال :ولبسها عندنا محمد قال محمد: ولبسها عندي عبيدة قال ابن عون بردائه فتقنع به، فغطى أنفه وعينه اليسرى وأخرج عينه اليمنى، وأدنى رداءه من فوق حتى جعله قريبا من حاجبه أو على الحاجب.

حدثني يعقوب قال ثنا هشيم قال أخبرنا هشام عن ابن سيرين قال :سألت عبيدة عن قوله {قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} قال: فقال بثوبه، فغطى رأسه ووجهه، وأبرز ثوبه عن إحدى عينيه.وقال آخرون :بل أمرن أن يشددن جلابيبهن على جباههن. ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن سعد قال ثني أَبي قال ثني عمي قال: ثني أَبي عن أبيه عن ابن عباس، قوله {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} إلى قوله {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} قال: كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن .وإدناء الجلباب :أن تقنع وتشد على جبينها.

حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (أخذ الله عليهن إذا خرجن أن يقنعن على الحواجب) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَينَ (وقد كانت المملوكة إذا مرت تناولوها بالإيذاء، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالإماء.] إنتهي [١٣٠]

ويقول الإمام القرطبي [أن في هذه الآية ست فوائد ذكر منها قوله تعالى: {مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ} الْجَلَابِيبُ جَمْعُ جِلْبَابٍ، وَهُوَ ثَوْبٌ أَكْبَرُ مِنَ

---

١٣٠ جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

الْخِمَارِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ الرِّدَاءُ.وَقَدْ قِيلَ :إِنَّهُ الْقِنَاعُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ الثَّوْبُ الَّذِي يَسْتُرُ جَمِيعَ الْبَدَنِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ :قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَانَا لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا .

الرَّابِعَةُ- وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي صُورَةِ إِرْخَائِهِ،فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ :ذَلِكَ أَنْ تَلْوِيَهُ الْمَرْأَةُ حَتَّى لَا يَظْهَرَ مِنْهَا إِلَّا عَيْنٌ وَاحِدَةٌ تُبْصِرُ بِهَا .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَقَتَادَةُ :ذَلِكَ أَنْ تَلْوِيَهُ فَوْقَ الْجَبِينِ وَتَشُدَّهُ، ثُمَّ تَعْطِفُهُ عَلَى الْأَنْفِ،وَإِنْ ظَهَرَتْ عَيْنَاهَا لَكِنَّهُ يَسْتُرُ الصَّدْرَ وَمُعْظَمَ الْوَجْهِ .وَقَالَ الْحَسَنُ :تُغَطِّي نِصْفَ وَجْهِهَا.

الْخَامِسَةُ- أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ النِّسَاءِ بِالسَّتْرِ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَا لَا يَصِفُ جِلْدَهَا، إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا فَلَهَا أَنْ تَلْبَسَ مَا شَاءَتْ، لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بِهَا كَيْفَ شاء.

ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً فَقَالَ(سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجَرِ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ].

وَرُوِيَ أَنَّ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ لَمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْدِ هِرَقْلَ فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبْطِيَّةً، فَقَالَ :(اجْعَلْ صَدِيعًا لَكَ قَمِيصًا وَأَعْطِ صَاحِبَتَكَ صَدِيعًا تَخْتَمِرُ بِهِ) .وَالصَّدِيعُ :النِّصْفُ .ثُمَّ قَالَ لَهُ :(مُرْهَا تَجْعَلْ تَحْتَهَا شَيْئًا لِئَلَّا يَصِفَ) .وَذَكَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ رِقَّةَ الثِّيَابِ لِلنِّسَاءِ فَقَالَ:الْكَاسِيَاتُ الْعَارِيَاتُ النَّاعِمَاتُ الشَّقِيَّاتُ.

وَدَخَلَ نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَيْهِنَّ ثِيَابٌ رِقَاقٌ،فَقَالَتْ عَائِشَةُ :إِنْ كُنْتُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَيْسَ هَذَا بِلِبَاسِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَإِنْ كُنْتُنَّ غَيْرَ مؤمنات فتمتعينه .

وَأُدْخِلَتِ امْرَأَةٌ عَرُوسٌ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَلَيْهَا خِمَارٌ قُبْطِيٌّ مُعَصْفَرٌ، فَلَمَّا رَأَتْهَا قَالَتْ :لَمْ تُؤْمِنْ بِسُورَةِ "النُّورِ "امْرَأَةٌ تَلْبَسُ هَذَا .وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :(نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ مِثْلُ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا).

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنه :ما يمنع المرأة المسلمة إذا كَانَتْ لَهَا حَاجَةٌ أَنْ تَخْرُجَ فِي أَطْمَارِهَا أَوْ أَطْمَارٍ[١٣١] جَارَتِهَا مُسْتَخْفِيَةً، لَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهَا.

---

١٣١ الأطمار: جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق.

السَّادِسَةُ -قَوْلُهُ تَعَالَى :(ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ) أَيِ الْحَرَائِرُ، حَتَّى لَا يَخْتَلِطْنَ بِالْإِمَاءِ، فَإِذَا عُرِفْنَ لَمْ يُقَابَلْنَ بِأَدْنَى مِنَ الْمُعَارَضَةِ مُرَاقَبَةً لِرُتْبَةِ الْحُرِّيَّةِ، فَتَنْقَطِعُ الْأَطْمَاعُ عَنْهُنَّ. وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنْ تُعْرَفَ الْمَرْأَةُ حَتَّى تُعْلَمَ مَنْ هِيَ. وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا رَأَى أَمَةً قَدْ تَقَنَّعَتْ ضَرَبَهَا بِالدِّرَّةِ، مُحَافَظَةً عَلَى زِيِّ الْحَرَائِرِ .وَقَدْ قِيلَ :إِنَّهُ يَجِبُ السَّتْرُ وَالتَّقَنُّعُ الْآنَ فِي حَقِّ الْجَمِيعِ مِنَ الْحَرَائِرِ وَالْإِمَاءِ .وَهَذَا كَمَا أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنَعُوا النِّسَاءَ الْمَسَاجِدَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ قَوْلِهِ:(لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ) حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَوْ عَاشَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا لَمَنَعَهُنَّ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسَاجِدِ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ . {وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } تَأْنِيسٌ لِلنِّسَاءِ فِي تَرْكِ الجلابيب قبل هذا الامر المشروع.] إنتهي [١٣٢]

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة ومن أقوال العلماء ، ولمن يريد المزيد فينصح بالرجوع إلي كتاب عودة الحجاب للدكتور : محمد إسماعيل المقدم – القسم الثالث.

---

١٣٢ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

الباب الرابع
دروس التربية الإيمانية للمسلمين في سورة الأحزاب

الفصل الأول : دروس الترغيب
الفصل الثاني : دروس الترهيب

الفصل الأول

دروس الترغيب

الدرس الأول : من قول الله تعالي (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

بدأت سورة الأحزاب بقول الله تعالي {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً}(1) ، وفي خواتيمها قول الله تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(70) }.

بدأت بأمر بالتقوي لرسول الله ﷺ بشكل خاص ، وأنتهت بالأمر بالتقوي للمؤمنين بشكل عام ، وتقوي الله عز وجل هي غاية كل مؤمن ، فبها تنال الدرجات العلي ، وقد وردت في كتاب الله آيات كثيرة تبين فضل المتقين ، فبالتقوي تنال معية الله كما في قول الله سورة البقرة {وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾} وفي سورة التوبة { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ، ﴿١٢٣﴾ } وبالتقوي تنال محبة الله كما في قوله تعالي في آل عمران {بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾} ، وفي سورة التوبة {إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ، ﴿٧﴾}وبالتقوي يتقبل الله الأعمال كما في قول الله تعالي في سورة المائدة {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾}.

والتقوي هي الطريق الموصلة للجنة كما في قول الله تعالي في سورة الحجر والذاريات {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ، ﴿١٥﴾ } ، وفي المرسلات {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾} ، وفي سورة الطور {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ } وفي سورة القمر {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾} وفي سورة النحل {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّـهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ }

والمتقين هم الذين يهتدون بكتاب الله هذا وجل كما في قوله تعالي في أول سورة البقرة بعد ألم {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ } ، وفي سورة النور {وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾} .

وجعل العاقبة للمتقين كما في قوله تعالي في سورة الأعراف {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّـهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾} وفي سورة هود {فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ } ، وفي سورة طه {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾} ، وفي سورة القصص {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾}.

وقال الحافظ إبن كثير في تفسير آية الأحزاب [هَذَا تَنْبِيهٌ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا، فَلأن يَأْتَمِرَ مِنْ دُونِهِ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .وَقَدْ قَالَ طَلْق بْنُ حَبِيبٍ :التَّقْوَى: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ.] [١٣٣]

وقد يقول قائل ، أكان رسول الله ﷺ غير تقي حتى يأمره ربه بالتقوى؟ نقول :ليس بالضرورة أنْ يكون الرسول عصى، فيأمره الله بتقواه، لكن الحق سبحانه ينشئ مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان .أو :أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك في بداية الدراسة: اجتهد وذاكر دروسك، وأنت تعرف أنه مجتهد، لكن لا بُدَّ من تقرير المبدأ في بداية الأمر.

ثم إن الحدث يحدث في أزمنة ثلاثة :ماضٍ وحال ومستقبل، فإذا طلب من شخص فعل شيء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى :{ياأيها الذين آمَنُواْ آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ... } النساء: ١٣٦

فالحق سبحانه يأمرهم بالإيمان، مع أنه وصفهم وخاطبهم بلفظ الإيمان؛ لأن المعني :أنتم آمنتم قبل أنْ أُكلمكم، وهذا الإيمان السابق لكلامي ماضٍ، وأنا أريد منكم أنْ تُحدِثوا إيماناً جديداً، حالاً ومستقبلاً، أريد أنْ تُجدِّدوا إيمانكم، وأنْ تستَمروا عليه.

فمعنى {ياأيها النبي اتق الله .} أي: واصل تقواك حالاً، كما فعلتها سابقاً، وواصلها مستقبلاً، فلا تنقطع عنها أبداً.

أو :أن تقوى الله أمر يلصق الإنسانَ بربه، والله كلَّف بأشياء،ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء، فإذا قال الله لرسوله {اتق الله .}الأحزاب: ١ فهي غير قوله لنا: اتقوا الله، فالأمر لنا نحن بالتقوى، أي :نفِّذ ما فُرِض عليك، أما في حق رسول الله فهي بمعنى :ادخل في مقام الإحسان، وجدِّده دائماً؛ لأن مراقي القبول من الله لا تنتهي، كما أن كمالات العطاء في الله لا تنتهي.

إذن {ياأيها النبي اتق الله} أي: تقوى تناسب مقامك من ربك؛ لأن عطاءات الله سبحانه لا تتناهى، كما أن كمالاته لا تتناهى، لذلك كان رسول الله يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ولما سألته السيدة عائشة :تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك؟ قال :(أفلا أكون عبداً شكوراً). يعني :العبادة لا تكون

---

١٣٣ تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ت: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ

لمجرد الثواب والمغفرة، إنما هناك درجات وارتقاءات أخرى.
والتقوى :هي أنْ تجعل بينك وبين ما يمكن أنْ ينشأ منه ضرر لك وقاية، لكن كيف نجعل بيننا وبين ربنا سبحانه وقاية، ومهمة التقوى أن تندمج مع الله في معيته؟ هذا في حق مَنْ يتحكم جيداً في نفسه، ويحملها على منهج الله.
لله تعالى صفات جلال وصفات جمال، ولكل صفة منها مطلوب، فالله تعالى غفور رحيم، وهو أيضاً سبحانه القهار الجبار المنتقم، الله سبحانه هو الضار وهو النافع، إذن :فصفات الجمال هي التي تُؤتي الإنسان الخير الذي يحبه، وصفات الجلال هي التي تتسلط على مَنْ يخالف. فعلى العبد دائماً أنْ يظل خائفاً من صفات الجلال راجياً صفات الجمال.
إذن :تقوى الله تكون بأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه الصفات، ولا تطيق مسَّة خفيفة من النار، وهي جند من جنود الله فاحذرها.
كثير من الناس الذين حرموا أنفسهم من تعلم دين الله عز وجل ، إذا قيل لهم {إتق الله } غضبوا وثاروا معتبرين أن هذا إنتقاص من دينهم ، مع أن هذا الكلمة قيلت لخير البشر كما بينا ، وقد وصف الله تعالي هؤلاء في سورة البقرة بقوله {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّـهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾} .
يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية : [هَذِهِ صِفَةُ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ الذَّاهِبِ بِنَفْسِهِ زَهْوًا، وَيُكْرَهُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُوقِعَهُ الْحَرَجُ فِي بَعْضِ هَذَا .وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَقُولَ لَهُ أَخُوهُ: اتَّقِ اللَّهَ، فَيَقُولُ :عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، مِثْلُكَ يُوصِينِ ، وَالْعِزَّةُ: الْقُوَّةُ وَالْغَلَبَةُ، مِنْ عَزَّهُ يَعُزُّهُ إِذَا غَلَبَهُ .
وَمِنْه{ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } وَقِيلَ: الْعِزَّةُ هُنَا الْحَمِيَّةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:
أَخَذَتْهُ عِزَّةٌ مِنْ جَهْلِهِ ... فَتَوَلَّى مُغْضَبًا فِعْلَ الضَّجِرِ
وَقِيلَ :الْعِزَّةُ هُنَا الْمَنَعَةُ وَشِدَّةُ النَّفْسِ، أَيِ اعْتَزَّ فِي نَفْسِهِ وَانْتَحَى فَأَوْقَعَتْهُ تِلْكَ الْعِزَّةُ فِي الْإِثْمِ حِينَ أَخَذَتْهُ وَأَلْزَمَتْهُ إِيَّاهُ.وَقَالَ قَتَادَةُ :الْمَعْنَى إِذَا قِيلَ لَهُ مَهْلًا ازْدَادَ إِقْدَامًا عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْمَعْنَى حَمَلَتْهُ الْعِزَّةُ عَلَى الْإِثْمِ .وَقِيلَ :أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِمَا يُؤْثِمُهُ، أَيِ ارْتَكَبَ الْكُفْرَ لِلْعِزَّةِ وَحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ .وَنَظِيرُهُ{ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} ص: (٣) وَقِيلَ: الْبَاءُ فِي "بِالْإِثْمِ "بِمَعْنَى اللَّامِ، أَيْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ وَالْحَمِيَّةُ عَنْ قَبُولِ الْوَعْظِ لِلْإِثْمِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ النِّفَاقُ.
وَذُكِرَ أَنَّ يَهُودِيًّا كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَاخْتَلَفَ إِلَى بَابِهِ سَنَةً، فَلَمْ يَقْضِ حَاجَتَهُ، فَوَقَفَ يَوْمًا عَلَى الْبَابِ، فَلَمَّا خَرَجَ هَارُونُ سَعَى حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :اتَّقِ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَنَزَلَ هَارُونُ عَنْ دَابَّتِهِ وَخَرَّ

سَاجِدًا، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ أَمَرَ بِحَاجَتِهِ فَقُضِيَتْ، فَلَمَّا رَجَعَ قِيلَ لَهُ :يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَزَلْتَ عَنْ دَابَّتِكَ لِقَوْلِ يَهُودِيٍّ! قَالَ :لَا، وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ":وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ ." حَسْبُهُ أَيْ كَافِيهِ مُعَاقَبَةً وَجَزَاءً] إنتهي .[١٣٤]

ومعنى {اتق الله} أي ليكن ظاهرك موافقاً لباطنك، فلا يكفي أن تقول قولاً يُعجب، ولا يكفي أن تفعل فعلاً يروق الغير؛ لأن الله يحب أن يكون القول منسجماً مع الفعل، وأن يكون فعل الجوارح منسجماً مع نيات القلب.إذن، فالمؤمن لابد وأن تكون عنده فطنة، وذكاء، وألْمعِيَّة، ويرى تصرفات المقابل، فلا يأخذ بظاهر الأمر. ولا بمعسول القول ولا بالفعل، إن لم يصادف فيه انسجام فعل مع انسجام نية. ولا يكتفي بأن يعرف ذلك وإنما لابد أن يقول للمنافق حقيقة ما يراه حتى يقصر على المنافق أمد النفاق، لأنه عندما يقول له :{اتق الله} يفهم المنافق أن نفاقه قد انكشف، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق، وفي ذلك رحمة من المؤمن بالمنافق .وكل مَنْ يرى ويلمح بذكائه نفاقاً من أحد هنا يقول له :(اتق الله} فالمراد أن يفضح نفاقه ويقول له :{اتق الله} . فإذا قال له واحد : {اتق الله} وقال له آخر :{اتق الله} ، وثالث، ورابع، فسيعرف تماما أن نفاقه قد انكشف، ولم يعد كلامه يعجب الناس.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم} ، وتقييد العزة بالإثم هنا يفيد أن العزة قد تكون بغير إثم، ولذلك قال الله تعالي : {أَخَذَتْهُ العزة بالإثم} ، فهناك إذن عزة بغير إثم. نعم، لأن العزة مطلوبة للمؤمن والله عَزَّ وَجَلَّ حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين :{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} المنافقون: ٨ وهذه عزة بالحق وليست بالإثم. وما الفرق بين العزة بالحق وبين العزة بالإثم؟ ولنستعرض القرآن الكريم لنعرف الفرق .ألم يقل سحرة فرعون :فيما حكاه الله عنهم :{بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون} الشعراء: ٤٤

هذه عزة بالإثم والكذب .وكذلك قوله تعالى :{بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} ص: ٢ وهي عزة كاذبة أيضا.

أما قولُه عَزَّ وَجَلَّ:{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ} الصافات: ١٨٠فتلك

---

[١٣٤] الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

هي العزة الحقيقة، إذن فالعزة هي القوة التي تَغْلِبُ، ولا يَغْلِبها أحد. أما العزة بالإثم فهي أنفة الكبرياء المقرونة بالذنب والمعصية .والحق سبحانه وتعالى يقول لكل من يريد هذا اللون من العزة بالإثم :إن كانت عندك عزة فلن يقوى عليك أحد، ولكن يا سحرة فرعون يا من قلتم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، أنتم الذي خررتم سجداً لموسى وقلتم :{قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ} الشعراء: ٤٧ ــ ٤٨

ولم تنفعكم عزة فرعون؛ لأنها عزة بالإثم، لقد جاءت العزة بالحق فغلبت العزة بالإثم. لذلك يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن العزة حتى لا تكون بالإثم، يجب أن تكون على الكافر بالله، وتكون ذلة على المؤمن بالله .{أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين} المائدة: ٥٤

وهذا دليل العزة بالحق، وعلامتها أنها ساعة تغلب تكون في منتهى الانكسار، ولنا القدوة في سيدنا رسول الله ﷺ وهو الذي خرج من مكة لأنه لم يستطع أن يحمي الضعفاء من المؤمنين، وبعد ذلك يعود إلى مكة فاتحاً بنصر الله، ويدخل مكة ورأسه ينحني من التواضع لله حتى يكاد أن يمس قربوس سرج دابته، تلك هي القوة، وهي على عكس العزة بالإثم التي إن غلبت تطغى، إنما العزة بالإثم التي إن غلبت تطغى، إنما العزة بالحق إن غلبت تتواضع.

{فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المهاد} . أي عزة هذه التي تقود في النهاية إلى النار؟ إنها ليست عزة، ولكنها ذلة، فلا خير في عمل بعده النار، ولا شر في عمل بعده الجنة. فإن أردت أن تكون عزيزاً فتأمل عاقبتك وإلى أين ستذهب؟

{فَحَسْبُهُ} أي يكفيه هذا فضيحة لعزته بالإثم، وأما كلمة {مهاد} فمعناها شيء ممهد ومُوطأ، أي مريح في الجلوس والسير والإقامة. ولذلك يسمون فراش الطفل المهد. وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب؟ نعم يناسبه تماماً؛ لأن الذي يجلس في المهاد لا إرادة له في أن يخرج منه، كالطفل فلا قوة له في أن يغادر فراشه. إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته على أبعاضه. فإن كان المهاد بهذه الصورة في النار فهو بئس المهاد.

إذن : تقوي الله عز وجل بحق التي ينال بها المؤمن رضاه ويتجنب سخطه سبحانه وتعالي هي الثمرة المرجوة من هذا الدرس.

الدرس الثاني: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

بدأت آيات قصة غزوة الأحزاب بالتذكير بنعمة التأييد الإلهي للمسلمين بقوله{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا } وإنتهت بقول الله تعالي { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـهَ كَثِيرًا} وقد تكلمنا عن النعمة والآن نتكلم عن الأسوة في رسول الله صلي الله عليه وسلم، والأسوة تقرأ بضم الهمزة أو كسرها وهي إسم لما يقتدي به أي يجري العمل بمثله.

وخير من يتأسي به علي وجه الأرض هو محمد ﷺ، وقال أهل التفسير أن هذه الآيه نزلت لتأنيب من لم يتأسي برسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب ووقفتنا التالية معهم بإذن الله .

وقد أوجز الحافظ بن كثير في تفسيره ، المقصود من هذه الآيه بقوله [هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَلِهَذَا أُمِرَ تبارك وتعالى النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينَ تَقَلَّقُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أَيْ هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً] إنتهي [١٣٥]

وقد أختلف في حكم التأسي بالرسول ﷺ بين الوجوب والإستحباب ، وفي ذلك يقول الإمام القرطبي في تفسيره [وَاخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الْأُسْوَةِ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلْ هِيَ عَلَى الْإِيجَابِ أو على الاستحباب على قولين: أَحَدُهُمَا- عَلَى الْإِيجَابِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الِاسْتِحْبَابِ. الثَّانِي- عَلَى الِاسْتِحْبَابِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْإِيجَابِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْإِيجَابِ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَعَلَى الِاسْتِحْبَابِ فِي أُمُورِ الدنيا.] إنتهي [١٣٦]

وما نود أن نضيفه في هذا الباب هو أن الموضوع الرئيسي لخبراء التنمية البشرية هو كيفية إيجاد قائد يمكن التأسي به والإنقياد له في الحياة العامة

---

١٣٥ تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ت: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ

١٣٦ تفسير القرطبي

وأسرفوا في وضع مواصفات للقائد الناجح ، ونري كثيرا من المسلمين مأخوذون بهذه الدراسات والصفات ويغفلون أن شمائل وصفات النبي ﷺ قد جمعت كل هذه المواصفات بل وتجاوزتها إلي ماهو أسمي وأرقي من صفات البشر.

التأسي برسول الله ﷺ يجب أن يكون أعم وأشمل من مجرد إتباعه في أمره ونهيه وإنما يجب تحري كل مايمكن للإنسان عمله من قول أو فعل ثابت صحيح عن رسول الله ﷺ للعمل بمقتضاه قدر الإستطاعه ، لأنه في النهاية لكل إنسان طاقة وقدرة خاصة به .وهذا المعني أدركه المشركون قديما . ففي صحيح مسلم بسنده عن سلمان رضي الله عنه قال : قال لنا المشركون (وتقديره قائل من المشركين) قال :إني أري صاحبكم يعلمكم حتي يعلمكم الخراءة ، فقال أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة ...إلي آخر الحديث [١٣٧]

ومع هذا التعليم الدقيق من رسول الله لصحابته الكرام، ثم ما يسره الله تعالي لنا منهم ، ثم من التابعين من ينقل لنا هذا العلم بأمانة لا يبقي لنا عذرا في مخالفته ﷺ.

ومما يؤسف له أن ينبهر المسلمين بما تتناقله وسائلنا الإعلامية من أخبار أو صور من هنا أو هنالك لشخص ذو مكانة كرئيس أو وزير في دولة من دول الكفر يمشي علي قدميه أو يركب دراجة أو وسيلة مواصلات عامة متحدثا مع العوام ، فينقل للمسلمين علي أنه مثل يحتذي في البساطة والتواضع رغم أن في تراثنا من نماذج كثيرة للتأسي بها تفوق هذه النماذج المستوردة المتهافتة ، السبب الرئيسي لهذا الإنهزام النفسي في التأسي هو الجهل بسيرة الرسول ﷺ.

أول خطوات التأسي والإقتداء الصحيح هو دراسة وتعلم سيرة الرسول ﷺ من خلال القرآن الكريم ودواوين السنة الصحيحة.

بين أيدينا سورة الأحزاب ، وهي السورة التي تضمنت الأمر المباشربالتأسي برسول الله ، وتضمنت الكثير من مواقف الأسوة ، سنحاول تجلية بعض هذه المواقف في قصة غزوة الأحزاب.

---

[١٣٧] صحيح مسلم –كتاب الطهارة – باب الإستنجاء الحديث رقم ٢٦٢

الأسوة في الشوري

رغم أن الرسول ﷺ مؤيد من ربه بالوحي ، إلا انه في كل غزواته إلتزم بمبدأ الشوري في كل غزواته ، بل ويصر علي سماع رأيا صريحا من أهل الإختصاص .

حدث هذا عندما شرح الله صدره للقتال في غزوة بدر الكبري حيث جمع كبار الصحابة فأخبرهم عن قريش وأستشارهم ، فتكلم كبار المهاجرين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم فقالوا وأحسنوا ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسي : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلي برك الغماد [١٣٨] لجالدنا معك من دونه حتي تبلغه .

ومقولة المقداد يجب تدرس لأبنائنا لبلاغتها وقوتها ، فقد إستشهد بآية من آيات القرآن الكريم تقص خبرا من أخبار قوم نبي الله موسي عليه السلام الذين ربما لم يسمعوا عن أخبارهم قبل نزول القرآن وربما كان تلقيهم لها منذ أيام أوشهور قليلة ولكن الإستشهاد بها في هذا الموقف يدل علي فهم وإدراك عميق لما يتلقونه من كتاب الله

وعندما أراد ضرب المثل بالإستعداد والقوة ضرب مثل بالإستعداد للمسير إلي ماهو أبعد وأقسي من بدر بمراحل وهي برك الغماد في اليمن وعندما أقسم أقسم بما يدل علي أن مايؤمن به هو الحق .

فقال له رسول الله خيرا ودعا له ثم قال (أشيروا علي أيها الناس) وكأنه يريد أن يسمع مشورة ناس آخرون وهم الأنصار وتلك حكمة بالغة ورؤية ثاقبة من قائد عظيم لاتفوته فائته من أحوال أتباعه ، فالأنصار هم الأكثرية وهم أصحاب الأرض وهم أكثر من سيتحمل نتائج الحرب لمجرد أنهم بايعوه علي الإسلام في العقبة ، وكان يتخوف ان لا تكون الأنصار تري له عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلي عدو خارج بلادهم ، فأراد ان يستوثق منهم فأعاد عليهم (أشيروا علي أيها الناس) ففهمها سعد بن معاذ (سيد الأوس) فقال لكأنك تريدنا يارسول الله ، -

---

[١٣٨] برك الغماد : وهو موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل وقيل بلدتان وقال القاضي وغيره هو موضع بأقاصي هجر (المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت) كتاب الجهاد والسير – باب غزوة بدر

- إنظر لكياسة وذكاء وبصيرة هذا الصحابي الجليل الذي لم يبلغ الخامسة والثلاثون من عمره ، والذي إهتز عرش الرحمان لموته في غزوة الأحزاب ، إلتقط الإشارة من رسول الله قائلا (لكأنك تريدنا يارسول الله) قال (أجل) قال : قَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَكَ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَو اسْتَعْرَضْتَ بِنَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ .قَالَ :فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَّطَهُ .

ثُمَّ قَالَ :سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ هَكَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّه. [١٣٩]

في غزوة أحد فعل الرسول ﷺ مافعله في غزوة بدر ، والعجيب أنه في غزوة أحد نزل عن رأيه صلي الله عليه وسلم إستجابة لرأي المستشارين ، رغم أنه رأي رؤيا كان تأويلها هو ماحدث يوم أحد ، وعندما أول لهم الرؤيا يوم رؤيتها ، كان رأيه عدم الخروج من المدينة ، فقال (فأمكثوا وأجعلوا الذراري في الآطام أي الحصون فإن دخل علينا القوم الأزقة قاتلناهم ، ورموا من فوق البيوت ، وكانوا قد سكوا أزقة المدينة بالبنيان حتي صارت كالحصن) [١٤٠]

فقال الذين لم يشهدوا بدرا كنا نتمني هذا اليوم وندعو الله فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير ، وأبي كثير من الناس إلا الخروج ولم يتناهوا إلي قول رسول الله ﷺ ورأيه ، وكان رأي عبد الله إبن أبي إبن سلول رأس المنافقين موافقا لرأي رسول الله بعدم الخروج ، وبعد أن لبس لأمته وتجهز للحرب ثم أذن للناس بالخروج ، تراجع من أشار عليه بالخروج وقالوا أمرنا رسول الله أن نمكث في المدينة وهو أعلم بالله ومايريد ويأتيه الوحي من السماء فقالوا : يارسول الله أمكث كما أمرتنا فقال : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا أَخَذَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ وَأَذِنَ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْعَدُوِّ، أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يُقَاتِلَ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ فَأَبَيْتُمْ إِلَّا الْخُرُوجَ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَأْسِ إِذَا لَقِيتُمُ

---

١٣٩ البداية والنهاية المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

١٤٠ نفس المصدر السابق

الْعَدُوَّ، وَانْظُرُوا مَاذَا آمُرُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوه. [١٤١] ماكان لأحد أن يمنع رسول الله ألا يخرج من المدينة لو أراد أن يستبد برأيه ولكنه أراد ترسيخ مبدأ الشوري ، وما كان لأحد أن يمنعه أن يتراجع عن الخروج عندما ندموا ولكن أراد ترسيخ مبدأ ثبات القيادة وتحملها المسئولية عن قراراتها وهذه كلها مواضع للتأسي به ﷺ.

وهكذا إذا أراد الله شيءا هيأ له أسبابه ، فربما لو رضوا بما أمرهم رسول الله لما كانت الهزيمة في أحد ولكن غلب القضاء والقدر ، وهذا مما يتأسي به أيضا ، وتأكدت الهزيمة في أحد بمخالفة الرماة تعليمات رسول الله في المعركة بتركهم أماكنهم أعلي الجبل ونزولهم طمعا في الغنائم ظنا منهم أن المعركة إنتهت وقد كانت للمسلمين الغلبة في بدايتها .

وموقف الرسول ﷺ بعد أحد من أعظم المواقف التي يمكن ان تسطر لقائد معركة ، فرغم نزوله عن رأيه لرأيهم في بداية المعركة ، ورغم مخالفة آخرين في نهايتها والتي أدت إلي تعاظم المصيبة والتي وصلت أوجها بإستشهاد عمه حمزه أسد الله والتي لم يصب بمثلها أبدا كما ذكر في البداية والنهاية (وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ :وَلَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَمْزَةَ» قَالَ: لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا، مَا وَقَفْتُ مَوْقِفًا قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا) [١٤٢]

ومع ذلك لم يوجه اللوم لأحد من أتباعه اللذين خالفوه وتحمل النتائج كلها ، وأمرهم بالخروج مرة أخري لترهيب المشركين وصرفهم عن معاودة الهجوم عليهم مع رفع الروح المعنويه للمقاتلين الذين أصابهم القرح . ولم يعاتب أحد من مستشاريه ، ولم يبحث عن كبش فداء يحمله تبعة المصيبة التي حلت بالمسلمين.

في غزوة الأحزاب التي نحن بصدد الحديث عنها ، عندما بلغته أنباء غزو تجهيز المشركين لغزو المدينة كان أمره بحفر الخندق بعد مشورة سلمان الفارسي حينما إستقر الرأي علي التخندق في المدينة.

وهكذا يقدر رسول الله لكل موقعة قدرها ، ففي بدر الكبري حين كان المراد هو عير قريش كان القرار بالخروج لملاقاتهم في بدر ، وفي أحد الأمر إختلف ، فالمشركون أعدوا العدة وجيشوا الجيش للثأر لقتلاهم في بدر والمواجهة ستكون أشد فكان رأيه المكوث في المدينة وحصارهم في أزقتها ولكنه نزل عن رأيه ليقضي الله أمرا كان مفعولا ،أما في غزوة الأحزاب فقد أعد المشركون لإستئصال الإسلام بالكلية

---

١٤١ نفس المصدر السابق

١٤٢ نفس المصدر السابق

ومن مواضع الأسوة في غزوة الأحزاب أن الرسول ﷺ كان يختار الرجل المناسب في المكان المناسب دونما إعتبار لحسب أو نسب وإنما الإعتبار الأول والأخير هو مصلحة هذا الدين ، ومن ذلك العمل بمشورة سلمان في حفر الخندق رغم أنه من أصل فارسي .

الأسوة في علي بن أبي طالب

ومن ذلك أيضا الأسوة في منازلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو بن عبد ود حين تيمم مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيله فإقتحمه ، وكان عمرو بن عبد ود فارسا مغوارا في قريش قاتل يوم بدر وأصيب فلم يحضر أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليري مكانه ، ولما إقتحم الخندق وقف مناديا من يبارز وفي ذلك يقول صاحب البداية والنهاية :[وذكر الحافظ البيهقي في "دلائل النبوة" عن إبن إسحق في موضع آخَرَ غَيْرِ " السّيرَةِ "قَالَ: خَرَجَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ وَهُوَ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ، فَنَادَى :مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ :أَنَا لَهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ .فَقَالَ :(إِنَّهُ عَمْرٌو، اجْلِسْ) ثُمَّ نَادَى عَمْرٌو :أَلَا رَجُلٌ يَبْرُزُ؟ فَجَعَلَ يُوَنِّبُهُمْ وَيَقُولُ :أَيْنَ جَنَّتُكُمُ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ دَخَلَهَا، أَفَلَا تُبْرِزُونَ إِلَيَّ رَجُلًا؟ فَقَامَ عَلِيٌّ فَقَالَ :أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ :(اجْلِسْ) ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ

وَلَقَدْ بَحَحْتُ مِنَ النِّدَا ... ءِ بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ
وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَجَّ ... عُ مَوْقِفَ الْقِرْنِ الْمُنَاجِزْ
وَلِذَاكَ إِنِّي لَمْ أَزَلْ ... مُتَسَرِّعًا قِبَلَ الْهَزَاهِز

قال فقام علي رضي الله عنه فقال : يارسول الله أنا ، فقال (إنه عمرو) ، فقال وإن كان عمرا ، فأذن له رسول الله ﷺحتي أتي وهو يقول :

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَا كَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِز
فِي نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَالصِّدْقُ مُنْجِي كُلَّ فَائِز
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُقِيـ ـمَ عَلَـــيْكَ نَائِـحَةَ الْجَنَائِز
مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلَاءَ يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِز

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو :مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ :أَنَا عَلِيٌّ .قَالَ :ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ؟ قَالَ :أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: غَيْرَكَ يَا ابْنَ أَخِي، وَمِنْ أَعْمَامِكَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُهْرِيقَ دَمَكَ .فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ :لَكِنِّي وَاللَّهِ لَا أَكْرَهُ أَنْ أُهْرِيقَ دَمَكَ. فَغَضِبَ فَنَزَلَ وَسَلَّ سَيْفَهُ كَأَنَّهُ شُعْلَةُ نَارٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ مُغْضَبًا وَاسْتَقْبَلَهُ عَلِيٌّ بِدَرَقَتِهِ، فَضَرَبَهُ عَمْرٌو فِي الدَّرَقَةِ فَقَدَّهَا وَأَثْبَتَ فِيهَا السَّيْفَ، وَأَصَابَ رَأْسَهُ

فَشَجَّهُ، وَضَرَبَهُ عَلِيٌّ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ فَسَقَطَ، وَثَارَ الْعَجَاجُ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّكْبِيرَ فَعَرَفَ أَنَّ عَلِيًّا قَدْ قَتَلَهُ .فَثَمَّ عَلِيٌّ يَقُولُ:

أَعَلَيَّ تَقْتَحِمُ الْفَوَارِسُ هَكَذَا ... عَنِّي وَعَنْهُمْ أَخَّرُوا أَصْحَابِي

الْيَوْمَ تَمْنَعُنِي الْفِرَارَ حَفِيظَتِي ... وَمُصَمِّمٌ فِي الرَّأْسِ لَيْسَ بِنَابِي

إِلَى أَنْ قَالَ:

عَبَدَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... وَعَبَدْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ

إنتهي [١٤٣]

وموضع الأسوة هنا أن رسول الله ﷺ لم يأذن لعلي بمنازلة عمرو إلا بعد التأكد من إستعداده للمنازلة ، مع صغر سن علي رضي الله عنه ، وهو ليس إبن عمه فقط بل هو منه بمثابة الإبن لأنه هو من رباه ،فضلا عن أنه زوج إبنته ومازال حديث عهد بزواج حيث أنه تزوج بعد غزوة بدر وولد له الحسن رضي الله عنهم جميعا قبل غزوة الأحزاب مباشرة ، لم يهتم الرسول بكل هذه الإعتبارات رغم إدراكه لإحتمالية قتله ، ولكن الإعتبار الأول هو مصلحة الإسلام والمسلمين.

١٤٣ البداية والنهاية المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

الأسوة في سعد بن معاذ

ومن ذلك أيضا ، إختيار النبي ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الآوس وسعد بن عبادة رضي الله سيد الخزرج لمراجعة يهود بني قريظه عندما علم بنقضهم العهد معه ، فأختار السعدين لهذه المهمة وأمرهم بعدم إعلان الخبر إن كان حقا حفاظا علي الروح المعنوية ، وفي ذلك قال الحافظ إبن كثير في البداية والنهاية : قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَلَمَّا انْتَهَى الْخَبَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ،، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْأَوْسِ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَخَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ " :انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَتَنْظُرُوا أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فَاجْهُرُوا بِهِ لِلنَّاسِ ." قَالَ :فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ.

قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فَدَخَلُوا مَعَهُمْ حِصْنَهُمْ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْمُوَادَعَةِ وَتَجْدِيدِ الْحِلْفِ، فَقَالُوا :الْآنَ وَقَدْ كُسِرَ جَنَاحُنَا وَأَخْرَجَهُمْ؟! يُرِيدُونَ بَنِي النَّضِيرِ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَجَعَلَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يُشَاتِمُهُمْ، فَأَغْضَبُوهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ إِنَّا وَاللَّهِ مَا جِئْنَا لِهَذَا، وَلَمَا بَيْنَنَا أَكْبَرُ مِنَ الْمُشَاتَمَةِ .ثُمَّ نَادَاهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ :إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ أَوْ أَمَرَّ مِنْهُ .فَقَالُوا :أَكَلْتَ أَيْرَ أَبِيكَ .فَقَالَ:غَيْرُ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ كَانَ أَجْمَلَ بِكُمْ وَأَحْسَنَ.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ :نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالُوا :مَنْ رَسُولُ اللَّهِ؟ لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ. فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ :دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ، لَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنَ الْمُشَاتَمَةِ. ثُمَّ أَقْبَلَ السَّعْدَانِ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا :عَضَلٌ وَالْقَارَةُ[١٤٤] أَيْ كَغَدْرِهِمْ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(اللَّهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ) .

إنتهي [١٤٥] وموضع الأسوة هنا هو في إختيار رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة بإعتبارهم الأنسب للحوار مع يهود بني قريظة لنقضهما

---

١٤٤ عضل والقارة : هم القوم الذين طلبوا من رسول الله نفر يعلمونهم الإسلام ويقرؤنهم القرآن فبعث الرسول صلي الله عليه وسلم ستة منهم خبيب بن عدي فغدروا بهم وقتلوهم فيما سمي بغزوة الرجيع في صفر من سنة أربع من الهجرة

١٤٥ البداية والنهاية المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي

لعهد مع رسول الله ، لأنهم كانوا حلفاء لهم قبل الإسلام ، والأسوة في السعدين في حسن أداؤهم للمهمة وعدم الإنجرار وراء إستفزازات بني قريظة في الحوار بنيلهم من رسول الله ، وعند تأكدهم من نقضهم للعهود وعادوا لرسول الله بالخبر دون تصريح كما أمرهم ﷺ، وكما توقع حفاظا علي الروح المعنوية للمسلمين من الإحباط والإنكسار.

الأسوة في حذية بن اليمان

بعد أن أرسل الله تعالي جنوده التي كسرت شوكة الأحزاب وفرقت جمعهم وشتت شملهم وبعد نجاح خطة نعيم بن مسعود أراد النبي صلي الله عليه وسلم أن يعرف خبر القوم ، فأنتدب لهذه المهمة حذيفة أبن اليمان رضي الله عنه ، وهو خير من يقوم بهذه المهمة لما عرف عنه بالحيطة والكتمان حتي أنه عرف في كتب السيرة بكاتم سر رسول الله عندما كتم ماأسر به إليه من أسماء المنافقين .

ولتكليفه بمهمة تقصي خبر الأحزاب قصة يرويها حذيفة بنفسه عندما قال له رجل بعد وفاة الرسول ﷺ (لو كنا معه لحملناه فوق رؤوسنا) وهكذا في كل زمان يوجد من تتلاعب به الأماني وقد روي الإمام مسلم هذا الحديث في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم بن يزيد عن أبيه قال : "كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ .فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ :أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ فِي لَيْلَةٍ ذَاتِ رِيحٍ شَدِيدَةٍ وَقُرٍّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ الثَّانِيَةَ ثُمَّ الثَّالِثَةَ مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ :(يَا حُذَيْفَةُ قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ) فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، فَقَالَ :(ائْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) قَالَ :فَمَضَيْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ قَوْسِي وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (لَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَصَابَنِي الْبَرْدُ حِينَ رَجَعْتُ وَقُرِرْتُ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَلْبَسَنِي مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى الصُّبْحِ، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(قُمْ يَا نَوْمَانُ) صحيح مسلم [١٤٦]. والتأسي بهذه القصة في أكثر من

---

١٤٦ صحيح مسلم : المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت حديث رقم ١٧٨٨

موضع ، ففضلا عن إختيار الرجل المناسب للمهمة المناسبة ، فكما قال حذيفه للرجل الذي سأله لا تتمنوا علي
الله الأماني حتي لانكون مثل بني إسرائيل من بعد موسي عندما طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله ، فما كتب عليهم القتال تولوا ، فليس من المناسب أن يقول المسلم لو صاحبت رسول الله لفعلت وفعلت ، لأن هذا إفتراض وهمي لن يحدث ويكذبه الواقع ، فلا شك أن خير الناس هم القرن الذي صاحب رسول الله ، ففي صحيح البخاري في كتاب الشهادات: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :(خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) قَالَ إِبْرَاهِيمُ : وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ، وَالعَهْدِ" (١٤٧)
وفي صحيح البخاري ايضا قال حدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ قَيْسٍ، قَالَ :سَمِعْتُ خَبَّابًا، وَقَدِ اكْتَوَى يَوْمَئِذٍ سَبْعًا فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ :"لَوْلاَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِالْمَوْتِ"، إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَضَوْا، وَلَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ، وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ" (١٤٨)
ومن التأسي في هذه القصة أيضا إلتزام حذيفة بن اليمان رضي الله بتعليمات الرسول صلي الله عليه وسلم عندما سنحت له فرصة قنص أبي سفيان بن حرب ولكنه تذكر قول رسول الله (لا تذعرهم علينا) فسيطر علي مشاعره إتباعا لقوله ﷺ.
ومن التأسي فيها أيضا رحمة القائد بجند من جنوده عندما عاد من أداء مهمته بنجاح ، حين ألبس رسول الله حذيفة من فضل عباءته بعد أن داهمه البرد بعد إنتهاء مهمته وتركه نائما حتي الصباح وأخذ يمازحه وهو يوقظه بقوله (قم يانومان).
خلاصة القول أن تأسي المسلم برسول الله ﷺ ليس أمرا إختياريا وإنما هو أمر يدور بين الوجوب والإستحباب حسب حالة موضوع التأسي ، فإن كان في أمر يخص الأوامر والنواهي والحدود والمعاملات فهو علي الوجوب ،

---

١٤٧ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ حديث رقم ٢٦٥٢ ورقم ٦٤٣٠
١٤٨ نفس المرجع السابق

وإن كان في أمر من خصوصيات النبي ﷺ المباحة كمأكله وملبسه وطريقة مشيته وكلامه مما لم يرد فبه أمر ولا نهي فهو علي الإستحباب .
والتأسي برسول الله ﷺ لايكون بالتغني بمحاسنه في كل مناسبة وترك التحلي بأخلاقه كهولاء الذين ينتهزون كل مناسبة ليتمايلوا ويتراقصوا علي ضربات الدفوف والمعازف مرددين (قمر ..وجميل سيدنا النبي) وهم يخالفون سنته بإستحلال المعازف ويعرضون عن سمته بحلق اللحي .
التأسي برسول الله يكون بالإمتثال لأوامره ونواهيه بحب وإستسلام دون حرج ، وتحري سنته في سلوكه مع مخلوقاته وفي معاملاته ، كما ورد في الأثر إن إستطعت ألا تحك جلدك إلا بسنه فأفعل .
التأسي برسول الله ﷺ من لوازمه كثرة الصلاة والسلام عليه كما ورد الأمر بهذا في نفس سورة الأحزاب بقوله تعالي {إِنَّ اللَّـهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ }، فدوام الصلاة والسلام عليه يجعلك دائم الإرتباط به ، فإن نسيت تتأسي به مرة ، ذكرك الصلاة والسلام عليه في الأخري .
التأسي برسول الله من لوازمه العلم بالصحيح من سيرته ، وصفاته ، وأخلاقه وشمائله ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وبمفهوم المخالفة من لايجعل رسول الله ﷺ أسوته هو من الذين لايرجون الله واليوم الآخر أي ليس من المؤمنين.

الدرس الثالث : المساواة بين الرجل والمرأة في الصفات الإيمانية

هذا الدرس نتعلمه من قول الله تعالي في سورة الأحزاب {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(35) }

هذه الآية جمعت كل الصفات الإيمانية التي يجب أن يتحلي بها المسلم ، رجلا أو إمرأة ، وفي سبب نزول هذه الآية درس لنسائنا في الحرص علي ماينفع في الآخرة ،

وقد ذكره الحافظ إبن كثير في تفسير هذه الآيه فقال [قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ :حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، حَدَّثَنَا عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شَيْبَةَ، سَمِعْتُ أُمّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ :قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا لَنَا لَا نُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ؟ قَالَتْ : فَلَمْ يَرعني مِنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ، وَأَنَا أسرّح شَعْرِي، فَلَفَفْتُ شَعْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرة مِنْ حُجَر بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ" :يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسَلَّمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ "إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زِيَادٍ، بِهِ مِثْلَهُ(١٤٩)

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ :أَنَّ يَحْيَى بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ، حَدَّثَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ :قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُذْكَرُ الرِّجَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا نُذْكَرُ؟فَأَنْزَلَ اللَّهُ :{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} الْآيَةَ](١٥٠)

فَقَوْلُهُ : {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : {قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } الْحُجُرَاتِ:١٤ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ) . فَيَسْلُبُهُ الْإِيمَانَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَخَصُّ مِنْهُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ.

---

١٤٩ المسند (٣٠٥/٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٤٠٥) وتفسير الطبري

١٥٠ تفسير الطبري (٨/٢٢)

وَقَوْلُهُ: {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ }الْقُنُوتُ: هُوَ الطَّاعَةُ فِي سُكُونٍ، {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} الزُّمَرِ:٩ ، وَقَالَ تعالى : {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} الرُّومِ:٢٦ {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} آلِ عِمْرَانَ:٤٣ {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } الْبَقَرَةِ:٢٣٨ . فَالْإِسْلَامُ بَعْدَهُ مَرْتَبَةٌ يَرْتَقِي إِلَيْهَا، ثُمَّ الْقُنُوتُ نَاشِئٌ عَنْهُمَا.

{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} : هَذَا فِي الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لَمْ تُجَرِّب عَلَيْهِ كِذْبَة لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ أَمَارَةٌ عَلَى النِّفَاقِ، ومَنْ صَدَقَ نَجَا،"عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ. وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويتحرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا ."وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

{وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ } : هَذِهِ سَجِيّة الْأَثْبَاتِ، وَهِيَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَقْدُورَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَتَلَقِّي ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَإِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، أَيْ :أَصْعَبُهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ، ثُمَّ مَا بَعْدَهُ أَسْهَلُ مِنْهُ، وَهُوَ صِدْقُ السَّجِيَّةِ وَثَبَاتُهَا .

{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ } الْخُشُوعُ : السُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ، وَالتُّؤَدَةُ وَالْوَقَارُ وَالتَّوَاضُعُ. وَالْحَامِلُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ وَمُرَاقَبَتُهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ : (اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

{وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ} : الصَّدَقَةُ: هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاوِيجِ الضُّعَفَاءِ، الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبَ، يُعْطَوْنَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ طَاعَةً لِلَّهِ، وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ :(سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّهِ "فَذَكَرَ مِنْهُمْ: "ورجل تصدق بصدقةأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) [١٥١] وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ :(وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ) [١٥٢]

---

١٥١ صحيح البخاري برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١)

١٥٢ رواه الترمذي في السنن برقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة، رضي الله عنه، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ" ورواه أحمد في المسند ٣٢١/٣ من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٦١٦) وابن ماجه في السنن برقم (٣٩٧٣) من حديث معاذ، رضي الله عنه.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّم، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّار ۞ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ. فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، أَوْ جَنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ. قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ، كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ، حَتَّى تَغْشَى أَنَامِلَهُ، وَتَعْفُو أَثَرَهُ، وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ، وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا .قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ :فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا فِي جَيْبِهِ. فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلَا يَتَّسِعُ .وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} التَّغَابُنِ:١٦ فَجُودُ الرَّجُلِ يُحَبِّبُهُ إِلَى أَضْدَادِهِ، وَبُخْلُهُ يُبَغِّضُهُ إِلَى أَوْلَادِهِ .كَمَا قِيلَ

{وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} : فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ: "وَالصَّوْمُ زَكَاةُ الْبَدَنِ" أَيْ: تُزَكِّيهِ وَتُطَهِّرُهُ وَتُنَقِّيهِ مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ طَبْعًا وَشَرْعًا.قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، دخل في قوله : {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}

وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ- كَمَا قَالَ رَسُولُﷺ (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وأحْصَن لِلْفَرْجِ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاء) [١٥٣]- نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ : {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} أَيْ: عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ إِلَّا عَنِ الْمُبَاحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } الْمُؤْمِنُونَ: ٥-٧.

وَقَوْلُهُ :{ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْأَقْمَرِ، عَنِ الأغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قَالَ :(إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ الأعمش، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْأَقْمَرِعَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ

---

١٥٣ صحيح البخاري برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠)

وَأَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِهِ[١٥٤]
وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُجَيْن بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ -مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاش بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ -أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) ، وَقَالَ مُعَاذٌ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ غَدًا فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُم)؟ قَالُوا :بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .قَالَ :(ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. [١٥٥]
وَقَوْلُهُ{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}أَيْ هَيَّأَ لَهُمْ مِنْهُ لذنوبهم مغفرة وأجرا عظيما وهو الجنة. إه [١٥٦]
وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات، بدأت بالمسلمين والمسلمات، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وَختمت بقَوْلُهُ{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} ، وفيه قدم قدَّم المغفرة على الأجر؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التي فعلوها، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشيء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه، ’فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر في الآخرة.فنحن المستفيدون من التكاليف، ففيها صلاحُنَا في الدنيا، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة.

١٥٤ سنن أبي داود برقم (١٣٠٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥)
١٥٥ المسند (٢٣٩/٥)
١٥٦ تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

الدرس الرابع : لا إختيار بعد إختيار الله ورسوله

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا } (36)

فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُخَالَفَتُهُ وَلَا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَاهُنَا، وَلَا رَأْيَ وَلَا قَوْلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى {فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النِّسَاءِ:٦٥ وَفِي الْحَدِيثِ" :وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ ."وَلِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ، فَقَالَ : وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى : {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور:٦٣

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ، قَالَ :قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [١٥٧]

ومعنى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ ... } الأحزاب: ٣٦معنى {ما كان} أي: أنه شيء بعيد، لا يمكن أنْ يَرِد على العقل، أي :أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة، فالمؤمن والمؤمنة، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه، أو أمر رسوله إلى اختيارهما.{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ} الأحزاب: ٣٦ وإلا فلا إيمانَ لا بالله، ولا برسول الله.

فإنْ قُيل: كيف وقد أثبتَ الله الاختيار؟ نقول: هناك فرق بين اختيارٍ داخل في التكليف، إنْ شئْتَ فعلْته أو لم تفعله، وشيء في إيجاد التكليف بداية، فليس للعباد دخْل في إيجاد الشيء المكلَّف به، إنما إذا كلَّفتهم أنا، فأنا صاحب التكليف، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه، فهذا أمر آخر، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم؛ لأن التكليف لي، ولهم الاختيار في طاعته وفي قبوله، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر، وألاَّ يُعرضوا عنه إلى غيره.

---

١٥٧ صحيح البخاري رقم (١٥) كتاب الإيمان باب حب الرسول من الإيمان

ثم يقول تعالى :{وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً} الأحزاب: ٣٦ وهنا ثلاثة توكيدات: قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضي، ثم المفعول المطَلق ضلالاً، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين.
والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدّي إلى الغاية، لكن قد يضلّ إنسانٌ طريقه، ثم يأتي مَنْ يفتح عليه ويدلُّه، أما هذا الذي يعصي الله ورسوله، فضلاله ضلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه، ولا مَنْ يهديه أبداً؛ لأن هذا الطريق الذي يسير فيه مُوصِّل إلى الآخرة، وليس هناك شيء من ذلك.

الدرس الخامس : ذكر الله والصلاة والسلام علي رسول الله

إن الدين عند الله الإسلام ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، وقبول الدين معناه دخول الجنة ، فالإسلام كطائر يحمل المسلم إلي الجنة ، رأس هذا الطائر هي العقائد وعلي رأسها التوحيد بأنواعه الثلاثة ، توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وجناحي الطائر هما المعاملات في جناح ، والعبادات في الجناح الثاني ، لن يستطيع الطائر أن يحمل المسلم إلي الجنة إلا بسلامة رأسه وجناحيه .
ويمكن للمسلم أن يحول كل معاملاته إلي عبادات ، وذلك بإخلاص النية لله تعالي في كل عمل يعمله ، قولا أو فعلا. وهذا هو المقصود من قوله تعالي في سورة الذاريات {وما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} ﴿٥٦﴾
والعبادات ، من حيث هي عمل تنقسم إلي قسمان ، عبادات مقيدة ، وعبادات مفتوحة ، فالعبادات المقيدة هي التي قيدها الشرع بنصوص تحدد مكانها ، وزمانها ، وكيفية أدائها ، ورخصها ، وشروطها ، وواجباتها ، كالصلاة مكانها المساجد ، وأوقاتها محددة ، ولها هيئة محددة ولكنها شرعت لذكر الله ، لقول الله تعالي في سورة طه (إِنَّنِي أَنَا اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) ﴿١٤﴾
وكذلك كل أركان الإسلام ، الزكاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد وغيرها من العبادات كلها شرعت لذكر الله عز وجل ، ويزداد ثوابها وأجرها ، بزيادة الإلتزام بشروطها والإخلاص لله في أدائها ، والخشوع والتسليم له بها .
أما القسم الثاني من العبادات وهو العبادات المفتوحة أو الغير مقيدة بزمان ، أو بمكان ، أو بهيئة محددة هذه العبادة هي ذكر الله المطلق ، والصلاة والسلام علي رسوله ﷺ، وهو مانحن بصدد الحديث عنه في هذا الدرس .

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا(44) }

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ تَعَالَى، الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَأَصْنَافِ الْمِنَنِ، لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَجَمِيلِ الْمَآبِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَلَّا أُنْبِئَكُمْ بِخَيْرِ أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ والوَرق، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟) قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ :(ذِكْرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ) وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ زِيَادٍ -مَوْلَى ابْنِ عَيَّاشٍ- عَنْ أَبِي بَحرية - وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ التَّرَاغِمِيُّ -عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، بِهِ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ :وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عنه فأرسله.[١٥٨] فهذا الحديث نص صريح في علو قدر عبادة ذكر الله عز وجل وإرتفاع أجرها وثوابها عن سائر الأعمال حتي عن الجهاد ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} وفي الحديث الآخر عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ قَالَ :سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ بُسْرٍ يَقُولُ: جَاءَ أَعْرَابِيَّانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا :يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟قَالَ" :مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ."وَقَالَ الْآخَرُ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا ، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ .قَالَ :(لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ) [١٥٩]

وفي مسند الإمام أحمد ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، إِلَّا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [١٦٠]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :{اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضْ عَلَى عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ عُذْرٍ، غَيْرَ الذِّكْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ، إِلَّا مَغْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ :{فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

---

١٥٨ المسند (١٩٥/٥) وسنن الترمذي (٣٣٧٧) وسنن ابن ماجه (٣٧٩٠).

١٥٩ المسند (١٩٠/٤)

١٦٠ المسند (٢٢٤/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨٠/١٠) : "رجاله رجال الصحيح".

جُنُوبِكُمْ}النِّسَاءِ:١٠٣، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي السِّفْرِ وَالْحَضَرِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ، وَالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، وَقَالَ : {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا} فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ صَلَّى عَلَيْكُمْ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ.
وكل الآيات التي تحث علي ذكر الله إشترطت أن يكون (كثيرا) ، بل إن الآية في سورة النساء جعلت الذكر القليل من صفات المنافقين فيقول الله تعالي {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّـهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّـهَ إِلَّا قَلِيلًا} ﴿١٤٢﴾
فذكر الله أصل موالاة الله، عز وجل، ورأسها. والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه. قال الله تعالى:{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتبع هواه وكان أمره فرطا} الكهف﴿٢٨﴾ وما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله، فالذكر جلاب النعم دفاع النقم ، ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان، وقال تعالى:{وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم} إبراهيم ﴿٧﴾ والذكر رأس الشكر، والشكر جلاب النعم، موجب للمزيد.
قال بعض السلف: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك. ومجالس الذكر رياض الجنة كما روى ابن الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا) قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: (حلق الذكر) [١٦١] وفي رواية ثم قال: (اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه).
فمجالس الذكرهي مجالس الملائكة كما فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة فُضْلا عن كتاب الناس يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلم إلى حاجتكم، فتحف بأجنحتها إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأوني؟ قال: يقولون: لا والله يا ربنا ما رأوك، فيقول: كيف لو أنهم رأوني؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك كانوا أشد عبادة وأشد تحميدا وتمجيدا، وأكثر تسبيحا، فيقول: ما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف

١٦١ سنن الترمذي أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ حديث رقم (٣٥١٠).

لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد حرصا عليها، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، فيقول: مم يتعوذون؟ قال: فيقولون: من النار، فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة، فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلانا ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"، فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم.)[١٦٢]

والذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله، عز وجل، بجميل صفاته وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟ وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهي أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، وهذا من حيث النظر إلى كل واحد منهما مجردا، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن، وكذلك التشهد، وكذلك رب اغفر لي بين السجدتين، وقول رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني بين السجدتين أفضل من القراءة. وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة، ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة. وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول، أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله على خلقه، لكن لكل مقام مقال.وَالْأَحَادِيثُ وَالْآيَاتُ وَالْآثَارُ فِي الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَثُّ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ. ولايتسع المجال لحصرها ، بل تحتاج لكتاب مستقل ،وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ فِي الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِآنَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَالنَّسَائِيِّ وَالْمَعْمَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا ، وَمِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي ذَلِكَ كِتَابُ الْأَذْكَارِ لِلشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيِّ، رَحِمَهُ الله تعالى.

أما الصلاة والسلام علي رسول الله فقد سبق الكلام عليها في خصائص النبي ﷺوذلك من قول تعالي في سورة الأحزاب {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56) }

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ :أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ، لِيَجْتَمِعَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا.

---

١٦٢ صحيح البخاري كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله عز وجل رقم (٦٤٠٨) ، وصحيح مسلم رقم (٢٦٨٩)

وقد سبق وبينا كيفية وفضل الصلاة عليه عند الكلام عن خصائصه صلي الله عليه وسلم ، وقد ورد في أحاديث كثيرة فضل الإكثار من الصلاة والسلام علي النبي ﷺ، منها أن من صلي عليه مرة ، صلي الله بها عليه عشرا ، والمحروم هو من حرم فضل الصلاة والسلام عليه ، وكما قال علي إبن أبي طالب قال رسول الله ﷺ (البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصلي علي) [١٦٣]
وقد شرعت الصلاة والسلام علي النبي في مواطن كثيرة للعبادة ، منها ماذهب إليه الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ، فَإِنْ تَرَكَهُ لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ ، وفي الحديث عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ :سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ،لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(عَجِل هَذَا) ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ" :إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ثُمَّ ليدعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ [١٦٤]
وفي سنن الترمذي قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَال (مَا شِئْتَ) قُلْتُ :الرُّبْعُ؟ قَالَ :(مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) قُلْتُ :فَالنِّصْفُ؟ قَالَ(مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) قُلْتُ فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ :(مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) قُلْتُ :أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ :(إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ) ثُمَّ قَالَ :هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ [١٦٥]
وفي سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :(مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ) [١٦٦] ،وَمِنْ ذَلِكَ :أَنَّهُ يُستَحَبّ خَتَمَ الدُّعَاءِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ قَالَ التِّرْمِذِيُّ:عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسيَّب، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَصْعَدُ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ[١٦٧]
وَمِنْ آكَدِ ذَلِكَ: دُعَاءُ الْقُنُوتِ: لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ ، وَابْنُ حبَّان، وَالْحَاكِمُ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الحورَاء ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ :عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوَتْرِ:

---

١٦٣ سنن الترمذي أبواب الدعوات عن رسول الله رقم (٣٥٤٦)
١٦٤ المسند (١٨/٦) وسنن أبي داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذي برقم (٣٤٧٧) وسنن النسائي (٤٤/٣)
١٦٥ سنن الترمذي برقم (٢٤٥٧) .
١٦٦ سنن الترمذي برقم (٣٣٨٠) والمسند (٤٥٣/٢)
١٦٧ سنن الترمذي برقم (٤٨٦)

(اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هديت، وعافني فيمن عافيت،وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَاوَتَعَالَيْتَ) وَزَادَ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ بَعْدَ هَذَا :وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ. [١٦٨]

وَمِنْ ذَلِكَ :أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الجَعْفِي، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ ، عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْس الثَّقَفِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ) قَالُوا :يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا وَقَدْ أرمتْ؟- يَعْنِي :وَقَدْ بَلِيتَ- قَالَ :(إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ) [١٦٩]، وَقَدْ صَحَّحَ هَذَا الْحَدِيثَ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ، وَالنَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ.

مِنْ ذَلِكَ أيضا : أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ عِنْدَ زِيَارَةِ قَبْرِهِ، ﷺ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :(مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي، حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ) تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ [١٧٠] ، وَقَدْ اسْتَحَبَّ أَهْلُ الْكِتَابَةِ أَنْ يُكَرِّرَ الْكَاتِبُ الصلاة على النبي ﷺ كُلَّمَا كَتَبَهُ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ" :الْجَامِعُ لِآدَابِ الرَّاوِي وَالسَّامِعِ ، قَالَ :رَأَيْتُ بِخَطِّ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ :كَثِيرًا مَا يَكْتُبُ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ كِتَابَةً، قَالَ :وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي عَلَيْهِ لَفْظًا[١٧١]

---

[١٦٨] المسند (١٩٩/١) وسنن أبي داود برقم (١٤٢٥) وسنن الترمذي برقم (٤٦٤) وسنن النسائي (٢٤٨/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧٨) وصحيح ابن خزيمة (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (١٤٨/٢) والمستدرك (١٧١/٣)

[١٦٩] المسند (٨/٤) وسنن أبي داود برقم (١٠٤٧) وسنن النسائي (٩١/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٦٣٦) .

[١٧٠] سنن أبي داود برقم (٢٠٤١)

[١٧١] الجامع لأخلاق الراوي (٢٧١/١) ثم قال عقبه: "وقد خالفه غيره من الأئمة المتقدمين في ذلك"

الدرس السادس :القول السديد

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71) }

هذه الآيه فيها آخر الدروس الإيمانية في هذه الصورة الكريمة ، وقد بدأت الآية بالنداء {يا أيها الذين آمنوا } الذي تكرر في القرآن الكريم حوالي تسعين مرة ثم الأمر بتقوي الله يقوله تعالي (اتقوا الله) وقد تكرر هذا الأمر في القرآن الكريم سبع مرات ، والنداء مع الأمر {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} تكرر في القرآن الكريم ست وخمسون مرة.

هذه الإحصائيات المقصود بها بيان أهمية هذا الدرس الإيماني ، فتقوي الله عز وجل هي أسمي صفات المؤمنين ، وهي الغاية العظمي من كل أعمالهم ، وفي هذه الآية يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَةَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وقد سبق وبينا معني التقوي في الدرس الأول عند الحديث عن قول الله تعالي في الآية الأولي من السورة {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ} .

وَأَنْ يَقُولُوا {قَوْلا سَدِيدًا} أَيْ: مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ. وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، أَثَابَهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، أَيْ :يُوَفِّقُهُمْ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمُ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ. وَمَا قَدْ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يُلْهِمُهُمُ التَّوْبَةَ مِنْهَا.ثُمَّ قَالَ {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجَارُ مِنَ النَّارِ، وَيَصِيرُ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ.وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا :الْقَوْلُ السَّدَادُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .وَقِيلَ :هُوَ الَّذِي يُوَافِقُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ .وَقِيلَ :هُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ دُونَ غَيْرِهِ .وَقِيلَ :هُوَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ الْمُتَشَاجِرِينَ. وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ تَسْدِيدِ السَّهْمِ لِيُصَابَ بِهِ الْغَرَضُ.

وَالْقَوْلُ السَّدَادُ يَعُمُّ الْخَيْرَاتِ، فَهُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ مَا ذُكِرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ يُعْطِي أَنَّهُ إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى مَا يَكُونُ خِلَافًا لِلْأَذَى الَّذِي قِيلَ فِي جِهَةِ الرسول وجهة المؤمنين. ثم وعد عز وجل بِأَنَّهُ يُجَازِي عَلَى الْقَوْلِ السَّدَادِ بِإِصْلَاحِ الْأَعْمَالِ وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أَيْ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ {فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً}.

فَشَمَلَ الْقَوْلُ السَّدِيدُ الْأَقْوَالَ الْوَاجِبَةَ وَالْأَقْوَالَ الصَّالِحَةَ النَّافِعَةَ مِثْلَ ابْتِدَاءِ السَّلَامِ وَقَوْلِ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ :إِنِّي أُحِبُّكَ. وَالْقَوْلُ يَكُونُ بَابًا عَظِيمًا

مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَيَكُونُ كَذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشَّرِ وَفِي الْحَدِيثِ :(وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) [١٧٢]
وَيَشْمَلُ الْقَوْلُ السَّدِيدُ مَا هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ إِرْشَادٍ مِنْ أَقْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَمَا هُوَ تَبْلِيغٌ لِإِرْشَادٍ غَيْرِهِ مِنْ مَأْثُورِ أَقْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ.
فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْقَوْلِ السَّدِيدِ، وَرِوَايَةُ حَدِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقَوْلِ السَّدِيدِ.وَكَذَلِكَ نَشْرُ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالْحُكَمَاءِ وَأَئِمَّةِ الْفِقْهِ.
وَمِنَ الْقَوْلِ السَّدِيدِ تَمْجِيدُ اللهِ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِثْلَ التَّسْبِيحِ .وَمِنَ الْقَوْلِ السَّدِيدِ الْأَذَانُ وَالْإِقَامَةُ قَالَ تَعَالَى : { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}سُورَةِ فَاطِرٍ (١٠) .
فَبِالْقَوْلِ السَّدِيدِ تَشِيعُ الْفَضَائِلُ وَالْحَقَائِقُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَرْغَبُونَ فِي التَّخَلُّقِ بِهَا، وبالقول السيّء تَشِيعُ الضَّلَالَاتُ وَالتَّمْوِيهَاتُ وَالْقَوْلُ السَّدِيدُ يَشْمَلُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.
وَلِمَا فِي التَّقْوَى وَالْقَوْلِ السَّدِيدِ مِنْ وَسَائِلِ الصَّلَاحِ جَعَلَ لِلْآتِي بِهِمَا جَزَاءً بِإِصْلَاحِ الْأَعْمَالِ وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ. وَهُوَ نَشْرٌ عَلَى عَكْسِ اللَّفِّ، فَإِصْلَاحُ الْأَعْمَالِ جَزَاءٌ عَلَى الْقَوْلِ السَّدِيدِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يُفِيدُهُ الْقَوْلُ السَّدِيدُ إِرْشَادُ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاحِ أَوِ اقْتِدَاءُ النَّاسِ بِصَاحِبِ الْقَوْلِ السَّدِيدِ.

١٧٢ سنن الترمذي أبواب الإيمان رقم (٢٦١٦) ، سنن إبن ماجة كتاب الفتن –باب كف اللسان رقم (٣٩٧٣)

الفصل الثاني

دروس الترهيب

الدرس الأول : إثم من يأذي الله ورسوله

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا(58) }

في هذه الآية يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ آذَاهُ، بِمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَارْتِكَابِ زَوَاجِرِهِ وَإِصْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ، وأذَى رَسُولِهِ بِعَيْبٍ أَوْ تَنَقُّصٍ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ

وقد إختلف المفسرون في كيفية أذي الله ورسوله ، قَالَ عِكْرِمة فِي قَوْلِهِ :{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} : نَزَلَتْ فِي الْمُصَوِّرِينَ وذلك أنهم يرومون تكوين خلق مثل خلق الله [١٧٣]

عن ابن عباس في قوله{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حين تزوج صفية بنت حيي بن أخطب [١٧٤]

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسيَّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (يَقُولُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ :يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ) . [١٧٥]

وَمَعْنَى هَذَا :أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَعَلَ بِنَا كَذَا وَكَذَا. فَيُسْنِدُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الدَّهْرِ، وَيَسُبُّونَهُ، وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ. هَكَذَا قَرَّرَهُ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْعُلَمَاءِ، رَحِمَهُمُ اللَّه

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَن أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :(اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمِنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ)

وفي تفسير القرطبي يقول [اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أذية الله بماذا تَكُونُ؟ فَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ :مَعْنَاهُ بِالْكُفْرِ وَنِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ إِلَيْهِ،

---

١٧٣ تفسير الطبري

١٧٤ المصدر السابق

١٧٥ صحيح البخاري برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦)

وَوَصْفِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، كَقَوْلِ الْيَهُودِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ :وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ.وَالنَّصَارَى :الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .وَالْمُشْرِكُونَ :الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَالْأَصْنَامُ شُرَكَاؤُهُ .وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى) :كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَقُولُ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا). هَكَذَا جَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ.(١٧٦) وَقَدْ جاء مرفوعا عنه (يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أَخْرَجَهُ أَيْضًا مُسْلِمٌ (١٧٧)

وَقَالَ عِكْرِمَةُ :مَعْنَاهُ بِالتَّصْوِيرِ وَالتَّعَرُّضِ لِفِعْلِ مَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا اللَّهُ بِنَحْتِ الصُّوَرِ وَغَيْرِهَا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرِينَ) .قُلْت :وَهَذَا مِمَّا يُقَوِّي قَوْلَ مُجَاهِدٍ فِي الْمَنْعِ مِنْ تَصْوِيرِ الشَّجَرِ وَغَيْرِهَا، إذْ كُلُّ ذَلِكَ صِفَةُ اخْتِرَاعٍ وَتَشَبُّهٍ بِفِعْلِ اللَّهِ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا فِي سُورَةِ" النَّمْلِ " وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .وَقَالَتْ فِرْقَةٌ :ذَلِكَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، تَقْدِيرُهُ :يُؤْذُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ.

وَأَمَّا أَذِيَّةُ رَسُولِهِ ﷺ فَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْذِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي غَيْرِ مَعْنًى وَاحِدٍ، وَمِنَ الْأَفْعَالِ أَيْضًا .أَمَّا قَوْلُهُمْ:" فَسَاحِرٌ، شَاعِرٌ، كَاهِنٌ مَجْنُونٌ .وَأَمَّا فِعْلُهُمْ :فَكَسْرُ رَبَاعِيَتِهِ وَشَجُّ وَجْهِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَبِمَكَّةَ إلْقَاءُ السَّلَى عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ "إلَى غَيْرِ ذَلِكَ .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ طَعَنُوا عَلَيْهِ حِينَ اتَّخَذَ صَفِيَّةَ بِنت حُيَيّ. وَأُطْلِقَ إيذَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَقُيِّدَ إيذَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، لِأَنَّ إيذَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَكُونُ إلَّا بِغَيْرِ حَقّ أَبَدًا

قَوْلُهُ تَعَالَى{ لَعَنَهُمُ اللَّهُ} مَعْنَاهُ أَبْعِدُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَاللَّعْنُ فِي اللُّغَةِ:الْإِبْعَادُ، وَمِنْهُ اللِّعَانُ.] إنتهي (١٧٨)

وهناك نوع آخر من الأذي لرسول الله ﷺ ورد في قول الله تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا } (69)

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارَ الَّذِينَ آذَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ،

---

١٧٦ صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها

١٧٧ صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) وصحيح البخاري برقم (٤٨٢٦) كتاب التفسير سورة الجاثية .

١٧٨ تفسير القرطبي

حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْإِيذَاءِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي أَذِيَّتِهِمْ نَبِيَّهُمْ مُوسَى. وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَا أُوذِيَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَمُوسَى.
قَالَ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِفِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ بِسنده ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (إِنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ رَجُلًا حَيِيا سِتِّيرا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيء اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا :مَا يَتَسَتَّرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَة وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، أَرَادَ أَنْ يُبرئَه مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فلمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ :ثَوْبِي حَجَر، ثَوْبِي حَجَر، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُريانا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثوبَه فَلَبِسَهُ، وطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا- قَالَ :فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}. وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ دُونَ مُسْلِم. (١٧٩)
وقيل أنهم آذَوْا مُوسَى بِأَنْ قَالُوا: قَتَلَ هَارُونَ ، وقِيلَ :إِنَّ أَذِيَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَمْيُهُمْ إِيَّاهُ بِالسِّحْرِ وَالْجُنُونِ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ فَعَلُوا كُلَّ ذَلِكَ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ مَنَ الْأَنْصَارِ :إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ .قَالَ :فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَمَا لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قُلْتَ .قَالَ :فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺفاحمرَّ وَجْهُهُ، ثُمَّ قَالَ :(رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى، فَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ).أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ . (١٨٠) وَقَوْلُهُ :{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}أَيْ: لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَاهٌ عِنْدَ رَبِّهِ، عَزَّ وَجَلَّ ، أَيْ عَظِيمًا .وَالْوَجِيهُ عِنْدَ الْعَرَبِ :الْعَظِيمُ الْقَدْرِ الرَّفِيعُ الْمَنْزِلَةِ. وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَأَلَ اللَّهَ شَيْئًا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. و{وَجِيهاً} يَكُونُ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَعِنْدَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَعِنْدَ أَهْلِ الْآخِرَةِ، فَلَمَّا أَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْضِعَ الْمَدْحِ بِقَوْلِهِ{ وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً} اسْتَحَقَّ الشَّرَفَ وَأَعْظَمَ الرِّفْعَةِ عند الله

١٧٩ صحيح البخاري برقم (٣٤٠٤)
١٨٠ المسند (٣٨٠/١) وصحيح البخاري برقم (٣٤٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٢)

الدرس الثاني : إثم من يأذي المؤمنين والمؤمنات

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً} (58)

أَذِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ هِيَ أَيْضًا بِالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الْقَبِيحَةِ، كَالْبُهْتَانِ وَالتَّكْذِيبِ الْفَاحِشِ الْمُخْتَلَقِ .وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ "ومَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً "النساء ١١٢ ، وَقَدْ مَيَّزَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَذَاهُ وَأَذَى الرَّسُولِ وَأَذَى الْمُؤْمِنِينَ فَجَعَلَ الْأَوَّلَ كُفْرًا وَالثَّانِيَ كَبِيرَةً، فَقَالَ فِي أَذَى الْمُؤْمِنِينَ{ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً}

يقول إبن عاشور في التحرير والتنوير [وقد أُلْحِقَتْ حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِحُرْمَةِ الرَّسُولِ ﷺ تَنْوِيهًا بِشَأْنِهِمْ، وَذُكِرُوا عَلَى حِدَةٍ لِلْإِشَارَةِ إِلَى نُزُولِ رُتْبَتِهِمْ عَنْ رُتْبَةِ الرَّسُولِ ﷺ. وَهَذَا مِنَ الِاسْتِطْرَادِ مُعْتَرَضٌ بَيْنَ أَحْكَامِ حُرْمَةِ النَّبِي ﷺ وَآدَابِ أَزْوَاجِهِ وَبَنَاتِهِ وَالْمُؤْمِنَات

وَقَوْلُهُ :{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} أَيْ: يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بُرَآء مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ، {فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ الْبَيِّنُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ، عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ لَهُمْ، ومَنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الكفرةُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ الرَّافِضَةُ الَّذِينَ يَتَنَقَّصُونَ الصَّحَابَةَ وَيَعِيبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّأهم اللَّهُ مِنْهُ، وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَخْبَرَ أنه قد رضي عن المهاجرين **وَالْأَنْصَارِ وَمَدَحَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ** الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ يَسُبُّونَهُمْ وَيَتَنَقَّصُونَهُمْ ، وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْكُوسُو الْقُلُوبِ يَذُمُّونَ الْمَمْدُوحِينَ، وَيَمْدَحُونَ الْمَذْمُومِينَ.] إنتهي

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا القَعْنَبِيّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ- يَعْنِي :ابْنَ مُحَمَّدٍ -عَنْ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قِيلَ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْغِيبَةُ؟ قَالَ :(ذكرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ) قِيلَ :أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ :(إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّه)وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنِ الدَّرَاوَرْدِيّ، بِهِ .قَالَ :حَسَنٌ صَحِيحٌ [١٨١] وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: (بسنده)، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ :(أيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللَّهِ؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ :

---

[١٨١] سنن أبي داود برقم (٤٨٧٤) وسنن الترمذي برقم (١٩٣٤)

(أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ استحلالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ) ثُمَّ قَرَأَ :{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [١٨٢]
وَعَطْفُ الْمُؤْمِناتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِلتَّصْرِيحِ بِمُسَاوَاةِ الْحُكْمِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَعْلُومًا مِنَ الشَّرِيعَةِ، لِوَزْعِ الْمُؤْذِينَ عَنْ أَذَى الْمُؤْمِنَاتِ لِأَنَّهُنَّ جَانِبٌ ضَعِيفٌ بِخِلَافِ الرِّجَالِ فَقَدْ يَزَعُهُمْ عَنْهُمُ اتِّقَاءُ غَضَبِهِمْ وَثَأْرِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ.
وَالْمُرَادُ بِالْأَذَى :أَذَى الْقَوْلِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً لِأَنَّ الْبُهْتَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَقْوَالِ وَذَلِكَ تَحْقِيرٌ لِأَقْوَالِهِمْ، وَأَتْبَعَ ذَلِكَ التَّحْقِيرَ بِأَنَّهُ إِثْمٌ مُبِينٌ.
وَالْمُرَادُ بِالْمُبِينِ الْعَظِيمُ الْقَوِيُّ، أَيْ جُرْمًا مِنْ أَشَدِّ الْجُرْمِ، وَهُوَ وَعِيدٌ بِالْعِقَابِ عَلَيْهِ. وَضَمِيرُ اكْتَسَبُوا عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيبِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَالِ تَقْيِيدَ الْحُكْمِ حَتَّى يَكُونَ مَفْهُومُهُ جَوَازَ أَذَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِمَا اكْتَسَبُوا، أَيْ أَنْ يُسَبُّوا بِعَمَلٍ ذَمِيمٍ اكْتَسَبُوهُ لِأَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى ذَلِكَ لَيْسَ مَوْكُولًا لِعُمُومِ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما }النِّسَاء: ١٦
وَقَدْ نَهَى النَّبِي ﷺ عَنِ الْغِيبَةِ قَالَ : هِيَ أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ .فَقِيلَ: وَإِنْ كَانَ حَقًّا .قَالَ :إِنْ كَانَ غَيْرَ حَقٍّ فَذَلِكَ الْبُهْتَانُ، فَأَمَّا تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ فَلَا يَصْحَبُهُ أَذًى ، وَمَعْنَى احْتَمَلُوا كَلَّفُوا أَنْفُسَهُمْ حِمْلًا، وَذَلِكَ تَمْثِيلٌ لِلْبُهْتَانِ بِحِمْلٍ ثَقِيلٍ عَلَى صَاحِبِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناًفِي سُورَةِ النِّسَاء. [112]

[١٨٢] رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٦٧١١) من طريق يحيى بن واضح عن عمار بن أنس، به

الدرس الثالث : سنة الله في المنافقين

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا (62) }.

انْتِقَالٌ مِنْ زَجْرِ قَوْمٍ عُرِفُوا بِأَذَى الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَمِنْ تَوَعُّدِهِمْ بِغَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى تَهْدِيدِهِمْ بِعِقَابٍ فِي الدُّنْيَا يَشْرَعُهُ اللَّهُ لَهُمْ إِنْ هُمْ لَمْ يُقْلِعُوا عَنْ ذَلِكَ لِلْعِلْمِ بِأَنْ لَا يَنْفَعَ فِي أُولَئِكَ وَعِيدُ الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ ابْتُدِئَ التَّعْرِيضُ بِهِمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :(وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى قَوْله تَعَالَى: عَظِيماً)الْأَحْزَاب: ٥٣، ثُمَّ مِنْ قَوْلِهِ : {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} إِلَى قَوْلِهِ: {ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ }الْأَحْزَاب: ٥٧- ٥٩

وقد إستخرج الإمام القرطبي في تفسير قَوْلُهُ تعالى :{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ}الآية ، خمس مسائل:

[الأولي :أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ، كَمَا رَوَى سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ{ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} قَالَ هم شي وَاحِدٌ، يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ. وَالْوَاوُ مُقْحَمَةٌ،

وَقِيلَ :كَانَ مِنْهُمْ قَوْمٌ يُرْجِفُونَ، وَقَوْمٌ يَتْبَعُونَ النِّسَاءَ لِلرِّيبَةِ وَقَوْمٌ يشككون المسلمين .قال عكرمة وشهر ابن حَوْشَبٍ ":الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ "يَعْنِي الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمُ الزِّنَى." وَقَالَ طَاوُسٌ :نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ .وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ :نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

وقيل :المنافقون والذين في قلوبهم مرض شي وَاحِدٌ، عُبِّرَ عَنْهُمْ بِلَفْظَيْنِ، دَلِيلُهُ آيَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ "الْبَقَرَةِ " وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ قَوْمٌ كَانُوا يُخْبِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَسُوءُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَيَقُولُونَ إِذَا خَرَجَتْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :إِنَّهُمْ قَدْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا، وَإِنَّ الْعَدُوَّ قَدْ أَتَاكُمْ، قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ.

وَقِيلَ كَانُوا يَقُولُونَ :أَصْحَابُ الصُّفَّةِ قَوْمٌ عُزَّابٌ، فَهُمُ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّسَاءِ.

وَقِيلَ :هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَنْطِقُونَ بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ حُبًّا لِلْفِتْنَةِ. وَقَدْ كَانَ فِي أَصْحَابِ الْإِفْكِ قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حبا لِلْفِتْنَةِ .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :الْإِرْجَافُ الْتِمَاسُ الْفِتْنَةِ، وَالْإِرْجَافُ :إِشَاعَةُ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ لِلِاغْتِمَامِ بِهِ

وَقِيلَ:تَحْرِيكُ الْقُلُوبِ، يُقَالُ :رَجَفَتِ الْأَرْضُ- أَيْ تَحَرَّكَتْ وَتَزَلْزَلَتْ- تَرْجُفُ رَجْفًا .وَالرَّجَفَانُ :الِاضْطِرَابُ الشَّدِيدُ. فالارجاف حرام، لان فيه أذائه. فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى تَحْرِيمِ الْإِيذَاءِ بِالْإِرْجَافِ

الثَّانِيَةُ -قَوْلُهُ تَعَالَى :{لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} أَيْ لَنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ فَتَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْقَتْلِ .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ إِيذَاءِ النِّسَاءِ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَغْرَاهُ بِهِمْ.ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ":وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ "التوبة: ٨٤وَإِنَّهُ أَمَرَهُ بِلَعْنِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْإِغْرَاءُ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ :قَدْ أَغْرَاهُ بِهِمْ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِي هَذِهِ مَعَ اتِّصَالِ الْكَلَامِ بِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ{ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} فَهَذَا فِيهِ مَعْنَى الْأَمْرِ بِقَتْلِهِمْ وَأَخْذِهِمْ، أَيْ هَذَا حُكْمُهُمْ إِذَا كَانُوا مُقِيمِينَ عَلَى النِّفَاقِ وَالْإِرْجَافِ.

وَقِيلَ :إِنَّهُمْ قَدِ انْتَهَوْا عَنِ الْإِرْجَافِ فَلَمْ يُغْرَ بِهِمْ. وَلَامُ "لَنُغْرِيَنَّكَ "لَامُ الْقَسَمِ، وَالْيَمِينُ وَاقِعَةٌ عَلَيْهَا، وَأُدْخِلَتِ اللَّامُ فِي "إِنْ "تَوْطِئَةً لَهَا.

الثَّالِثَةُ -قَوْلُهُ تَعَالَى :{ثُمَّ لَا يُجاوِرُونَكَ فِيها} أَيْ فِي الْمَدِينَةِ{ إِلَّا قَلِيلًا} نُصِبَ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي{ يُجاوِرُونَكَ} فَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا أَقَلَّاءَ. فَهَذَا أَحَدُ جَوَابَيِ الْفَرَّاءِ، وَهُوَ الْأَوْلَى عِنْدَهُ، أَيْ لَا يُجَاوِرُونَكَ إِلَّا فِي حَالِ قِلَّتِهِمْ. وَالْجَوَابُ الْآخَرُ- أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى إِلَّا وَقْتًا قَلِيلًا، أَيْ لَا يَبْقَوْنَ مَعَكَ إِلَّا مُدَّةً يَسِيرَةً، أَيْ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا جِوَارًا قَلِيلًا حَتَّى يَهْلِكُوا، فَيَكُونُ نَعْتًا لِمَصْدَرٍ أَوْ ظَرْفٍ مَحْذُوفٍ. وَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَكَ سَاكِنًا بِالْمَدِينَةِ فَهُوَ جَارٌ.

الرَّابِعَةُ -قَوْلُهُ تَعَالَى :{مَلْعُونِينَ} هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ .وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ{ قَلِيلًا مَلْعُونِينَ} وَقْفٌ حَسَنٌ .النَّحَّاسُ :وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّمَامُ{ إِلَّا قَلِيلًا} وَتُنْصَبُ {مَلْعُونِينَ} عَلَى الشَّتْمِ .كَمَا قَرَأَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ{ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ النَّحْوِيِّينَ أَنَّهُ قَالَ :يَكُونُ الْمَعْنَى أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا مَلْعُونِينَ. وَهَذَا خَطَأٌ لَا يَعْمَلُ مَا كَانَ مَعَ الْمُجَازَاةِ فِيمَا قَبْلَهُ ، مَطْرُودُونَ مَلْعُونُونَ.

وَقَدْ فُعِلَ بِهِمْ هَذَا، فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ "بَرَاءَةَ "جُمِعُوا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (يَا فُلَانُ قُمْ فَاخْرُجْ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ وَيَا فُلَانُ قُمْ) فَقَامَ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَوَلَّوْا إِخْرَاجَهُمْ مِنَ الْمَسْجِدِ

الْخَامِسَةُ -قَوْلُهُ تَعَالَى :{سُنَّةَ اللَّهِ}نصب على المصدر، أي سن الله عز وجل فِيمَنْ أَرْجَفَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَظْهَرَ نِفَاقَهُ أَنْ يُؤْخَذَ وَيُقْتَلَ .{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا} أَيْ تَحْوِيلًا وَتَغْيِيرًا، حَكَاهُ النَّقَّاشُ .وَقَالَ السُّدِّيُّ :يَعْنِي أَنَّ مَنْ قُتِلَ بِحَقٍّ فَلَا دِيَةَ عَلَى قاتله.
وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَرْكِ إِنْفَاذِ الْوَعِيدِ، وَالدَّلِيل عَلَى ذَلِكَ بَقَاءُ الْمُنَافِقِينَ مَعَهُ حَتَّى مَاتَ. وَالْمَعْرُوفُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ إِتْمَامُ وَعْدِهِمْ وَتَأْخِيرُ وَعِيدِهِمْ] إنتهي [١٨٣]
وقوله :{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} أَيْ: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا} أَيْ: وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ.
وَبِهَذَا الْوَعِيدِ انْكَفَّ الْمُنَافِقُونَ عَنْ أَذَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَنِ الْإِرْجَافِ فَلَمْ يَقَعِ التَّقْتِيلُ فِيهِمْ إِذْ لَمْ يُحْفَظْ أَنَّ النَّبِي ﷺ قَتَلَ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا أَنَّهُمْ خَرَجَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.
وَهَذِهِ الْآيَةُ تُرْشِدُ إِلَى تَقْدِيمِ إِصْلَاحِ الْفَاسِدِ مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى قَطْعَةٍ مِنْهَا لِأَنَّ إِصْلَاحَ الْفَاسِدِ يُكْسِبُ الْأُمَّةَ فَرْدًا صَالِحًا أَوْ طَائِفَةً صَالِحَةً تَنْتَفِعُ الْأُمَّةُ مِنْهَا كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ (بل أرجو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ) [١٨٤]،وَلِهَذَا شُرِعَتْ اسْتِتَابَةُ الْمُرْتَدِّ قَبْلَ قَتْلِه ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ فِيهَا التَّوْبَةُ، وَشُرِعَتْ دَعْوَةُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَغْزُوهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي غَزْوِهِمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا وَإِلَّا عَرَضَ عَلَيْهِمُ الدُّخُولَ فِي ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ فِي دُخُولِهِمْ فِي الذِّمَّةِ انْتِفَاعًا لِلْمُسْلِمِينَ بِجِزْيَتِهِمْ وَالِاعْتِضَادِ بِهِمْ . وَأَمَّا قَتْلُ الْقَاتِلِ عَمْدًا فَشُرِعَ فِيهِ مُجَارَاةً لِقَطْعِ الْأَحْقَادِ مِنْ قُلُوبِ أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ لِئَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُ الْأُمَّةِ بَعْضًا، إِذْ لَا دَوَاءَ لِتِلْكَ الْعِلَّةِ إِلَّا الْقِصَاصُ. وَلِذَلِكَ رَغَّبَ الشَّرْعُ فِي الْعَفْوِ وَفِي قَبُولِهِ .وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ فِي آيَةِ سورة المائدة { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } أَوْ فِيهَا لِلتَّنْوِيعِ لَا لِلتَّخْيِيرِ فَقَالَ: يَكُونُ الْجَزَاءُ بِقَدْرِ جُرْمِ الْمُحَارِبِ وَكَثْرَةِ مَقَامِهِ فِي فَسَادِهِ. وَكَانَ النَّفْيُ مِنَ الْأَرْضِ آخَرَ أَصْنَافِ الْجَزَاءِ لِأَنَّ فِيهِ اسْتِبْقَاءَهُ رَجَاءَ تَوْبَتِهِ وَصَلَاح حَاله.

---

١٨٣ تفسير القرطبي

١٨٤ صحيح البخاري برقم (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق ، صحيح مسلم برقم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير

الدرس الرابع : وعيد الله للكافرين

يقول الله تعالي في سورة الأحزاب {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68) }

يقول إبن كثير في تفسيره [{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ} أَيْ: أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ {وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أَيْ: مَاكِثِينَ مُسْتَمِرّينَ، فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا، {لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا} أَيْ: وَلَيْسَ لَهُمْ مُغِيثٌ وَلَا مُعِينٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

ثُمَّ قَالَ :{ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا} أَيْ: يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَتُلْوَى وُجُوهُهُمْ عَلَى جَهَنَّمَ، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ، يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْعَرَصَاتِ بِقَوْلِهِ :{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا (٢٨) } الفرقان

وَقَالَ تَعَالَى :{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} الْحِجْرِ: ٢ وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللَّهَ، وَأَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا.أَيِ :اتَّبَعْنَا السَّادَةَ وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ الْمَشْيَخَةِ، وَخَالَفْنَا الرُّسُلَ وَاعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا، وَأَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَإِذَا هُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ.(رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) أَيْ: بِكُفْرِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ إِيَّانَا، {وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ. وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالثَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ، وَهُمَا قَرِيبَا الْمَعْنَى، كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو :أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي .قَالَ :(قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ [١٨٥] ، يُروى" كَبِيرًا "وَ"كَثِيرًا"، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنًى صَحِيحٍ.] أنتهي [١٨٦]

---

١٨٥ صحيح البخاري رقم (٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥)

١٨٦ تفسير إبن كثير

يقول القرطبي [قَوْلُهُ تَعَالَى :{ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِ اللَّامِ، عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ وَقَرَأَ عِيسَى الْهَمْدَانِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ ":نُقَلِّبُ "بِنُونٍ وَكَسْرِ اللَّامِ ".وُجُوهَهُمْ "نَصْبًا .وَقَرَأَ عِيسَى أَيْضًا ": تُقَلِّبُ "بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ اللَّامِ عَلَى مَعْنَى تُقَلِّبُ السَّعِيرُ وُجُوهَهُمْ. وَهَذَا التَّقْلِيبُ تَغْيِيرُ أَلْوَانِهِمْ بِلَفْحِ النَّارِ، فَتَسْوَدُّ مَرَّةً وَتَخْضَرُّ أُخْرَى. وَإِذَا بُدِّلَتْ جُلُودُهُمْ بِجُلُودٍ أُخَرَ فَحِينَئِذٍ يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُمْ مَا كَفَرُوا { يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا} وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: يَقُولُونَ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَا لَيْتَنَا .{أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا} أَيْ لَمْ نَكْفُرْ فَنَنْجُوَ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ كَمَا نَجَا الْمُؤْمِنُونَ. وَهَذِهِ الْأَلِفُ تَقَعُ فِي الْفَوَاصِلِ فَيُوقَفُ عَلَيْهَا وَلَا يُوصَلُ بِهَا. وَكَذَا "السَّبِيلَا "وَقَدْ مَضَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ . وقرا الحسن { إنا أطعنا سَادَاتِنَا} بِكَسْرِ التَّاءِ، جَمْعُ سَادَةٍ. وَكَانَ فِي هَذَا زَجْرٌ عَنِ التَّقْلِيدِ. وَالسَّادَةُ جَمْعُ السَّيِّدِ، وَهُوَ فَعَلَةٌ، مِثْلُ كَتَبَةٍ وَفَجَرَةٍ. وَسَادَاتُنَا جَمْعُ الْجَمْعِ. وَالسَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ بِمَعْنًى .وَقَالَ قَتَادَةُ :هُمُ الْمُطْعِمُونَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ. وَالْأَظْهَرُ الْعُمُومُ فِي الْقَادَةِ وَالرُّؤَسَاءِ فِي الشِّرْكِ وَالضَّلَالَةِ، أَيْ أَطَعْنَاهُمْ فِي مَعْصِيَتِكَ وَمَا دَعَوْنَا إِلَيْهِ {فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} أَيْ عَنِ السَّبِيلِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، فَلَمَّا حُذِفَ الْجَارُّ وُصِلَ الْفِعْلُ فَنُصِبَ. وَالْإِضْلَالُ لَا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَوَسُّطِ حَرْفِ الْجَرِّ،كقوله{ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ} الفرقان: ٩٢ **وَاسْتَحَبَّ بَعْضُهُمْ أَنْ يَجْمَعَ الدَّاعِي بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ فِي دُعَائِهِ، وَفِي ذَلِكَ نَظَرٌ، بَلِ الْأَوْلَى أَنْ يَقُولَ هَذَا تَارَةً، وَهَذَا تَارَةً، كَمَا أَنَّ الْقَارِئَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ أَيَّتُهُمَا قَرَأَ فَحَسَنٌ، وَلَيْسَ لَهُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.**
قَوْلُهُ تَعَالَى :{ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} قَالَ قَتَادَةُ: عَذَابُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ .وَقِيلَ :عَذَابُ الْكُفْرِ وَعَذَابُ الْإِضْلَالِ، أَيْ عَذِّبْهُمْ مِثْلَيْ مَا تُعَذِّبُنَا فَإِنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا .{وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابُهُ وَيَحْيَى وَعَاصِمٌ بِالْبَاءِ. الْبَاقُونَ بِالثَّاءِ، وَاخْتَارَهُ أَبُو حَاتِمٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ وَالنَّحَّاسُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى{ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} البقرة: ١٥٩ وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ .
وَإِعَادَةُ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِمْ :رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ تَأْكِيدٌ للضراعة والابتهال وتمهيد لِقَبُولِ سُؤْلِهِمْ حَتَّى إِذَا قُبِلَ سُؤْلُهُمْ طَمِعُوا فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي أَلْقَوْهُ عَلَى كَاهِلِ كُبَرَائِهِمْ.
وَالضِّعْفُ بِكَسْرِ الضَّادِ :الْعَدَدُ الْمُمَاثِلُ لِلْمَعْدُودِ، فَالْأَرْبَعَةُ ضِعْفُ الِاثْنَيْنِ. وَلَمَّا

كَانَ الْعَذَابُ مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي لَا ذَاتًا كَانَ مَعْنَى تَكْرِيرِ الْعَدَدِ فِيهِ مَجَازًا فِي الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ.
وَتَثْنِيَةُ ضِعْفَيْنِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مُطْلَقِ التَّكْرِيرِ كِنَايَةً عَنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
{ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } الْملك: ٤ فَإِنَّ الْبَصَرَ لَا يَخْسَأُ فِي نَظْرَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ هُنَا :آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ مُسَاوِيًا لِقَوْلِهِ: {فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ} فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ . [38] وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِإِلْقَاءِ تَبِعَةِ الضَّلَالِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي أُعِدَّ لَهُمْ يُسَلَّطُ عَلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ.
وَوُصِفَ اللَّعْنُ بِالْكَثْرَةِ كَمَا وُصِفَ الْعَذَابُ بِالضِّعْفَيْنِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْكُبَرَاءَ اسْتَحَقُّوا عَذَابًا لِكُفْرِهِمْ وَعَذَابًا لِتَسَبُّبِهِمْ فِي كُفْرِ أَتْبَاعِهِمْ. فَالْمُرَادُ بِالْكَثِيرِ الشَّدِيدِ الْقَوِيِّ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْكَثِيرِ لِمُشَاكَلَةِ مَعْنَى التَّثْنِيَةِ فِي قَوْلِهِ:ضِعْفَيْنِ الْمُرَادِ بِهِ الْكَثْرَةَ.
وَقَدْ ذُكِرَ فِي الْأَعْرَافِ جَوَابُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْجَلَالَةِ بِقَوْلِهِ :{ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ } الْأَعْرَاف: ٣٨ يَعْنِي أَنَّ الْكُبَرَاءَ اسْتَحَقُّوا مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ لِضَلَالِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ وَأَنَّ أَتْبَاعَهُمْ أَيْضا استحقوا مضاعفة الْعَذَابَ لِضَلَالِهِمْ وَلِتَسْوِيدِ سَادَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمُ العمياء إيَّاهُم.] إنتهي[١٨٧]

١٨٧ تفسير القرطبي

الخاتمة

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا بَيَّنَ ، وَفِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، تأتي آيتان جامعتان لكل ما تضمنته السورة من معاني ، ومضمونهما مرتبط بمضمون ماقبلهما . وقد إختلف المفسرون في تفسير آية العرض إختلافا كبيرا لأنها تتحدث عن أمر غيبي لم يرد في تفسيره نص قطعي الثبوت والدلالة عن رسول الله ﷺ.

يقول الله تعالي في الآية الأولي لختام سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولا }(72)

وفي الآية الأخيرة يقول الله تعالي { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً(73) }

أفتتاح الآية بحرف توكيد (إنا) يسترعي الإهْتِمَامِ بِالْخَبَرِالتالي أَوْ تَنْزِيلِهِ لِغَرَابَةِ شَأْنِهِ مَنْزِلَةَ مَا قَدْ يُنْكِرُهُ السَّامِعُ ، وَافْتِتَاحُ الْآيَةِ بِمَادَّةِ الْعَرْضِ، وَصَوْغُهَا فِي صِيغَةِ الْمَاضِي، وَجَعْلُ مُتَعَلِّقِهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالِ وَالْإِنْسَانِ يومىء إِلَى أَنَّ مُتَعَلَّقَ هَذَا الْعَرْضِ كَانَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيَقْتَضِي أَنَّهُ عَرْضٌ أَزَلِيٌّ فِي مَبْدَأِ التَّكْوِينِ عِنْدَ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِإِيجَادِ الْمَوْجُودَاتِ الْأَرْضِيَّةِ وَإِيدَاعِهَا فُصُولَهَا الْمُقَوِّمَةَ لِمَوَاهِيهَا وَخَصَائِصِهَا وَمُمَيِّزَاتِهَا الْمُلَائِمَةِ لِوَفَائِهَا بِمَا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ كَمَا حُمِلَ قَوْلُهُ : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذرياتهم)الْأَعْرَاف: ١٧٢ الْآيَةَ

وَاخْتِتَامُ الْآيَةِ بِالْعِلَّةِ مِنْ قَوْلِهِ : {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ } الْأَحْزَاب: ٧٣ إِلَى نِهَايَةِ السُّورَةِ يَقْتَضِي أَنَّ لِلْأَمَانَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَزِيدَ اخْتِصَاصٍ بِالْعِبْرَةِ فِي أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ بَيْنِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ فِي رَعْيِ الْأَمَانَةِ وَإِضَاعَتِهَا

هَذَا الْعَرْضَ كَانَ فِي مَبْدَأِ تَكْوِينِ الْعَالَمِ وَنَوْعِ الْإِنْسَانِ لِأَنَّهُ لَمَّا ذُكِرَتْ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مَعَ الْإِنْسَانِ عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ نَوْعُهُ لِأَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ بَعْضُ أَفْرَادِهِ وَلَوْ فِي أَوَّلِ النَّشْأَةِ لَمَا كَانَ فِي تَحَمُّلِ ذَلِكَ الْفَرْدِ الْأَمَانَةَ ارْتِبَاطٌ بِتَعْذِيبِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَلَمَا كَانَ فِي تَحَمُّلِ بَعْضِ أَفْرَادِهِ دُونَ بَعْضٍ الْأَمَانَةَ حِكْمَةٌ

وقد إختلف العلماء في كيفية العرض ، قال الإمام القرطبي في تفسيره [وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ الْأَمَانَةَ عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، قَالَتْ :وَمَا فِيهَا؟ قِيلَ لَهَا :إِنْ أَحْسَنْتِ جُوزِيتِ وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ. فَقَالَتْ لَا .قَالَ مُجَاهِدٌ :فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ عَرَضَهَا عَلَيْهِ، قال :وما هي؟ قال :إن أحسنت أجرتك وإن أَسَأْتَ عَذَّبْتُكَ .قَالَ :فَقَدْ تَحَمَّلْتُهَا يَا رَبِّ .

قَالَ مُجَاهِدٌ :فَمَا كَانَ بَيْنَ أَنْ تَحَمَّلَهَا إِلَى أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْرَ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ .وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ} قَالَ: الْأَمَانَةُ الْفَرَائِضُ، عَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، إِنْ أَدَّوْهَا أَثَابَهُمْ، وَإِنْ ضَيَّعُوهَا عَذَّبَهُمْ. فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِدِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يَقُومُوا بِهِ.

ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا .قَالَ النَّحَّاسُ :وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ التَّفْسِيرِ .وَقِيلَ :لَمَّا حَضَرَتْ آدَمَ ﷺ الْوَفَاةُ أُمِرَ أَنْ يَعْرِضَ الْأَمَانَةَ عَلَى الْخَلْقِ، فَعَرَضَهَا فَلَمْ يَقْبَلْهَا إِلَّا بَنُوهُ .

وَقِيلَ :هَذِهِ الْأَمَانَةُ هِيَ مَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْخَلْقِ، مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ أَنْ يُظْهِرُوهَا فَأَظْهَرُوهَا، إِلَّا الْإِنْسَانَ فَإِنَّهُ كتمها وجحدها، قال بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ.

وَمَعْنَى{ عَرَضْنَا} أَظْهَرْنَا، كَمَا تَقُولُ :عَرَضْتُ الْجَارِيَةَ عَلَى الْبَيْعِ. وَالْمَعْنَى إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ وَتَضْيِيعَهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ{ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها} أي أن يحملن وزرها، كما قال عز وجل : { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ} العنكبوت: ١٣{ وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ } قَالَ الْحَسَنُ: الْمُرَادُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ{ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً} لِنَفْسِهِ{ جَهُولًا} بِرَبِّهِ. فَيَكُونُ على هذا الجواب مجازا، مثل{ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} يوسف: ٨٢ .

وَفِيهِ جَوَابٌ آخَرُ عَلَى أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً أَنَّهُ عَرَضَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ الْأَمَانَةَ وَتَضْيِيعَهَا وَهِيَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، أَيْ أَظْهَرَ لَهُنَّ ذَلِكَ فَلَمْ يَحْمِلْنَ وِزْرَهَا، وَأَشْفَقْتَ وَقَالَتْ :لَا أَبْتَغِي ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا، وَكُلٌّ يَقُولُ:هَذَا أَمْرٌ لَا نُطِيقُهُ، وَنَحْنُ لَكَ سَامِعُونَ وَمُطِيعُونَ فيما أمرن به وسخرن له، قاله الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ .

قَالَ الْعُلَمَاءُ :مَعْلُومٌ أَنَّ الْجَمَادَ لَا يَفْهَمُ وَلَا يُجِيبُ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ الْحَيَاةِ عَلَى الْقَوْلِ الْأَخِيرِ. وَهَذَا الْعَرْضُ عَرْضُ تَخْيِيرٍ لَا إِلْزَامٍ. وَالْعَرْضُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِلْزَامٌ .

وَقَالَ الْقَفَّالُ وَغَيْرُهُ :الْعَرْضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ضَرْبُ مَثَلٍ، أَيْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ عَلَى كِبَرِ أَجْرَامِهَا، لَوْ كَانَتْ بِحَيْثُ يَجُوزُ تكليفها لثقل عليهاتَقَلُّدُ الشَّرَائِعِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، أَيْ أَنَّ التَّكْلِيفَ أَمْرٌ حَقُّهُ أَنْ تَعْجِزَ عَنْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَقَدْ كُلِّفَهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ ظَلُومٌ جَهُولٌ لَوْ عَقَلَ .وَهَذَا كَقَوْلِهِ { لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ} الحشر: ٢١ ثم قال{ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ} الحشر: ٢١

قَالَ الْقَفَّالُ :فَإِذَا تَقَرَّرَ فِي أَنَّهُ تَعَالَى يَضْرِبُ الْأَمْثَالَ، وَوَرَدَ عَلَيْنَا مِنَ الْخَبَرِ مَا لَا يَخْرُجُ إِلَّا عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ، وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَيْهِ .وَقَالَ قَوْمٌ :إِنَّ الْآيَةَ مِنَ الْمَجَازِ، أَيْ إِنَّا إِذَا قَايَسْنَا ثِقَلَ الْأَمَانَةِ بِقُوَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، رَأَيْنَا أَنَّهَا لَا تُطِيقُهَا، وَأَنَّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ لَأَبَتْ وَأَشْفَقَتْ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ} الْآيَةَ .وَهَذَا كَمَا تَقُولُ :عَرَضْتُ الْحِمْلَ عَلَى الْبَعِيرِ فَأَبَاهُ، وَأَنْتَ تُرِيدُ قَايَسْتُ، قُوَّتَهُ بِثِقَلِ الْحِمْلِ، فَرَأَيْتُ أَنَّهَا تَقْصُرُ عَنْهُ.

وَقِيلَ{ عَرَضْنَا} بمعنى عارضنا الامامة بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَضَعُفَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ عَنِ الْأَمَانَةِ، وَرَجَحَتِ الْأَمَانَةُ بِثِقَلِهَا عَلَيْهَا .وَقِيلَ :إِنَّ عَرْضَ الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، إِنَّمَا كَانَ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا اسْتَخْلَفَهُ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، وَسَلَّطَهُ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالطَّيْرِ وَالْوَحْشِ، وَعَهِدَ إِلَيْهِ عَهْدًا أَمَرَهُ فِيهِ وَنَهَاهُ وَحَرَّمَ وَأَحَلَّ، فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَزَلْ عَامِلًا بِهِ. فَلَمَّا أَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُعْلِمَهُ مَنْ يَسْتَخْلِفُ بَعْدَهُ، وَيُقَلِّدُهُ مِنَ الْأَمَانَةِ مَا تَقَلَّدَهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى السَّمَاوَاتِ بِالشَّرْطِ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ إِنْ أَطَاعَ وَمِنَ الْعِقَابِ إِنْ عَصَى، فَأَبَيْنَ أَنْ يَقْبَلْنَهُ شَفَقًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا فَأَبَيَاهُ. ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى وَلَدِهِ فَعَرَضَهُ عَلَيْهِ فَقَبِلَهُ بِالشَّرْطِ، وَلَمْ يَهَبْ مِنْهُ مَا تَهَيَّبَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَال] إنتهي [١٨٨]

---

١٨٨ تفسير القرطبي

وَالْعَرْضُ :حَقِيقَتُهُ إِحْضَارُ شَيْءٍ لِآخَرَ لِيَخْتَارَهُ أَوْ يَقْبَلَهُ وَمِنْهُ عَرْضُ الْحَوْضِ عَلَى النَّاقَةِ، أَيْ عَرْضُهُ عَلَيْهَا أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ، وَعَرْضُ الْمُجَنَّدِينَ عَلَى الْأَمِيرِ لِقَبُولِ مَنْ تَأَهَّلَ مِنْهُمْ .وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ :(عُرِضْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ فَرَدَّنِي وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ فَأَجَازَنِي) . وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى :أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ فِي سُورَةِ هُودٍ [18] ، وَقَوْلِهِ :{عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا} فِي سُورَةِ الْكَهْفِ. [48]

والرأي الذي تميل إليه النفس هو أن العرض هو مثل أو إستعارة تمثيلية لِوَضْعِ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُ أَهْلٌ لَهُ دُونَ بَقِيَّةِ الْأَشْيَاءِ، وَعَدَمُ وَضْعِهِ فِي بَقِيَّةِ الْأَشْيَاءِ لِعَدَمِ تَأَهُّلِهَا لِذَلِكَ الشَّيْءِ، فَشُبِّهَتْ حَالَةُ صَرْفِ تَحْمِيلِ الْأَمَانَةِ عَنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَوَضْعِهَا فِي الْإِنْسَانِ بِحَالَةِ مَنْ يَعْرِضُ شَيْئًا عَلَى أُنَاسٍ فَيَرْفُضُهُ بَعْضُهُمْ وَيَقْبَلُهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ، أَوْ تَمْثِيلٌ لِتَعَلُّقِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِعَدَمِ صَلَاحِيَةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لِإِنَاطَةِ مَا عُبِّرَ عَنْهُ بِالْأَمَانَةِ بِهَا وَصَلَاحِيَةِ الْإِنْسَانِ لذَلِك، فشبهت حَالَةُ تَعَلُّقِ عِلْمِ اللَّهِ بِمُخَالَفَةِ قَابِلِيَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ بِحَمْلِ الْأَمَانَةِ لِقَابِلِيَّةِ الْإِنْسَانِ ذَلِكَ بِعَرْضِ شَيْءٍ عَلَى أَشْيَاءَ لِاسْتِظْهَارِ مِقْدَارِ صَلَاحِيَّةِ أَحَدِ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ لِلتَّلَبُّسِ بِالشَّيْءِ الْمَعْرُوضِ عَلَيْهَا.

وذلك كقول الله تعالي في سورة الأعراف {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} ﴿٤٠﴾ ، ففي علم الله تعالي أن أبواب السماء لن تفتح للمكذبين بآياته والمستكبرين عنها ، ولتوضيح هذا المنع من الفتح شبهه بمثل مستحيل تحقيقه وهو دخول الجمل في سم الخياط .

فَائِدَةُ هَذَا التَّمْثِيلِ تَعْظِيمُ أَمْرِ هَذِهِ الْأَمَانَةِ إِذْ بَلَغَتْ أَنْ لَا يُطِيقَ تَحَمُّلَهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مَا يُبْصِرُهُ النَّاسُ مِنْ أَجْنَاسِ الْمَوْجُودَاتِ. فَتَخْصِيصُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْمَوْجُودَاتِ لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ الْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَعَطْفُ الْجِبالِ عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ مِنْهَا لِأَنَّ الْجِبَالَ أَعْظَمُ الْأَجْزَاءِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ ظَاهِرِ الْأَرْضِ وَهِيَ الَّتِي تُشَاهِدُ الْأَبْصَارُ عَظَمَتَهَا إِذِ الْأَبْصَارُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى :{ لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ }الْحَشْر: ٢١

يقول صاحب التحرير والتنوير [وَقَدْ عُدَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ مُشْكِلَاتِ الْقُرْآنِ وَتَرَدَّدَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَأْوِيلِهَا تَرَدُّدًا دَلَّ عَلَى الْحَيْرَةِ فِي تَقْوِيمِ مَعْنَاهَا. وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى تَقْوِيمِ مَعْنَى الْعَرْضِ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ مَعْنَى الْأَمَانَةِ، وَمَعْرِفَةِ مَعْنَى الْإِبَاءِ وَالْإِشْفَاقِ فَأَمَّا الْعَرْضُ فَقَدِ اسْتَبَانَتْ مَعَانِيهِ بِمَا عَلِمْتَ مِنْ طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ. وَأَمَّا الْأَمَانَةُ فَهِيَ مَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ وَيُطَالَبُ بِحِفْظِهِ وَالْوَفَاءِ دُونَ إِضَاعَةٍ وَلَا إِجْحَافٍ، وَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهَا الْمُفَسِّرُونَ عَلَى عِشْرِينَ قَوْلًا وَبَعْضُهَا مُتَدَاخِلٌ فِي بعض، ولنبتدىء بِالْإِلْمَامِ بِهَا ثُمَّ نَعْطِفُ إِلَى تَمْحِيصِهَا وَبَيَانِهَا]. (١٨٩)

فَقِيلَ :الْأَمَانَةُ الطَّاعَةُ، وَقِيلَ :الصَّلَاةُ، وَقِيلَ :مَجْمُوعُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالِاغْتِسَالِ، وَقِيلَ :جَمِيعُ الْفَرَائِضِ، وَقِيلَ:الِانْقِيَادُ إِلَى الدِّينِ، وَقِيلَ :حِفْظُ الْفَرْجِ، وَقِيلَ :الْأَمَانَةُ التَّوْحِيدُ، أَوْ دَلَائِلُ الْوَحْدَانِيَّةِ، أَوْ تَجَلِّيَاتُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ،وَقِيلَ :مَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَمِنْهُ انْتِفَاء الْغِشّ فِي الْعَمَلِ، وَقِيلَ :الْأَمَانَةُ الْعَقْلُ، وَقِيلَ :الْخِلَافَةُ، أَيْ خِلَافَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَوْدَعَهَا الْإِنْسَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى :{وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}الْبَقَرَة: ٣٠الْآيَةَ.

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَرْجِعُ إِلَى أَصْنَافٍ :صِنْفُ الطَّاعَاتِ وَالشَّرَائِعِ، وَصِنْفُ الْعَقَائِدِ، وَصِنْفٌ ضِدَّ الْخِيَانَةِ، وَصِنْفُ الْعَقْلِ، وَصِنْفُ خِلَافَةِ الْأَرْضِ.وَيَجِبُ أَنْ يُطْرَحَ مِنْهَا صِنْفُ الشَّرَائِعَ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لَازِمَةً لِفِطْرَةِ الْإِنْسَانِ فَطَالَمَا خَلَتْ أُمَمٌ عَنِ التَّكْلِيفِ بِالشَّرَائِعِ وهم أهل الفترة فَتَسْقُطُ سِتَّةُ أَقْوَالٍ وَهِيَ مَا فِي الصِّنْفِ الْأَوَّلِ.وَيَبْقَى سَائِرُ الْأَصْنَافِ لِأَنَّهَا مُرْتَكِزَةٌ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ وَفِطْرَتِهِ.

فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَمَانَةُ أَمَانَةَ الْإِيمَانِ، أَيْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَهِيَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى جِنْسِ بَنِي آدَمَ وَهُوَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذرياتهم وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا} سُورَةِ الْأَعْرَافِ .172 فَالْمَعْنَى :أَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِي نُفُوسِ النَّاسِ دَلَائِلَ الْوَحْدَانِيَّةِ فَهِيَ مُلَازِمَةٌ لِلْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ فَكَأَنَّهَا عَهْدُ اللَّهِ لَهُمْ بِهِ وَكَأَنَّهُ أَمَانَةٌ ائْتَمَنَهُمْ عَلَيْهَا لِأَنَّهُ أَوْدَعَهَا فِي الْجِبِلَّةِ مُلَازِمَةً لَهَا، وَهَذِهِ الْأَمَانَةُ لَمْ تُودَعْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَمَانَةَ مِنْ قَبِيلِ الْمَعَارِفِ وَالْمَعَارِفُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي

---

١٨٩ التحرير والتنوير

لَا يَتَّصِفُ بِهِ إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ الْحَيَاةِ لِأَنَّهَا مُصَحِّحَةُ الْإِدْرَاكِ لِمَنْ قَامَتْ بِهِ، وَيُنَاسِبُ هَذَا الْمَحْمَلَ قَوْلُهُ: { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ }الْأَحْزَاب: ٧٣، فَإِنَّ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ خَالُيان مِنَ الْإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَمَانَةُ هِيَ الْعَقْلَ وَتَسْمِيَتُهُ أَمَانَةً تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ وَلِأَن الْأَشْيَاء النفيسة تُوَدَعُ عِنْدَ مَنْ يَحْتَفِظُ بِهَا.

يقول إبن عاشور في التحرير والتنوير [وَالْمَعْنَى :أَنَّ الْحِكْمَةَ اقْتَضَتْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُسْتَوْدَعَ الْعَقْلِ مِنْ بَيْنِ الْمَوْجُودَاتِ الْعَظِيمَةِ لِأَنَّ خِلْقَتَهُ مُلَائِمَةٌ لِأَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَإِنَّ الْعَقْلَ يَبْعَثُ عَلَى التَّغَيُّرِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَلَوْ جُعِلَ ذَلِكَ فِي سَمَاءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي جَبَلٍ مِنِ الْجِبَالِ أَوْ جَمِيعِهَا لَكَانَ سَبَبًا فِاضْطِرَابِ الْعَوَالِمِ وَانْدِكَاكِهَا.

وَأَقْرَبُ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ الْعَقْلَ أَنْوَاعُ الْحَيَوَانِ مَا عَدَا الْإِنْسَانَ فَلَوْ أُودِعَ فِيهَا الْعَقْلُ لَمَا سَمَحَتْ هَيْئَاتُ أَجْسَامِهَا بِمُطَاوَعَةِ مَا يَأْمُرُهَا الْعَقْلُ بِهِ. فَلْنَفْرِضْ أَنَّ الْعَقْلَ يُسَوِّلُ لِلْفَرَسِ أَنْ لَا يَنْتَظِرُ عَلَفَهُ أَوْ سَوْمَهُ وَأَنْ يَخْرُجَ إِلَى حَنَّاطٍ يَشْتَرِي مِنْهُ عَلَفًا، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيع إفصاحا ويضيع فِي الْإِفْهَامِ ثُمَّ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ تَسْلِيمِ الْعِوَضِ بِيَدِهِ إِلَى فَرَسٍ غَيْرِهِ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ مُعَامَلَتُهُ مَعَ أَحَدٍ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ.وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَمَانَةُ مَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ مَخَالِطٌ لِبَنِي جِنْسِهِ فَهُوَ لَا يَخْلُو عَنِ ائْتِمَانٍ أَوْ أَمَانَةٍ فَكَانَ الْإِنْسَانُ مُتَحَمِّلًا لِصِفَةِ الْأَمَانَةِ بِفِطْرَتِهِ وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي الْوَفَاءِ لِمَا ائْتُمِنُوا عَلَيْهِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ :(إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) قال : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : (إذا وسد الأمر إلي غير أهله فانتظر الساعة) [١٩٠] أَيْ إِذَا انْقَرَضَتِ الْأَمَانَةُ كَانَ انْقِرَاضُهَا عَلَامَةً عَلَى اخْتِلَالِ الْفِطْرَةِ، فَكَانَ فِي جُمْلَةِ الِاخْتِلَالَاتِ الْمُنْذِرَةِ بِدُنُوِّ السَّاعَةِ مِثْلَ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ وَانْكِدَارِ النُّجُومِ وَدَكِّ الْجِبَالِ.

وَالَّذِي بَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ حُذَيْفَةَ :"حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا فَقَالَ :يَنَامُ الرَّجُلُ

---

١٩٠ صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب رفع الأمانه رقم (٦٤٩٧)

النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ [١٩١]، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ [١٩٢] كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفَطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمينا، وَيُقَال للرّجَال :مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، ولقد أتي علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما رده الإسلام ، وإن كان نصرانيا رده علي ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا .[١٩٣] أَيْ مِنْ أَمَانَةٍ لِأَنَّ الْإِيمَانَ مِنَ الْأَمَانَةِ لِأَنَّهُ عَهْدُ اللَّهِ.

وَمعنى عرض هَذِه الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ يَنْدَرِجُ فِي مَعْنَى تَفْسِيرِ الْأَمَانَةِ بِالْعَقْلِ، لِأَنَّ الْأَمَانَةَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْعَقْلُ وَيُصَرِّفُهَا، وَحِينَئِذٍ فَتَخْصِيصُهَا بِالذِّكْرِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَهَمِّيَّتِهَا فِي أَخْلَاقِ الْعَقْلِ.

وَالْقَوْلُ فِي حَمْلِ مَعْنَى الْأَمَانَةِ عَلَى خِلَافَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ مِثْلُ الْقَوْلِ فِي الْعَقْلِ لِأَنَّ تِلْكَ الْخِلَافَةَ مَا هَيَّأَ الْإِنْسَانَ لَهَا إِلَّا الْعَقْلُ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :{وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }الْبَقَرَة: ٣٠ ثُمَّ قَوْلُهُ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها }الْبَقَرَة: ٣١ فَالْخِلَافَةُ فِي الْأَرْضِ هِيَ الْقِيَامُ بِحِفْظِ عُمْرَانِهَا وَوَضْعِ الْمَوْجُودَاتِ فِيهَا فِي مَوَاضِعِهَا، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيمَا اسْتَعَدَّتْ إِلَيْهِ غَرَائِزُهَا.

وَبَقِيَّةُ الْأُمُورِ الَّتِي فَسَّرَ بِهَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الْأَمَانَةَ يُعْتَبَرُ تَفْسِيرُهَا مِنْ قَبِيلِ ذِكْرِ الْأَمْثِلَةِ الْجُزْئِيَّةِ لِلْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ.

وَالْمُتَبَادِرُ مِنْ هَذِهِ الْمَحَامِلِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَمَانَةِ حَقِيقَتَهَا الْمَعْلُومَةَ وَهِيَ الْحِفَاظُ عَلَى مَا عُهِدَ بِهِ وَرَعْيُهُ وَالْحِذَارُ مِنَ الْإِخْلَالِ بِهِ سَهْوًا أَوْ تَقْصِيرًا فَيُسَمَّى تَفْرِيطًا وَإِضَاعَةً، أَوْ عَمْدًا فَيُسَمَّى خِيَانَةً وَخَيْسًا لِأَنَّ هَذَا الْمَحْمَلَ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِوُرُودِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي خِتَامِ السُّورَةِ الَّتِي ابْتُدِئَتْ بِوَصْفِ خِيَانَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَإِخْلَالِهِمْ بِالْعُهُودِ وَتَلَوُّنِهِمْ مَعَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَعَالَى :{ وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ } الْأَحْزَاب: ١٥ وَقَالَ: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }الْأَحْزَاب: ٢٣

---

١٩١ الوكت : الشية في الشيء من غير لونه

١٩٢ المجل : أنتفاخ في الجلد مرتفعة يكون ما تحتها فارغا ، كأثر الحريق في الجلد

١٩٣ صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب رفع الأمانه رقم (٦٤٩٧)

وَهَذَا الْمَحْمَلُ يَتَضَمَّنُ أَيْضًا أَقْرَبَ الْمَحَامِلِ بَعْدَهُ وَهُوَ أَن يكون هُوَ الْعَقْلَ لِأَنَّ قَبُولَ الْأَخْلَاق فرع عَنهُ.

وقوله{كانَ ظَلُوماً جَهُولًا} أَنَّهُ قَصَّرَ فِي الْوَفَاءِ بِحَقِّ مَا تَحَمَّلَهُ تقصيرا :بعضه عَن عَمْدٍ وَهُوَ الْمعبر عَنهُ بِوَصْفِ ظَلُومٍ، وَبَعْضُهُ عَنْ تَفْرِيطٍ فِي الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْوَفَاءِ وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِكَوْنِهِ جَهُولًا، فَظَلُومٌ مُبَالَغَةٌ فِي الظُّلْمِ وَكَذَلِكَ جَهُولٌ مُبَالَغَةٌ فِي الْجَهْلِ.

وَالْجَهْلُ :انْتِفَاءُ الْعِلْمِ بِمَا يَتَعَيَّنُ عِلْمُهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا انْتِفَاءُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِمَوَاقِعِ الصَّوَابِ فِيمَا تَحَمَّلَ بِهِ، فَقَوْلُهُ :إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا مُؤْذِنٌ بِكَلَامٍ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ هُوَ عَلَيْهِ إِذِ التَّقْدِيرُ: وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ فَلَمْ يَفِ بِهَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ :فَكَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، أَيْ ظَلُومًا، أَيْ فِي عَدَمِ الْوَفَاءِ بِالْأَمَانَةِ لِأَنَّهُ إِجْحَافٌ بِصَاحِبِ الْحَقِّ فِي الْأَمَانَةِ أَيًّا كَانَ، وَجَهُولًا فِي عدم تَقْدِيره قَدْرِ إِضَاعَةِ الْأَمَانَةِ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ الْمُتَفَاوِتَةِ الْمَرَاتِبِ فِي التَّبِعَةِ بِهَا، وَلَوْلَا هَذَا التَّقْدِيرُ لَمْ يَلْتَئِمِ الْكَلَامُ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يُحَمَّلِ الْأَمَانَةَ بِاخْتِيَارِهِ بَلْ فُطِرَ عَلَى تَحَمُّلِهَا.وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ ظَلُوماً جَهُولًا فِي فِطْرَتِهِ، أَيْ فِي طَبْعِ الظُّلْمِ، وَالْجَهْلِ فَهُوَ مُعَرَّضٌ لَهُمَا مَا لَمْ يَعْصِمْهُ وَازِعُ الدِّينِ، فَكَانَ مِنْ ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ أَنْ أَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْأَمَانَةَ الَّتِي حَمَلَهَا.

وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ ضَمِيرَ إِنَّهُ عَائِدًا عَلَى الْإِنْسَانِ وَتَجْعَلَ عُمُومَهُ مَخْصُوصًا بِالْإِنْسَانِ الْكَافِرِ تَخْصِيصًا بِالْعَقْلِ لِظُهُورِ أَنَّ الظَّلُومَ الْجَهُولَ هُوَ الْكَافِرُ.أَوْ تَجْعَلُ فِي ضَمِيرِ إِنَّهُ اسْتِخْدَامًا بِأَنْ يَعُودَ إِلَى الْإِنْسَانِ مُرَادًا بِهِ الْكَافِرُ وَقَدْ أُطْلِقَ.] إنتهي [١٩٤]

ولقد وردت كلمة الإنسان في القرآن الكريم كلها في موضع القدح ، والذم ، والإستنكار إلا مواضع التوصية بالوالدين أو التذكير بأصل خلقته ، أما غير ذلك ، فقد وصف بأنه ضعيفا ، وإذا مسه الضر دعانا لجنبه أو قاعدا فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يعنا إلي ضر مسه ، وإنه ليئوس كفور ، وظلوم كفار ، خصيم مبين ، عجولا ، كفورا ، إذا مسه الشر يئوسا ، قتورا ، أكثر شيئ جدلا ، ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أولا يذكر أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ، خلق الإنسان من عجل ، إن الإنسان لكفور ،

١٩٤ التحرير والتنوير

ظلوما جهولا ، لايسأم الإنسان من دعاء الخير وإذا مسه الشر فيئوس قنوط ، أعرض ونأي بجانبه ، كفور مبين ، خلق هلوعا ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر ، قتل الإنسان ما أكفره ، كلا إن الإنسان ليطغي ، وأخيرا إن الإنسان لفي خسر .

فَصِيغَتَا الْمُبَالَغَةِ مَنْظُورٌ فِيهِمَا إِلَى الْكَثْرَةِ وَالشِّدَّةِ فِي أَكْثَرِ أَفْرَادِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْحُكْمُ الَّذِي يُسَلَّطُ عَلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَالْقَبَائِلِ يُرَاعَى فِيهِ الْغَالِبُ وَخَاصَّةً فِي مَقَامِ التَّحْذِيرِ وَالتَّرْهِيبِ .وَهَذَا الْإِجْمَالُ يُبَيِّنُهُ قَوْلُهُ عَقِبَهُ :{ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ } إِلَى قَوْلِهِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ)الْأَحْزَاب: ٧٣ فَقَدْ جَاءَ تَفْصِيلُهُ بِذِكْرِ فَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مضيع للأمانة وَالْآخر مُرَاعٍ لَهَا

وَلِذَلِكَ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ وَفَّوْا بِالْعُهُودِ وَالْأَمَانَاتِ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ {وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا } الْأَحْزَاب: ١٥ وَقَالَ فِيهَا: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } الْأَحْزَاب: ٢٣ وَقَالَ: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ } مَرْيَم: ٥٤ وَقَالَ فِي ضِدِّ ذَلِكَ: وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ إِلَى قَوْلِهِ:{أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ } الْبَقَرَة: ٢٦، ٢٧.

وقوله { ليعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيما } (73)

وَالْمَعْنَى :فَعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى عَدَمِ الْوَفَاءِ بِالْأَمَانَةِ الَّتِي تَحَمَّلُوهَا فِي أَصْلِ الْفِطْرَةِ وَبِحَسَبِ الشَّرِيعَةِ، وَتَابَ عَلَى الْمُؤمنِينَ فغفر لَهُم مِنْ ذُنُوبِهِمْ لِأَنَّهُمْ وَفَّوْا بِالْأَمَانَةِ الَّتِي تَحَمَّلُوهَا .وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِيمَا مَرَّ :{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ }الْأَحْزَاب: ٢٤ أَيْ كَمَا تَابَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَنْدَمُوا عَلَى مَا فَرَطَ مِنْ نِفَاقِهِمْ فَيُخْلِصُوا الْإِيمَانَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ. وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ :{وَيَتُوبَ اللَّهُ } وَكَانَ الظَّاهِرُ إِضْمَارَهُ لِزِيَادَةِ الْعِنَايَةِ بِتِلْكَ التَّوْبَةِ لِمَا فِي الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ مِنَ الْعِنَايَةِ .

وَذَكَرَ الْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَعَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي حِينِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْ ذَلِكَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ الَّتِي شَاعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ شُمُولُهُ لِلنِّسَاءِ نَحْوَ قَوْلِهِمْ :حَلَّ بِبَنِي فُلَانٍ مَرَضٌ يُرِيدُونَ وَبِنِسَائِهِمْ فَذِكْرُ النِّسَاءِ فِي الْآيَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ لَهُنَّ شَأْنًا كَانَ فِي حَوَادِثِ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ مِنْ إِعَانَةٍ لِرِجَالِهِنَّ عَلَى كَيْدِ الْمُسْلِمِينَ وَبِعَكْسِ ذَلِكَ حَالُ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ. وَجُمْلَةُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً بِشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنَّ اللَّهَ عَامَلَهُمْ بِالْغُفْرَانِ وَمَا تَقْتَضِيهِ صِفَةُ الرَّحْمَةِ.

تم ولله الحمد والمنة.

المنصورة في ٢٠١٩/١٠/١٠

المراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : كتب الحديث

١. **صحيح البخاري**
٢. **صحيح مسلم**
٣. **سنن أبي داود**
٤. **سنن الترمذي**
٥. **سنن النسائي**
٦. **سنن إبن ماجة**
٧. **موطأ مالك**
٨. **سنن الدارمي**
٩. **مسند أحمد**
١٠. **مستدرك الحاكم**

ثالثا : كتب التفسير

١. **تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للإمام الطبري**
٢. **تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي**
٣. **تفسير القرآن العظيم للحافظ إبن كثير**
٤. **تفسير روح المعاني للألوسي**
٥. **تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي**
٦. **تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور**
٧. **تفسير الشيخ الشعراوي**
٨. **التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي**

رابعا : كتب السيرة

١. الترغيب والترهيب للمنذري
٢. البداية والنهاية لإبن كثير
٣. السيرة النبوية لإبن هشام
٤. أطلس السيرة النبوية للدكتور شوقي أبو خليل
٥. البيان القرآني للسيرة النبوية للدكتور محمد أحمد الشرقاوي

خامسا : كتب عامة

١. المجتمع المثالي كما تصوره سورة النساء ، للشيخ محمد محمد المدني
٢. عودة الحجاب للدكتور محمد إسماعيل المقدم
٣. التوثيق القرآني لغزوة الأحزاب للدكتور محمد أحمد الشرقاوي
٤. حفر الخندق – مقال للدكتور راغب السرجاني

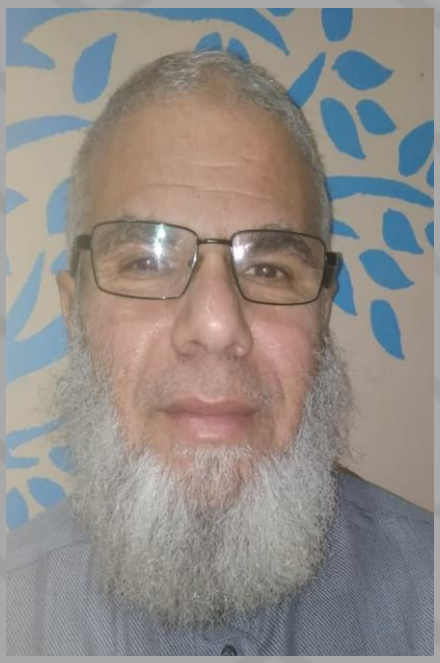

نبذة عن الكاتب

الإسم محمد إبن عبد اللطيف إبن محمد سرحان.

ولد في ١٩٥٨/٩/١٧ ، في إحدي قري مركز المنصورة. حاصل علي بكالوريوس الهندسة من جامعة المنصورة. عام ١٩٨١ م . وعمل في شركات إنتاج الكهرباء .

ت / ٠١٠١٦٧٢٩٦١٠

نبذة عن الكتاب

كتاب [تذكير الأحباب بدروس من سورة الأحزاب] هو الكتاب الأول من سلسلة كتب في التفسير الموضوعي لبعض سور القرآن الكريم ، والتي بدأت بسورة الأحزاب .

ويتضمن الكتاب مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة ، أهم ماتضمنته هذه الأبواب قصة غزوة الأحزاب ، والدروس المستفادة منها ومعجزة حفر الخندق من منظور عصري ، وسبعا من خصائص النبي صلي الله عليه وسلم في هذه السورة الكريمة وحدها ، أهمها تفردها بعدد خمس نداءات للنبي ﷺ بـ (يأيها النبي) من أربعة عشر نداءا في القرآن الكريم ، وأهم الأحكام الشرعية الواردة في هذه السورة ثلاثة أحكام هي حكم تحريم التبني ، وحكم عدة المطلقة الغير مدخول بها ، وحكم الحجاب ، وحديث عن خصائص زوجات النبي صلي الله عليه وسلم ، وأهم الدروس المستفادة من السورة .